النزيل الغامض

رواية تشويق استثنائية

خادمة أم قاتلة أم ضحية؟

نيتا بروز

مؤلفة رواية "الخادمة" التي تجاوزت المليون نسخة

ترجمة: الحارث النبهان



نيتا بروز

النزيل الغامض

أفضل كتاب بحسب: محرري "نيويورك تايمز بوك ريفيو"، "بوشوغار"، "هاربرز بازار"، "شيكاغو بَبليك لايبراري"، كرايم ريدز"، "بوك ريبورتر". وقد صدرت روايتها الأولى في أكثر من أربعين بلداً، واحتلت المرتبة الأولى في قائمة نيويورك تايمز وكانت من مختارات نادي كتب "غود مورنيغ أميركا".

* * *

«عمل يتجاوز التوقعات كلها... رواية ممتعة عن جريمة قتل غامضة مع وصف اجتماعي لاذع». **واشنطن بوست**

* * *

بحماستها الدائمة للتنظيف وقواعد السلوك السليم علت مرتبة مولي غراي في فندق ريجنسي غراند العظيم حتى تولت منصب: كبيرة خادمات الغرف. لكن سقوط كاتب روايات الغموض الشهير غريمثورب ميتاً على أرض صالة الشاي في الفندق يقلب عالمها رأساً على عقب.

تأتي المحقّقة ستارك، خصم مولي القديم، لتحقّق في موت الكاتب المفاجئ، فيتضح أن في الأمر جريمة قتل بشعة والمشتبه بهم كُثُر: أهيَ ليلي، الخادمة المتمرنة؟ أم هي سيرينا، سكرتيرة الكاتب؟ وهل يخفي البواب المحبوب السيد بريستون أمراً نجهله؟ ومولي... أهي بريئة بقدر ما يبدو عليها؟

المخاطر تحدق بسمعة الفندق العطرة، وتعلم مولي أن عليها اكتشاف القاتل. فمنذ أمدٍ بعيد في ماضيها عرفت غريمثورب. تعود مولي إلى أيام طفولتها وإلى قصر غريمثورب الغامض الذي عملت فيه ذات يوم جنباً إلى جنب مع جدتها الغالية المتوفاة. على مولي أن تجد حل اللغز سريعاً، فبالنسبة لها، الأمر الذي لا شك فيه أبداً هو أن الأسرار لا تظل إلى الأبد دفينة.

نيتا بروز

رواية

النزيل الغامض

حكاية خادمة

ترجمة

الحارث النبهان



الكتاب: **النزيل الغامض**، حكاية خادمة، (رواية)

تأليف: **نيتا بروز**

ترجمة: **الحارث النبهان**

عدد الصفحات: 320 صفحة

الترقيم الدولي: 978-614-472-266-4

الطبعة الأولى: 2024

الناشر







منشورات الرمل

الإمارات العربية المتحدة: مدينة الشارقة للنشر - الشارقة

هاتف: 00971543144125

توزيع حصري: دار التنوير

لبنان: بيروت- الرملة البيضاء- بناية بنك لبنان والخليج- الطابق الثاني

هاتف: 0096181944367

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

تونس: 16 الهادي خفشة - عمارة شهرزاد - المنزه 1 - تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.daraltanweer.net

www.daraltanweer.com

Manshoorat Alraml is an Imprint of Dar Altanweer



إلى بول... والدي

مكتبة ياسمين

اشترك معنا امسح QR

اضغط الصفحة اتبع الرابط



تمهيد

حكت لي جدتي ذات يوم قصةً عن خادمة وفأر وملعقة. تمضي القصة على النحو التالي:

كان يا ما كان، كانت هناك خادمة تعمل لدى أسرة ثرية تعيش في قلعة. كانت تنظف من أجلهم، وتطهو من أجلهم، وتخدمهم في كل شيء.

وفي يوم من الأيام، عندما كانت تقدّم لحمًا مطهوًا لسيدتها وسيدها، قالت السيدة بقدر من الاستياء إنها لم تجد ملعقتها الفضية. كانت الخادمة واثقة من أنها وضعت الملعقة إلى جوار طبق السيدة. لكنها نظرت فرأت بعينيها الاثنتين أن الملعقة قد اختفت.

أفاضت الخادمة في الاعتذار، لكن هذا لم يفلح في إرضاء سيدتها ولم يفلح في إرضاء سيدها اللذين غضبا كثيرًا وصاحا متهمَيْن الخادمة بأنها ليست أكثر من لصة دنيئة تسرق فضياتهما.

سيقت الخادمة مطرودة من القلعة، لكن ليس قبل أن تُلقي الوجبة التي طهتها على مريلتها البيضاء تاركة عليها بقعة مُخجلة لم تستطع إزالتها أبدًا.

بعد سنين كثيرة من موت السيد والسيدة، وبعد زمن طويل من رحيل الخادمة المسكينة مَخزيّة، جرت الاستعانة بعمال من معارفها من أجل تجديد القلعة. نزعوا ألواح الأرضية في صالة الطعام فاكتشفوا عشًا فيه جثة فأر متيبسة وإلى جانبها ملعقة فضية.

الفصل الأول

طوال عمرها، عملت جدتي الحبيبة خادمة. وأنا سائرة على خطاها. أقول هذا بمعنًى مجازيٍّ، فليس في مستطاعي أن أسير على خطاها بالمعنى الحرفي... لأنها لم تعد تخطو. ماتت منذ أكثر قليلًا من أربع سنين، أي عندما كنت في الخامسة والعشرين (يعادل هذا ربع قرن). وحتى قبل ذلك، شهدَتْ أيام قدرتها على أن تخطو نهاية مفاجئة عندما أصابها المرض من غير سابق إنذار، فساءني ذلك كثيرًا.

الفكرة هي: جدتي ماتت. رحلت، لكنها لم تُنسَ ولن تُنسى أبدًا. والآن، تتبع قدماي مسارًا خاصًا بهما، لكني أظل مدينة بالعرفان لجدتي العزيزة الراحلة لأنها هي التي جعلتني ما أنا عليه الآن.

علّمتني جدتي كل ما أعرفه... كيف ألمِّع الفضيات، وكيف أقرأ الكتب والناس، وكيف أعدّ فنجان شاي حقيقيًا. وبفضل جدتي، ارتقيت في عملي خادمة في فندق ريجنسي غراند الذي هو فندق بوتيكي من فئة خمسة نجوم مزهوّ بأناقته الباذخة وحسن تلاؤمه مع العصر الحديث. صدقوني عندما أقول إنني بدأت من الأسفل، ثم شققت طريقي صعودًا حتى بلغت هذا الموقع اللامع. فعلى غرار كل خادمة سارت داخلة الباب الدوار المتألق في فندق ريجنسي غراند، بدأت عملي خادمة متمرنة. أما الآن، إذا اقتربتم مني وقرأتم البطاقة التي تحمل اسمي، البطاقة المثبتة فوق قلبي، فسوف تقرأون اسمي مكتوبًا بحروف كبيرة:

مولي

هذا هو اسمي الذي كُتب تحته بخط مزخرف دقيق:

كبيرة الخادمات

دعوني أقول لكم إن الصعود ابتداء من أول السلم في فندق بوتيكي فئة خمسة نجوم ليس قدَرًا سيئًا على الإطلاق. على أنني أستطيع القول بقدر كبير من الاعتزاز إنني بلغت هذا المنصب السامي بعد عملي ثلاث سنين ونصف سنة، وبعد إثباتي أنني لست شخصًا يمكن الاعتماد عليه فحسب بل، مثلما قال في الآونة الأخيرة مدير الفندق، السيد سنو، في اجتماع ضم العاملين جميعًا: «مولي موظفة ممتنّة دائمًا».

طيلة عمري، كنت أجد صعوبة في فهم المعنى الحقيقي من خلف الكلمات التي يقولها الناس، لكني تحسنت كثيرًا من حيث قراءة البشر، حتى إن كانوا بشرًا غرباء عني، وهذا ما يفسر معرفتي بما تفكرون فيه الآن. تقولون في أنفسكم إن عملي وضيع، وإن وظيفتي جديرة بأن يخجل المرء منها، لا أن يعتزّ بها. لست في موقع يسمح لي بأن أملي عليكم ما تفكّرون فيه، لست في ذلك الموقع أبدًا. لكن، «ف. ر. م.» (المعنى: في رأيي المتواضع)، أنتم مخطئون تمامًا.

أعتذر! كان في ما قلته قدرٌ من الفظاظة. عندما كانت جدتي حيّة، كانت توجّهني في ما يتصل بنبرة كلامي، وتنبّهني عندما أقول ما قد تكون فيه إساءة. لكن، إليكم ما هو لافت حقًا: جدّتي ميتة، لكنني لا أزال أسمع صوتها في رأسي. أليس عجيبًا كيف يستطيع شخص أن يظل حاضرًا بعد موته مثلما كان حاضرًا في حياته الحقيقية؟ هذا أمرٌ أتأمل فيه كثيرًا هذه الأيام.

عاملي الناس مثلما تحبين أن يعاملوك.

نحن جميعًا متماثلون، لكن بطرق مختلفة.

سيكون كل شيء على ما يرام، في نهاية المطاف. وإذا لم يكن كل شيء على ما يرام، فهذا يعني أنها ليست نهاية المطاف.

أشكر السماء لأنني لا أزال أسمع صوت جدتي، وذلك أن يومي هذا لم يكن يومًا حسنًا. في واقع الأمر، كان هذا اليوم أسوأ يوم عرفته على

امتداد ما يقارب أربع سنين. تمُدّني كلمات جدتي الحكيمة بالقوة كي أواجه «الوضع» الراهن. عندما أقول كلمة «وضع»، لا أقصد بها ما يقدمه القاموس من شرح لها، إذ يعرّفها بكلمات من قبيل «ظرف» أو «حالة»، بل مثلما يستخدم مدير الفندق، السيد سنو، هذه الكلمة للإشارة إلى «مشكلة كبيرة جدًا حلولها محدودة». لن أحاول أن أغلف بالسكر ما هو كارثة كبيرة حقًا: هذا الصباح سقط رجل شهير ميتًا في صالة الشاي في الفندق.

صديقتي العزيزة أنجيلا التي هي كبيرة عاملات البار في «سوشال»، المقهى/ المطعم في فندقنا، وصفت «الوضع» على النحو التالي: «مولي... كيس ضخم من الخراء اصطدم بالمروحة الدوارة». أسامح أنجيلا عندما تستخدم كلمات من هذا النوع لأنني أحب أنجيلا كثيرًا. أتغاضى أيضًا عن حقيقة أن أنجيلا لديها هوس غير صحي بالجرائم الحقيقية؛ وهو ما قد يكون تفسيرًا لما بدا عليها من حماسة غريبة إزاء سقوط «شخص مهم جدًا» ميتًا في فندقنا.

كان منتظرًا أن يكون هذا اليوم يومًا ذا أهمية خاصّة في فندق ريجنسي غراند. فاليوم، كان من المقرر أن يدلي الكاتب ذو الشهرة العالمية، صاحب الكتب الأكثر مبيعًا، الفائز بجوائز كثيرة، سيد قصص الغموض الذي له أكثر من عشرين رواية منشورة باسمه، ج. د. غريمثورب، بإعلان مهم في صالة الشاي التي تم في الآونة الأخيرة تجديدها في فندق ريجنسي غراند.

صباح هذا اليوم، كان كل شيء يسير كأحسن ما يكون. كلفني السيد سنو بأن أكون مسؤولة عن صالة الشاي. صحيح أن السبب في ذلك راجع في معظمه إلى أنه لم يعيّن بعد موظفين من أجل المناسبات الخاصة كي يتولوا المهام في صالة الشاي، لكن أدركت كم ستكون جدتي فخورة بأن تراني أتولى مسؤوليات مهنية جديدة. مع أن جدتي، بطبيعة الحال، لا تستطيع أن تراني، لأنها قد ماتت.

وصلتُ اليوم قبل أن تبدأ نوبة عملي، ورتّبت صالة الشاي الجديدة ترتيبًا أنيقًا. أعددت مستلزمات الشاي من أجل ضيوفنا الخمسة والخمسين (لا أكثر، ولا أقل) الذين حَظي كل منهم بإذن دخول «vip»، وكان من بين أولئك الضيوف المهمين عدد كبير من عضوات «جمعية السيدات المهتمات بقصص الغموض - «LAMBS» اللواتي حجزن غرفًا لهن في الطابق الرابع من الفندق قبل أيام من هذه المناسبة. فعلى امتداد أسابيع، كانت الهمسات والتوقّعات تجري على قدم وساق في فندقنا: لماذا أراد ج. د. غريمثورب فجأة، ذلك الكاتب المنعزل شديد الحرص على خصوصيته، أن يدلي بإعلان على الملأ؟ أيكون هذا لمجرد أنه يريد الترويج لكتابه الجديد؟ أم لعله أراد إعلان أنه كتب روايته الأخيرة!

مثلما اتضح بعد ذلك، كان مؤكدًا أنه كتب روايته الأخيرة، وذلك على الرغم من اعتقادي بأن هذه الحقيقة كانت مفاجِئة له مثلما كانت مفاجِئة لكل من رآه يسقط على أرضية صالة الشاي المنقوشة بخطوط متعرجة متكسّرة منذ سبع وأربعين دقيقة مضت.

قبل لحظات من صعوده إلى المنصة، كان الجميع، مُحبّات قصص الغموض، والنقاد الأدبيون، والمراسلون الصحافيون، في حالة ترقّب شديد. كانت الصالة تضج بالأحاديث ورنين الملاعق الفضية ذي الصوت الحاد، وكان المدعوون يعيدون ملء فناجينهم ويضعون في أفواههم آخر السندويتشات الصغيرة التي لا يتجاوز حجم الواحدة منها إصبعًا. حلَّ الصمت لحظة دخول ج. د. غريمثورب. وقف الكاتب على المنبر. كان شخصًا نحيلًا، لكنه ذو هيبة. في يده بطاقات دوّن فيها النقاط المهمة. رَنَت العيون إليه عندما تنحنح مرتين قبل أن يتكلم.

قال في المايكروفون: «شاي». وأشار طالبًا فنجان شاي. أشكر السماء لأنهم كانوا قد أعلموني بأساليبه الغريبة، فطلبت من المطبخ

إعداد عربة خدمة تضمّ كل ما يرضيه... مع العسل، لا السكر! ليلي، الخادمة التي أدرّبها، والتي كلفتها بكل ما هو متصل بعربات الشاي من أجل السيد غريمثورب أثناء إقامته عندنا، انبرت سريعًا كي تخدمه. بيدين مرتعشتين، صبّت للكاتب الشهير فنجانًا، وحملته إلى المنصّة مسرعةً.

قال وهو يتناول الفنجان منها: «لن يكون هذا وافيًا بالغرض»، ثم نزل عن المنصّة ومضى بنفسه إلى عربة الشاي. نزع الغطاء الفضي عن وعاء العسل، وغرف ملء ملعقتين كبيرتين من العسل الأصفر اللامع، ثم حرك الفنجان بملعقة العسل نفسها، فصدرت عنها أصوات اصطدام مكتومة لدى اصطدامها بحواف الفنجان.

حارت ليلي التي كانت قد اندفعت إليه معتزمة خدمته ولم تدر ماذا تفعل بعد ذلك.

تابعت عيون كل مَن في القاعة السيد غريمثورب عندما حمل فنجانه، وتناول منه رشفة كبيرة ابتلعها ثم تنهّد وقال: «رجل مرّ يلزمه مقدار زائد من العسل». أثار قوله هذا بضع ضحكات مكتومة سرت بين المحتشدين.

منذ زمن طويل، كان طبع السيد غريمثورب النزق علامة مميزة في شهرته. والمفارقة أن مبيعات كتبه تزداد كلما ساء مسلكه. فمن عساه يستطيع نسيان تلك اللحظة التي ذاع صيتها، اللحظة التي شهدت انتشارًا هائلًا على يوتيوب منذ بضع سنين، عندما اقترب من الكاتب شخص معجب به إعجابًا يكاد يكون سُعارًا (كان جرّاح قلب متقاعدًا منذ فترة وجيزة) وقال له: «أود أن أجرّب كتابة رواية، فهل تستطيع مساعدتي؟».

أجابه السيد غريمثورب: «أستطيع مساعدتك، لكن بعد أن تعيرني مشرطك. أحب أن أجرّب جراحة القلب».

تذكّرت مقطع الفيديو هذا صباح اليوم عندما ابتسم السيد غريمثورب ابتسامته الثعبانية ثم عاد إلى المنصة حيث ابتلع بضع جرعات كبيرة

أخرى من فنجان الشاي المحلّى قبل أن يضعه أمامه على المنبر وينظر إلى حشد المعجبين أمامه. تناول بطاقاته، واستنشق نفسًا عميقًا، ثم بدأ يتكلم أخيرًا وهو يتمايل يمينًا ويسارًا تمايلًا طفيفًا جدًا.

قال: «لا شك عندي في أنكم تتساءلون عن سبب دعوتي لكم إلى هذا المكان. فكما تعلمون، أفضّل كتابة الكلمات بدلًا من نطقها. لطالما كانت خصوصيتي ملاذًا لي، ولطالما كان تاريخي الشخصي منبعًا أستمد منه الغموض. لكني أجد نفسي في وضع غير مريح يضطرني إلى أن أكشف أمامكم، معجبيّ ومتابعيّ، بعض الأمور عند هذا المفصل المهم في مساري الطويل ذي الطوابق الكثيرة... وهذه تورية مقصودة!».

صمت لحظة منتظرًا ضحكات الحاضرين التي لم تتأخر. ارتعشتُ عندما جالت عيناه الثاقبتان في القاعة باحثتين عن شيء أو عن أحد... لست أدري.

تابع كلامه: «ترون أنني كنت محتفظًا بسرٍّ لا ريب عندي في أنه سيفاجئكم كثيرًا».

توقّف عن الكلام توقفًا مفاجئًا. أدخل إصبعًا طويلة تحت ياقته في محاولة فاشلة لإرخائها. قال بصوت محشرج: «ما أحاول قوله هو...»؛ لكن أية كلمات لم تخرج من حنجرته بعد ذلك. انفتح فمه، ثم انغلق، ثم بدا عليه عدم استقرار شديد مفاجئ إذ راح يتمايل يمينًا ويسارًا خلف منبره. لم أستطع التفكير في شيء إلّا في سمكة فضية رأيتها مرة تقفز من حوضها وتسقط على أرض متجر الحيوانات الأليفة فاغرة فاهها وقد داهمها موت مفاجئ.

أمسك السيد غريمثورب فنجان الشاي من جديد وأخذ منه رشفة. بعد ذلك، وقبل أن يفلح أحد في التدخل، سقط الرجل عن المنصة سقوطًا مفاجئًا وصار بين الناس. وقع مباشرة فوق ليلي، الخادمة المتمرّنة سيئة الحظ. سقط الاثنان معًا على الأرض وتناثر فنجان الشاي الخزفي قطعًا

صغيرة حادة لا تحصى عددًا، في حين سقطت مقعقعة على الأرض ذات النقوش المتكسرة الملعقة التي كانت في طبق الفنجان.

مرت لحظة ران الصمت فيها وعمّ المكان كله. لم يستطع أحد تصديق ما وقع أمام عينيه. بعد ذلك، دبّ الذعر فجأة واندفع الجميع صوب مقدّمة الصالة... المعجبون والمدعوون والمراسلون الصحافيون والنقاد الأدبيون.

كان مدير الفندق، السيد سنو، جاثمًا عند السيد غريمثورب، إلى يساره، وكان يربّت على كتفه ويقول له مرة بعد مرة: «سيد غريمثورب! سيد غريمثورب!». وكانت سكرتيرة السيد غريمثورب الخاصة، الآنسة سيرينا شارب، قد جثمت إلى يمينه ووضعت إصبعين على رقبة الكاتب. وكانت ليلي، الخادمة التي أدربها، تحاول عبثًا أن تخرج من تحت جسده. مددتُ لها يدي كي أساعدها فأمسكتْ بها. شددتها صوبي، وأبقيتها إلى جانبي.

مع تزاحم المعجبين والمدعوّين المهمين، صاحت بهم سكرتيرة السيد غريمثورب الخاصة: «أفسِحوا مكانًا! تراجعوا!».

وصاح السيد سنو بصوت آمر: «فليطلب أحدكم الإسعاف! فورًا!». جرى المدعوّون والندل وعمال الخدمة وموظفو الاستقبال في كل اتجاه.

كنت قريبة من «الوضع» بما يكفي لأن أسمع ما قالته الآنسة سيرينا شارب عندما أبعدت إصبعيها عن رقبة السيد غريمثورب:

«أخشى أن يكون الوقت قد فات. لقد مات».

الفصل الثاني

أقف الآن في غرفة مكتب السيد سنو، أحمل فنجان شاي جديدًا. يداي غير مستقرتين. خفقات قلبي شديدة. الأرض تحت قدميَّ تتمايل كأنني في مدينة الملاهي، مع أنني، بكل تأكيد، لست في مدينة الملاهي.

فنجان الشاي ليس لي. إنه من أجل ليلي فينتش التي عيّنتها منذ ثلاثة أسابيع... ليلي الهادئة ذات الجسم الصغير والشعر الأسود الفاحم المنسدل حتى كتفيها والعينين القلقتين، ليلي التي ترتعش الآن جالسة على كرسي المكتب الجلدي البنيِّ في غرفة السيد سنو. دموعها تجري على خدَّيها. أعادني هذا المشهد، أعادني حقًا، إلى وقت كنت فيه، أنا نفسي، جالسة على هذا الكرسي الذي تجلس عليه ليلي الآن، وكنت أرتعش في انتظار أن يقرِّر آخرون مصيري.

كان ذلك منذ قرابة أربع سنين. كنت أنظِّف جناحًا في الطابق الرابع عندما عثرت على نزيل ظننته أول الأمر غارقًا في نوم عميق؛ لكن النائم لا يتوقف تنفسه تمامًا مهما يكن نومه عميقًا. سارعت إلى تفقد نبض السيد بلاك، فتبينت أنه، في حقيقة الأمر، قد مات -مات تمامًا- في فراشه في الفندق. ومع أنني حاولت منذ تلك اللحظة فصاعدًا أن أبذل كل ما أستطيعه بغية التعامل مع هذا «الوضع» غير المعتاد أبدًا، فقد اتجهت الأصابع كلُّها إليَّ معتبرة أنّي القاتلة. افترض كثيرون -من بينهم الشرطة وعدد مفاجئ من زملائي في العمل- أنني قتلت السيد بلاك.

أنا مُنظِّفة، لا قاتلة. أنا لم أقتل السيد بلاك... لا بدم بارد ولا بدم فاتر! اتهموني ظلمًا، لكنهم برّأوني بعد أن ساعدني بضعة أصدقاء جيدين جدًا. مع ذلك، وبالتأكيد، كان لتلك التجربة أثر ثقيل. كانت تأكيدًا على

المخاطرة الكبيرة التي يمكن أن يشتمل عمل الخادمة عليها. الخطر الأكبر ليس ناجمًا عن العمل الشاق، ولا عن النزلاء ذوي المتطلبات الكثيرة، ولا عن مواد التنظيف. إنه ناجم عن افتراض مفاده أن الخادمات جانحات، قاتلات، سارقات: الخادمة ملومة دائمًا! ظننت حقًا بأن موت السيد بلاك كان بداية نهايتي، لكن كل شيء انتهى على أحسن ما يرام... مثلما كانت جدتي تتنبأ دائمًا.

الآن، في غرفة مكتب السيد سنو، أتأمل وجه ليلي فأحس بذعرها عندما أنظر في عينيها، أحس بذلك الذعر كأنه تيار كهربائي يسري مباشرة إلى قلبي. من يستطيع لومها لأنها خائفة؟ لست أنا! من عساه يستطيع الظن أنه سيأتي إلى عمله في يوم من الأيام كي يخدم كاتبًا ذا شهرة عالمية، لكن الكاتب الشهير يموت أمامه في غرفة تغصّ بمعجبين وَلِهين وصحافيين يلتقطون الصور؟ أية خادمة مسكينة عديمة الحَوْل تستطيع حتى أن تتخيل أنها لن تكون في خدمة الكاتب في لحظة موته فحسب، بل ستكون هي نفسها «فِراشَ موته»!

ليلي المسكينة، هذه الفتاة المسكينة! المسكينة!

تردَّدت كلمات جدتي في رأسي مثلما يحدث دائمًا: *أنت لست وحدك، سأكون معك دائمًا.*

ليت ليلي تكون قادرة على سماع هذه الكلمات.

أناول ليلي فنجان الشاي الذي تحتضنه كفّاي وأقول لها: «فنجان شاي جيد يشفي العلل كلها».

تأخذ الفنجان مني، لكنها لا تقول شيئًا. ليس هذا غريبًا على ليلي. لديها صعوبة في استخدام كلماتها مع أنها، في الآونة الأخيرة، تحسّنت كثيرًا من حيث قدرتها على التعبير عن نفسها... معي، على الأقل. لقد تقدّمت كثيرًا منذ مقابلة العمل التي أجريناها معها، أنا والسيد سنو. ذلك اليوم، اتخذت الأمور مجرى سيئًا إلى حد جعل عيني السيد سنو تتسعان

كثيرًا من خلف نظارته المصنوعة من عظم السلحفاة عندما أعلنتُ أمامه قائلة: «ليلي فينتش أفضل المرشحات لهذه الوظيفة».

قال السيد سنو: «لكنها لم تكد تقول شيئًا خلال المقابلة كلها! لم تستطع الإجابة عندما طلبت منها توضيح أحسن ما لديها من صفات. مولي، بحق السماء، لماذا يقع اختيارك عليها؟».

قلت: «اسمح لي بتذكيرك، يا سيد سنو، بأن الثقة البالغة بالنفس ليست الصفة الأولى التي تهمنا عند تعيين خادمة في فندق. أظنك لم تنسَ موظفًا سابقًا في الفندق، أقصد موظفًا بعينه، كان لديه قدر فائض من الثقة، ثم اتضح لنا أنه بيضة فاسدة جدًا. ألا تتذكر هذا؟».

أومأ السيد سنو برأسه إيماءة تكاد تكون غير ظاهرة، لكن النبأ الحسن هو أنني صرت الآن قادرة على قراءته أفضل كثيرًا مما كنت عندما بدأت عملي خادمة في فندق ريجنسي غراند منذ سبع سنين ونصف سنة. هذه الإيماءة الصغيرة أنبأتني باستعداده لأن يترك لي القرار الأخير في شأن ليلي.

قلت: «الآنسة فينتش قليلة الكلام، بكل تأكيد. لكن، منذ متى كانت كثرة الكلام مهارة مطلوبة من خادمة في الفندق؟ ألست من يقول دائمًا يا سيد سنو 'شفاه منفلتة، سفنٌ غارقة'؟ ليلي في حاجة إلى تدريب؛ وسوف أدرّبها. لكني أستطيع القول إنها نحلة عاملة. لديها كل ما يلزمها كي تصير عضوًا كبير القيمة في هذه الخلية».

قال السيد سنو: «حسن جدًا، يا مولي!». لكنَّ شفتيه المشدودتين أوحتا بأنه غير مقتنع تمامًا.

حققت ليلي تقدّمًا عظيمًا في عملها خادمة، وذلك خلال الأسابيع القليلة التي أمضيتها في تدريبها. فمنذ أيام فقط، عندما صادفنا نزيلَيْنا اللطيفين المتكررين، السيد والسيدة تشن، أمام جناحهما، تكلمت ليلي فعلًا. استخدمتْ كلماتها في حضور النزيلَيْن، استخدمتها أول مرة.

قالت لهما بصوت ناعم مثل جرس يدندن في النسيم: «أتمنى لكما يومًا طيبًا، يا سيد وسيدة تشن! ما أجمل رؤيتكما من جديد! آمل أن نكون، مولي وأنا، قد جعلنا جناحكما في أحسن حال».

ابتسمت ابتسامة كبيرة من الأذن إلى الأذن. كم سرّني سماعها بعد ذلك الصمت الطويل بيننا! عملنا جنبًا إلى جنب، يومًا بعد يوم، جعلتها ترى كيفية تنفيذ كل مهمة... كيفية تسوية الفراش بحيث تصير حوافه مستقيمة وزواياه قائمة مثل فراش المستشفى؛ وكيفية تلميع الحنفية؛ وكيفية نفش الوسادة إلى أقصاها... ومن غير كلام، كانت تنفذ ما أقوله. كان عملها ممتازًا لا تشوبه شائبة. وقد أخبرتها بهذا.

قلت لها أكثر من مرة: «لديك موهبة في هذا العمل، يا ليلي».

إلى جانب امتلاكها عين الخادمة التي تنتبه إلى التفاصيل كلها، كانت ليلي كتومة أيضًا. تتحرك في أرجاء الفندق فتنظف وترتب وتلمع وتهتم بالتفاصيل الصغيرة، لكنها تظل غير مرئية كأنها شبح. قد تكون صامتة -بل حتى غامضة- لكن الأمر واضح: ليلي خادمة فندق موهوبة.

وها هي الآن تجلس على كرسي مكتب السيد سنو. تضع على الطاولة فنجان الشاي الذي لم تمسّه شفتاها، وتدفن يديها في حجرها. أحس بالضعف عندما أنظر إليها. لا أستطيع غير أن أرى نفسي جالسة على ذلك الكرسي. لقد كنت هنا من قبل، ولست أريد أن أكون هنا مرة أخرى.

كيف انتهى الأمر إلى هذا؟

كان هذا الصباح مشمسًا مشرقًا عندما غادرت شقتنا التي فيها غرفتا نوم عند الساعة السابعة صباحًا. لسببين اثنين، لم يكن صباحًا عاديًا. الأول هو أن ذلك الكاتب ذو الشهرة العالمية، ج. د. غريمثورب، سوف يدلي بإعلان مهم خلال مؤتمر صحافي في الفندق. والثاني، هو أن صديقي خوان مانويل الذي أعيش معه هناءة بيتية منذ أكثر من ثلاث سنين، والذي أعمل معه في الفندق منذ زمن أطول من ذلك، قد سافر منذ ثلاثة أيام كي

يزور عائلته في المكسيك. عليّ القول إن البعد لم يزد الهيام في هذه الحالة تحديدًا. من الأكثر صحة القول إنه زاد الآلام. أعني أنني مشتاقة إليه كثيرًا.

هذه أول سفرة يقوم بها خوان مانويل إلى موطنه منذ سنين كثيرة، سفرة كنا نوفر المال من أجلها، نوفره بحرص شديد. آه كم كنت راغبة في السفر مع محبوبي... رحلة لنا معًا، مغامرة حقيقية. ولكن، وا أسفاه! لم يتحقق لنا هذا: خوان في المكسيك، وأنا عالقة هنا. أجد نفسي وحيدة في شقتنا ذات غرفتي النوم، وحيدة لأول مرة منذ وفاة جدتي. لا مشكلة! سوف أكون بخير. أنا سعيدة لأن خوان ذهب لرؤية عائلته، لرؤية أمه خاصة، أمه المشتاقة إليه منذ سنين طويلة مثلما أنا مشتاقة إليه الآن.

لا أكاد أطيق انتظار عودته مع أنه لن يغيب أكثر من أسبوعين. الحياة أفضل كثيرًا عندما يكون خوان موجودًا فيها. وصلتني منه هذا الصباح رسالة نصية قبل أن أذهب إلى عملي:

سوف يكون يومًا رائعًا! في رأيي المتواضع، لا شيء يدعونا إلى القلق. أحبك.

أعترف بأن إعلانه عن حبه جعلني أحس فراشات ترفرف في بطني. إحساس سار، لكن استخدامه هذه الطريقة في الكلام كان مقلقًا كعهده دائمًا. أجبته:

لم أفهم ما تعنيه.

أعني أنني أحبك.

فهمت هذا الجزء.

برأيي المتواضع، أنت رائعة جدًا. سيكون هذا اليوم رائعًا.

صحيح أنني كنت شديد الرغبة في الذهاب إلى المكسيك مع خوان، لكن الواجب دعاني؛ أو من الأصح القول إن السيد سنو دعاني... وسرعان ما صار واضحًا أنني لن أسافر إلى أي مكان.

منذ بضعة أسابيع، سألني السيد سنو عبر الهاتف: «هل سمعتِ بكاتب اسمه ج. د. غريمثورب؟».

أجبته: «سمعتُ به». لم أزد على ذلك شيئًا.

«اتصلت سكرتيرته الخاصة قبل قليل وطلبت الحجز في ريجنسي غراند من أجل مناسبة حصرية يعتزم السيد غريمشورب أن يعلن فيها عن أمر مهم. طلبت حجز صالة الشاي في ريجنسي غراند!». سرت حماسة السيد سنو مبهورة الأنفاس عبر الهاتف فبلغتني. كان هذا النبأ في غاية الروعة. عندما أضرّت بنا فضيحة مقتل السيد بلاك، جاء السيد سنو بفكرة لامعة، فكرة اجتذاب زبائن جدد من خلال إعادة غرفة مستودع قديمة في ردهة الفندق إلى مجدها الماضي كي تكون مثالًا، أشبه بمتحف، على صالات الشاي الفنية. كانت أعمال التجديد في تلك الصالة توشك على الانتهاء؛ وكان الفندق في حاجة إلى مناسبة مهمة كي تكون إعلانًا عامًا عن انطلاقتها. كان أمرًا رائعًا! وما كان أحسن منه هو أن السيد سنو طلب مني ومن العاملين معي الإشراف على تلك المناسبة الخاصة. على الفور، أخبرت خوان بهذا كله.

قال لي: «عندما تطرق الفرصة الباب، عليك أن تفتحيه أمامها. سنلغي رحلتنا ونذهب في وقت آخر».

لم أستطع احتمال الفكرة. قلت له: «يا حبيبي، اذهب من دوني، سنذهب معًا في وقت لاحق».

أجابني: «هل هذا صحيح؟ ألن يزعجك الأمر؟».

«يزعجني!؟ أنا مصرّة. لا يجوز أن تترك أمك تنتظرك دقيقة إضافية».

احتضنني بين ذراعيه وراح يزرع القبل على وجهي كله. قال: «قبلة عن كل يوم من أيام غيابي. وبضع قبلات أخرى من دون سبب. هل أنت واثقة من أنك ستكونين بخير من دون وجودي هنا؟».

قلت: «بالطبع، سأكون بخير. ماذا يمكن أن يحدث؟».

هكذا سافر خوان بالطائرة بعد أيام معدودة، وبقيت هنا. أشغلت نفسي بالتحضيرات المسبقة من أجل مناسبة السيد غريمشورب.

وهذا الصباح، انطلقت من أجل المناسبة العظيمة سائرة بخطوات متوثّبة. كنت متحمسة، وكنت متوترة في الوقت عينه. ظهر لي الفندق عندما انعطفت عند آخر زاوية في طريقي.

ها هو أمامي، فندق ريجنسي غراند، الفندق الباقي على مرّ الزمان مهيبًا وسط كل ما في المدينة من لوحات إعلانية فظّة مضاءة بالنيون ومباني مكاتب حديثة ثقيلة المظهر. سجادة حمراء تجلّل الدرجات القليلة المؤدية إلى مدخل الفندق الجليل. درابزين نحاسي لامع يؤطّر المدخل المفضي إلى باب دوّار متألق. ردهة الفندق مزدحمة بنزلاء يتكلمون وأمتعتهم محمولة خلفهم، فضلًا عن مراسلين صحافيين وأصحاب قنوات في الإنترنت يحملون معداتهم عبر باب الفندق الدوار استعدادًا للمناسبة الكبيرة.

على الدرجات الصاعدة إلى بوابة الفندق، وقف السيد بريستون، بوّاب فندق ريجنسي غراند منذ زمن بعيد، مرتديًا معطفه الطويل المزين بشعارات الفندق وعلى رأسه قبعة مهيبة. قال لي السيد بريستون عندما التقيته إلى جوار منصة البواب: «صباح الخير، يا مولي! اليوم، لدينا يوم كبير».

أجبته: «صحيح أنه يوم كبير، لكننا على أتم استعداد. هل رأيت صالة الشاي؟ إنها رائعة».

أجابني: «هذا صحيح. اسمعيني، يا مولي! كنت أقول في نفسي إن سفر خوان مانويل لا يعني أننا لا نستطيع أن نلتقي، أنا وأنت، من أجل عشائنا المعتاد يوم الأحد. لا معنى لأن يتناول كل منا عشاءه منفردًا. ثم إن لديّ أيضًا أمرًا مهمًا أود أن أكلمك فيه».

قلت له: «جميل أن نتناول العشاء معًا يوم الأحد. لكن، دعنا نرى كيف سيكون هذا الأسبوع. أقول هذا لأنني سأكون شديدة الانشغال نتيجة غياب خوان مانويل. لا أستطيع أن أعدك بأن أكون قادرة على الطهو من دونه».

ابتسم السيد بريستون وأومأ برأسه. قال لي: «مفهوم! أعلم أنك تبذلين جهدًا كبيرًا في عملك. وبالتأكيد، لا أريد أن أثقل عليك».

منذ سنين كثيرة، صار عشاء يوم الأحد مع السيد بريستون تقليدًا متّبعًا. نتناول وجبة العشاء معًا مرة كل أسبوع، ونجلس إلى طاولة المطبخ اللطيفة في شقتنا. وعلى الدوام، نشرب نخب أسبوع العمل الذي انتهى. وجباتنا بسيطة، لكننا نأكل ويُمتع كل منا الآخرين بقصص عن المصادفات الغريبة في ذلك الأسبوع... دعوني أقول هنا إن المصادفات الغريبة تحدث كثيرًا في فندق ريجنسي غراند. والواقع أنني استطعت، يوم الأحد الماضي، تسلية خوان والسيد بريستون بوصفٍ حيٍّ ملون للغرفة رقم 404 التي كنت قد نظّفتها مع ليلي في وقت سابق من ذلك اليوم.

قلت لهما: «كان في الغرفة بقايا كثيرة، وعلب، ومصنفات. بدت كأنها جحر فأر. لست أدري من شغل تلك الغرفة، لكنه يجمع عبوات الشامبو الخاصة بفندق ريجنسي غراند. رأينا مئات من تلك العبوات الصغيرة».

سألني خوان مانويل: «من عساه يكون في حاجة إلى تلك الكمية كلها كي يستحم؟».

قلت: «تلك الزجاجات لم تكن في الحمّام. كانت فوق الميني بار، وإلى جوارها كمية من المأكولات الخفيفة، وعلبة كبيرة من زبدة الفول السوداني مفتوحة وقد برزت منها ملعقة من الستانلس ستيل».

انفجر السيد بريستون وخوان مانويل ضاحكَيْن وتظاهرا بأنهما يرفعان نخبًا على هيئة عبوات الشامبو الصغيرة في ريجنسي غراند.

أترك ذكرياتي وأنظر إلى السيد بريستون الواقف على درجات السلم ذات السجادة الحمراء. ازداد الشيب في شعره، وازدادت الغضون في وجهه، لكنه لا يزال قادرًا على أداء عمله جيدًا. لدي دائمًا نقطة ضعف

إزاء هذا الرجل. لقد كان لطفه استثنائيًا خلال تلك السنوات كلها؛ وكان على معرفة بجدتي. فمنذ زمن بعيد، حتى قبل أن أتلألأ في عين أمي، كان السيد بريستون وجدتي رفيقَيْن... أعني أنهما كانا عاشقين، كانا ثنائيًا رومانسيًا. لكن والدَيّ جدتي منعاهما من الزواج. في النهاية، تزوج السيد بريستون امرأة أخرى وصارت له أسرة. مع ذلك، استمرت الصداقة بين جدتي والسيد بريستون. ظلت مولعة به حتى يوم موتها. كانت أيضًا صديقة لزوجته، ميري. لكنني أتساءل الآن، بعد أن ماتت ميري وسافرت شارلوت، ابنة السيد بريستون اللامعة التي ساعدتني كثيرًا بعد مقتل السيد بلاك، أتساءل إن كان السيد بريستون يشعر بالوحدة. لعل هذا هو ما يجعل عشاءات يوم الأحد معنا كبيرة الأهمية بالنسبة إليه. بل إنه صار في الآونة الأخيرة أكثر تعلّقًا بذلك التقليد. لست أعلم سببًا لذلك.

هذا الصباح، قال السيد بريستون وهو واقف على الدرجات ذات السجادة الحمراء: «إذا واجهتك اليوم مصاعب، فاعلمي أنني هنا! لا أستطيع فعل الكثير من أجلك يا مولي، لكن تذكري ذلك».

أجبته: «أشكرك! أنت زميل رائع، يا سيد بريستون!».

ودّعته ودخلت عبر باب فندق ريجنسي غراند الدوار المؤدّي إلى الردهة الفخمة. حتى بعد هذه السنين كلها، لا يزال مشهد الردهة يخطف أنفاسي: الأرضية المصنوعة من رخام إيطالي، ورائحة الليمون المنعشة الباقية من مواد التلميع، ودرابزين السلم الذهبي بأعمدته الأفعوانية، والكنبات المخملية الوثيرة التي سمعت على مر السنين قصصًا وأسرارًا لا آخر لها.

كانت ردهة الفندق تضج بالحركة؛ وكان موظفو الاستقبال بملابسهم السوداء والبيضاء أشبه ببطاريق صغيرة متأنقة. كانوا يوجّهون حركة الحمّالين والنزلاء. وفي وسط الردهة، لافتة ضخمة ضمن إطار ذهبي مزخرف لمّعتُه بنفسي يوم أمس فجعلته متلألئًا، متألقًا، مشعًا:

اليوم
ج. د. غريمثورب
كاتب روايات الغموض الشهير
مؤتمر صحافي مهم، الساعة العاشرة قبل الظهر
صالة الشاي في ريجنسي غراند

ليست لديَّ لحظة واحدة أضيّعها... ثمة الكثير مما ينبغي تحضيره. اندفعت نازلة سلم القبو إلى قسم العاملين. ممرات ضيقة منخفضة السقوف تنيرها مصابيح نيون. ممرات مفضية إلى متاهة من غرف وصالات من بينها صالة الغسيل، وخزائن المؤن، ومطبخ الفندق العابق بالبخار. وبالطبع، مكاني المفضّل، قسم خدمة الغرف.

توجّهت مباشرة إلى خزانتي. كان معلّقًا على الخزانة شيء شديد الجمال في كيس من النايلون الرقيق. إنها ملابس عملي. أوه، كم أحب ملابس خادمة الفندق! قميص أبيض منشّى، وتنورة سوداء ضيقة مصنوعة من نسيج مرن قادر على مسايرة حركات الانحناء التي هي جزء لا يتجزأ من عمل أية عاملة فندق نشيطة.

بدّلت ملابسي من غير أن أضيّع لحظة واحدة. وبكل اعتزاز، ثبتُّ بطاقة كبيرة الخادمات على صدري، فوق قلبي. تفقّدت مظهري في المرآة الطويلة وعدّلت وضع بضع خصلات داكنة متمرّدة في شعري المجموع خلف رأسي في عقدة أنيقة. قرصت وجنتَيَّ كي أضفي على شحوبهما قليلًا من اللون، وسرّتني نتيجة ذلك. ثم لاحظت في المرآة شخصًا آخر. رأيت صورة كأنها تكرار لصورتي... ليلي، صورة حيّة لخادمة فندق في أحسن هندام. ملابس عمل أنيقة، وبطاقة الخادمة المتمرنة مثبتة على صدرها مثل بطاقتي، مثبتة في مكانها الصحيح تمامًا فوق القلب.

استدرت فصرت في مواجهتها. قلت: «أنت مبكّرة».

أومأت برأسها.

«هل بكّرتِ في المجيء كي تساعديني؟».
قالت بصوت منخفض: «نعم».
أجبتها: «يا فتاتي العجيبة، أنت كنز، فلننطلق إلى العمل».
«سرنا معًا في اتجاه الباب، لكن شخصًا على هيئة إجاصة اعترض طريقنا. إنها شيريل، كبيرة الخادمات السابقة. شيريل التي لا تجد أية غضاضة في تنظيف مغاسل النزلاء بالخرقة نفسها التي تستخدمها في مسح مراحيضهم. كانت رئيستي فيما مضى، لكنها لم تكن أبدًا متفوقة عليَّ. خفّض السيد سنو مرتبتها بعد مقتل السيد بلاك ورقّاني فجعلني أحتل مكانها.
سألتها: «شيريل... لماذا أتيتِ باكرًا؟».
هذا أمر لا يحدث أبدًا. إنها تتأخّر دائمًا، وتأتي مسلّحة بعدد من الأعذار التي تثير في نفسي أحيانًا غضبًا شديدًا لا يجعلني راغبة في طردها فحسب، بل في إحراقها. أعترف بأن هذه فكرة غير لطيفة.
قالت شيريل: «لدينا عمل كثير هذا اليوم»، ثم دعكت أنفها بظاهر يدها.
تيبست كتفاي تقززًا ونفورًا.
«أظن أنك، ومتدربتك الصغيرة يمكن أن تستفيدا من مساعدة خادمة غرف لديها خبرة سنوات طويلة».
ظلّت ليلي واقفة، ولم تقل شيئًا. نادرًا ما تتكلّم إن كان أحد من بقية العاملين موجودًا. بدلًا من ذلك، راحت تنظر إلى حذائها الذي لمّعَتْه جيدًا.
قلت: «كم أنت كريمة الطبع، يا شيريل!». أريد القول هنا إنني لم أعنِ ذلك. لقد تعلمت أن الابتسامة لا تعني، أحيانًا، أن صاحبها مسرور. وفي بعض الأحيان، يكون المديح زائفًا. عندما امتدحت «كرم» شيريل كنت، في واقع الأمر، ألجأ إلى نوع من السخرية؛ وذلك لأنهم قلائل في العالم أولئك الذين لديهم قدر من الدوافع الأنانية يماثل ما لدى شيريل.

اقترحت شيريل: «لديّ فكرة، تنظف ليلي اليوم غرف النزلاء، وأساعدك في تقديم الشاي في مناسبة غريمثورب. لقد نظّفت جناح السيد والسيدة تشن كي أجعل الأمر أكثر سهولة عليها».

لعلها نظّفت جناحهما، لكنني أعرف أنها لم تفعل ذلك إلا كي تسرق البخشيش الذي يتركه أشد نزلائنا كرمًا مع أنهم تركوه من أجل ليلي، لا من أجلها.

عبرتُ الباب مزيحة شيريل من طريقي. قلت لها: «أشكرك، لكن لا شكرًا!». استدرت كي أواجهها وأضفت: «وأيضًا، يا شيريل، اغسلي يديك قبل أن تعودي إلى العمل. تذكّري: الحرص على النظافة واجب علينا».

أشرت إلى ليلي كي تلحق بي. مضينا تاركتين شيريل خلفنا.

بعد أن صرنا في الممر وانعطفنا يسارًا ثم انعطفنا يمينًا مبتعدتَين عن قسم خدمة الغرف، طلبت من ليلي أن تذهب إلى المطبخ كي تتفقّد التحضيرات الخاصة بحفل الاستقبال الذي سيجري في صالة الشاي. قلت لها: «أنت اليوم مسؤولة عن عربتَيْ الشاي المخصَّصتَيْن للسيد غريمثورب. خذي واحدة منهما إلى غرفته، الآن. دقي الباب ثلاث مرات، ثم اتركي العربة هناك. بعد ذلك، احرصي على أن تكون العربة الثانية جاهزة من أجل المناسبة في صالة الشاي. تأكدي من أن العاملين في المطبخ قد جهّزوا العربتَيْن بما يلبّي تمامًا المواصفات المحدّدة الخاصّة بالسيد غريمثورب».

أومأت ليلي برأسها ومضت في الممر المتعرّج المؤدي إلى المطبخ العابق بالبخار. أما أنا فقد انطلقت مسرعة، فصعدت سلم القبو ومضيت إلى صالة الشاي. تجاوزت الحبل القرمزي الذي يسد مدخل الصالة.

وقفت لحظة أتأمّل المشهد الرائع معجبة به. كان سقف الصالة المرتفع على هيئة قبة سماوية تلقي على كل شيء نورًا متلألئًا. الجدران تكتسي ورق جدران فاخرًا، أخضر وذهبيًا. أقواس ترتفع لتعانق تيجانًا

ملكية. طاولات القهوة المدوّرة عليها مفارش من كتان أبيض رتبتها بنفسي، ومناديل مطوية مثل براعم الورد. زينة نباتية وسط الطاولات على هيئة أزهار اللوتس الوردية الرشيقة. باختصار، كانت الصالة مشهدًا مرموقًا، كانت عودة مجيدة إلى حقبة من عظَمة واحتمالات لا حدود لها.

قطعتْ لحظة السحر التي عشتها أصوات الصحافيين المحتشدين في آخر الصالة يرتبون طاولاتهم وينصبون كاميراتهم، ويتحدّثون عن الدوافع الغامضة التي دعت ج. د. غريمثورب إلى اتخاذ قراره بترتيب هذا الظهور العام النادر. وفي أول الصالة، كان السيد سنو يومئ برأسه مرة بعد مرة لشابة جميلة تحمل مصنَّفًا مغلفًا بالقماش. كانت تفحص المايكروفون المنصوب فوق المنبر. وكان باعة الكتب في ناحية من المنصة المرتفعة يرتّبون طاولة تَعرض مجموعة من أفضل كتب ج. د. غريمثورب مبيعًا ومن بينها رواية «*الخادمة في القصر*»، التي كانت أول عمل من أعماله يوصله إلى شهرة عالمية. على غلاف نسخة من الطبعة الأخيرة صورة درب متعرجة بين ورود بلون الدم تؤدي إلى قصر منيف يشعّ ضياءً مشؤومًا من نافذة طابقه العلوي. سرَت في جسدي رعشة عندما نظرت إلى كدس الكتب. أعلم الكثير عن الرجل الذي كتب تلك الرواية.

في تلك اللحظة، لاحظ السيد سنو وجودي فأشار إليَّ بأن آتي إليه. مضيت في طريق متعرجة من حول الطاولات المجلّلة بالأبيض إلى أن صرت واقفة أمامه وأمام السيدة الشابة.

قال السيد سنو: «مولي، دعيني أعرّفك على الآنسة سيرينا شارب، سكرتيرة السيد ج. د. غريمثورب الخاصّة».

كانت ترتدي فستانًا جريئًا أزرق اللون يلفّ جسدها لفًا محكمًا؛ وكانت أعين جميع من في الصالة متّجهة إليها. ابتسمت لي الآنسة شارب ابتسامة لم تبلغ تمامًا عينيها الشبيهتين بعينَيْ القطط. كان في وجهها شيء غامض لم أستطع قراءته.

قلت معرِّفة بنفسي: «أنا كبيرة الخادمات، مولي غراي».

أوضح السيد سنو: «الآنسة شارب تراجع الترتيبات النهائية لظهور السيد غريمثورب. وأنا أطمئنها إلى أن ما من أحد يستطيع دخول هذه الصالة إلا إذا كان لديه إذن خاص بدخولها، وإلى أن تقديم الشاي والمرطبات إلى المدعوين سيكون عند الساعة التاسعة وخمس عشرة دقيقة تمامًا، أي قبيل دخول السيد غريمثورب عند الساعة العاشرة».

لم تفاجئني أبدًا دقة السيد سنو الشديدة في ترتيب التوقيت لأنه أمضى في اليوم السابق ساعات طويلة في مراجعة كل تفصيل من التفاصيل.

قالت الآنسة شارب: «أقدّر لكم استضافتنا في هذه الصالة الجديدة مع أن المهلة الزمنية للتحضير كانت محدودة جدًا. أعلم أن الطلبات من هذا النوع تسبب ضغطًا شديدًا على العاملين جميعًا».

الحقيقة أنها ضاغطة جدًا. لقد وجد عمال البناء أنفسهم مضطرين إلى استعجال وضع اللمسات الأخيرة على أرضية صالة الشاي المبلّطة؛ وأسرع الطهاة ومساعدو الطهاة إلى إعداد قائمة إفطار شاي متميزة أضافوا إليها سندويتشات صغيرة بحجم الإصبع. وكان على السيد بريستون اتخاذ ترتيبات لإضافة مزيد من عناصر الأمن. وقد كُلّفتُ بمهمة البحث في مستودعاتنا عن خمسة عشر طقم شاي فضي، والعثور على أدوات طعام مناسبة. منذ زمن بعيد، اكتسبتُ مهارة واضحة في تلميع الفضيات. وهكذا، حرصت على تلميع كل قطعة بنفسي وصولًا إلى آخر ملعقة.

قلت لمساعدة السيد غريمثورب: «تسرني خدمتكم. آمل أن تكوني قد وجدت صالة الشاي جميلة».

أجابت: «إنها جميلة. الحقيقة أن كل شيء ممتاز. أظن أننا متقدمون على الجدول الزمني الذي وضعناه. إذا كنتم مهتمين بالأمر ففي وسعي أن أرسل ج. د. غريمثورب أبكَر من الموعد المقرر كي يوقّع بضعة كتب من أجل العاملين».

ارتفع حاجبا السيد سنو حتى كادا يبلغان حافة شعره المتراجع. قال وهو يخرج هاتفه من جيب سترته ذات الصدار المضاعف: «سيكون هذا أمرًا رائعًا!». ثم أجرى بضع مكالمات هاتفية سريعة.

في غضون دقائق، كانت مجموعة متحمسة من العاملين في الفندق تصطفّ خلف الحبل القرمزي عند مدخل الصالة. رأيت أنجيلا تقف في منتصف ذلك الصف مرتدية مريلة عاملة البار السوداء في حين كانت شيريل في المقدمة. ورأيت ليلي تقف خلف الجميع، خلف عدد من الطهاة وغاسِلي الأطباق وخادمات الغرف.

نقرت الآنسة سيرينا شارب على باب خفيّ في جدار المنصة الجانبي. انفتح الباب وظهر السيد غريمثورب... رجل نحيل رشيق الجسم له عينان صقريّتان وشعر رمادي مشعّث. كانت وقفته واثقة، محسوبة. جلس إلى طاولة توقيع الكتب، وناولته الآنسة شارب قلم حبر لونه أسود وذهبي. سَرَتْ في القاعة تمتمات كثيرة، وظهرت في أيدي الناس هواتف كثيرة: يحاول كل واحد أن يلتقط أفضل صورة.

حثّني السيد سنو قائلًا: «مولي، لا تنسي أن تقفي في الصف. هذه فرصتك الوحيدة للحصول على نسخة موقّعة بيد سيد روايات الغموض نفسه».

أحسست كأن ساقيّ تصيران جذعان خشبيان، لكني أرغمتهما على الحركة. اتخذت مكاني خلف عامل إيصال الطلبات الجاثم كأنه مستعد للانطلاق من أجل أداء مهمة عاجلة.

ربتُّ على كتفه. وسألته: «هل أخبر أحد السيد بريستون بأمر توقيع الكتب من أجل العاملين؟».

أجابني: «بالطبع. لكنه لم يرغب في القدوم. قال إنه يفضل استنشاق الهواء النقي في الخارج على الدخول كي ينحني للكاتب».

«هل هذا ما قاله حقًا؟».

أجابني الشاب: «هذا ما قاله»، ثم أعاد انتباهه إلى الرجل الشهير الجالس في أول الصالة.

تجمعت قطرات العرق عند حاجبيَّ مع تناقص عدد الواقفين في الصف وانصراف العاملين تباعًا وقد تأبّط كل منهم نسخته الموقّعة من أحدث كتب ج. د. غريمثورب.

قال السيد سنو من فوق كتفي: «جاء دورك، يا مولي. تقدّمي!». وهكذا وجدت نفسي أقف مباشرة أمام الكاتب نفسه.

نظر السيد غريمثورب إليّ بعينيه المفترستين كأنه يقيسني وسألني: «ما اسمك؟».

«م. م. مولي». أفلحت في قول اسمي.

«يسرني لقاؤك. أنا ج. د. غريمثورب». قال هذا كأنني لا أعلم من يكون.

كتب اسمي، ثم أضاف توقيعه على نسختي. ناولني الكتاب ونظر في عينيّ مرة أخرى. انتظرت، لكني لم أر في عينيه أنه عرفني.

كيف يكون ممكنًا أن أتذكّر كل شيء عنه، بينما هو لا يتذكرني؟

الفصل الثالث

في ما مضى

بعين عقلي، أعود إلى الذاكرة.

أنا في العاشرة من عمري، أجلس مع جدتي على المقعد الخلفي في سيارة تاكسي، مقعد من جلد اصطناعي يصدر صريرًا. تمسك يدي مقبض الباب ونحن خارجتان من قلب المدينة متجهتان صوب الضواحي، حيث يبدو كل بيت أكبر من سابقه وأكثر فخامة. نحن في طريقنا إلى مكان خاص جدًا، وأنا منشغلة بأداء خدعة سحرية تمرّنت عليها جيدًا، منشغلة بأداء تلك الخدعة في عقلي. أرسم على اللوح تجربة غير سارة عشتها في الآونة الأخيرة، ثم أمحوها فتختفي من أفكاري... حتى إن لم تختفِ إلى الأبد، فهي تختفي حينًا من الزمن، على الأقل.

جدتي ذات الشعر الذي بدأ ظهور الشيب فيه والنظّارة التي تكاد تسقط عن حافة أنفها تجلس إلى جانبي تطرّز غطاء وسادة. هذه تسليتها المفضّلة التي تُمضي بها الوقت. سألتها مرة عما يجعلها مولعة بالتطريز. فأجابت: «إنه تحويل ما هو عادي إلى شيء غير عادي. وهو يخفّف التوتر أيضًا».

تابعت عملها بالإبرة، وراحت تمد خيوطًا متألقة الألوان، واحدًا بعد واحد، على قطعة القماش البيضاء. أكملت أول سطر على الوسادة -*اللهم امنحني سكينةً لأتقبّل*- وبدأت السطر الذي يليه.

سألتها: «ماذا يأتي بعد هذا؟». تنهّدت وتوقّفت عن التطريز. قالت: «ليتني أعلم!».

ذكّرتها: «إنه شيء عن التغيير».

«أوه! هل كنت تعنين ما كان يلي ذلك على الوسادة؟ *اللهم امنحني سكينة لأتقبّل ما لا أستطيع تغييره، وامنحني شجاعة لأغيّر ما أستطيع تغييره...*».

قلت: «... *وامنحني حكمة التمييز بين هذا وذاك*».

أجابت جدتي: «هذا صحيح».

«هل أنت واثقة من أننا نستطيع احتمال تكلفة هذا؟»، سألتها وأنا أتململ في مقعدي الذي يصدر صريرًا وأعدّل حزام الأمان الذي يحفر وسطي.

سألتني: «تكلفة ماذا؟».

قلت: «سيارة التاكسي. سوف تكون تكلفة كبيرة، أليس كذلك؟ *لا تهدر شيئًا، ولا تجعل نفسك في عوز إلى شيء!*».

«نستطيع إنفاق بعض المال من حين إلى آخر، لكن ليس في كل حين. واليوم، ستسمح جدتكِ لنفسها بأن تنفق القليل». ابتسمت لي وحملت إبرتها من جديد.

قلت: «قولي لي مرة أخرى: كيف هو المكان الذي نحن ذاهبتان إليه؟».

«إنه قصر كبير، من حوله مروج واسعة وحدائق معتنى بها جيدًا، وفيه غرف كثيرة».

«هل هو أكبر من شقتنا؟».

توقفت جدتي عن التطريز، رفعت الإبرة، وقالت لي: «يا فتاتي الغالية، إنه قصر كبير فيه ثماني غرف نوم كبيرة، ومكتبة، وصالة للرقص، وغرفة للمؤونة، وغرفة مكتب، وردهة كبيرة فيها قطع فنية لا تقدّر بثمن. إنه نقيض شقتنا المتواضعة».

ظللت غير قادرة على تخيل ذلك القصر، على تخيل حجمه، على تخيل عظمته. حاولت أن أتذكر أجمل البيوت التي رأيتها على شاشة

التلفزيون. تذكرت بيتًا في حلقة من مسلسل كولومبو، له نوافذ مائلة وحديقة إنكليزية ونباتات لبلاب متسلّقة على الجدران. لم أدرك أنني لم أر في حياتي بيتًا مثل هذا البيت، لا في الحياة الحقيقية ولا في التلفزيون إلا عندما انعطف السائق آخر مرة وقالت لي جدتي: «ها قد وصلنا».

توقّفت السيارة أمام بوابة ضخمة من الحديد في أعلاها رماح مخيفة. إلى جانبيّ البوابة عمودان حجريان من دون زينة. وبعد ذلك، برج مراقبة من ثلاثة طوابق وله نوافذ مظللة داكنة.

قالت جدتي: «سأنزل من السيارة لحظة واحدة، وسوف يفتح لنا الحارس الباب». تابعتها بعينَيْن متسعتَيْن عندما خرجتْ من السيارة وضغطتْ مفتاحًا بنيًا يكاد يكون غير مرئي على واحد من العمودين، ثم تكلّمت في كوّة ذات شقوق مخفية إلى جانب المفتاح.

عادت إلى السيارة وفتحت الباب. قالت لي: «تعالي!». نزلت من السيارة أحمل وسادتها إلى صدري في حين أنزل سائق سيارة التاكسي زجاج نافذته.

قال: «أستطيع إيصالكما إلى الداخل بالسيارة، لا مشكلة في هذا».

«لا حاجة إلى ذلك». أجابته جدتي وفتحت محفظتها فأخرجت بضع أوراق نقدية شقيت في كسبها.

قال السائق وهو يفتح علبة القفازات في سيارته: «سأعيد إليك باقي المبلغ».

قالت جدتي: «لا، لا! البقية لكَ أنت».

أجابها: «أشكرك، يا سيدتي!». رفع زجاج النافذة ولوّح لنا بيده قبل أن يدور بالسيارة دورة واسعة وينطلق عائدًا في الطريق التي أتينا منها.

وقفت مع جدتي بين عمودَيّ الحجر عند البوابة المفتوحة على اتساعها. امتد أمامنا ممر مرصوف بالحجارة إلى جانبَيْه حدائق منظّمة فيها أجمات يانعة متفجرة بأكبر ورود حمراء رأيتها في حياتي. وفي آخر

الممر، ظهر لي القصر: بيت من ثلاثة طوابق له واجهة رمادية صقيلة وثماني نوافذ ذات إطارات سود، نوافذ في ثلاثة صفوف: اثنتان، واثنتان، وأربع. ذكّرَني المبنى كله بالعنكبوت الذئبي ذي العيون الثماني الذي دُهشنا، أنا وجدتي، لرؤيته في قناة ناشيونال جيوغرافيك... الحقيقة هي أن جدتي التي دُهشت، أما أنا فانكمشت على نفسي خائفة.

قالت لي: «هيا، هيا! سيكون كل شيء على ما يرام».

بالنسبة إلى جدتي، هذا ليس إلا يوم عمل آخر لأنها تعمل منذ فترة طويلة خادمة في قصر غريمثورب. أما أنا، فهذه زيارتي الأولى. على مر السنين، كانت جدتي قد وصفت لي تفاصيل كثيرة في القصر... الردهة الكبيرة الغاصة بكنوز أتى بها السيد غريمثورب من رحلات الترويج لكتبه في الخارج، أو بتحف ورثها عن أسلافه. وصفت لي أيضًا العمل الفني التجريدي في الصالة الرئيسية، ذلك العمل الذي دعته «اللطخة البرجوازية». حدثتني منذ فترة وجيزة عن غرفة المؤونة التابعة للمطبخ التي جدّدوها مؤخرًا، غرفة لها مصاريع نوافذ أوتوماتيكية تُفتح وتغلق بمجرد أن يصفّق المرء بيديه.

قالت لي مرة عندما طالبتها بمزيد من التفاصيل: «هذه ليست إلا بداية. المصابيح في ممرات الطابق العلوي تضيء عندما تحس بوجودك وتنطفئ عندما تذهبين.

سألتها: «أليس ضروريًا أن تضغطي على مفتاح كهربائي؟».

أجابت جدتي: «لا. كأنَّ القصر يعرف أنك موجودة فيه».

بدا لي هذا شيئًا فوق طبيعي، شيئًا أشبه بالسحر، شيئًا آتيًا من واحدة من قصص الخيال. صحيح أن جدتي وصفت لي كل شيء في القصر، لكني لم أره بعيني. لا عجب في أنني أحس بنفسي أشبه برائد فضاء ينزل على كوكب المريخ. بصرف النظر عن ذلك كله، أفضّل أن أكون هنا، مع جدتي، على وجودي في المدرسة حيث أكون عادة في كل يوم من أيام الأسبوع.

في واقع الأمر، نحن آتيتان من المدرسة. ففي هذا الصباح، تلقّت جدتي من المدرسة اتصالًا هاتفيًا يدعوها إلى اجتماع في وقت مبكر من النهار مع معلمتي، الآنسة كريبس. وعلى الرغم من اعتراضات الآنسة كريبس، سمحت لي جدتي بأن أكون حاضرة معها. التقينا معلّمتي في مكتب المديرة، ذلك المكتب الذي زرته مرات كثيرة، بل مرات أكثر مما أحب أن أتذكّر. اتخذت الآنسة كريبس لنفسها مقعدًا خلف مكتب المديرة الخشبي الكبير، في حين جلست مع جدتي على كرسيَّين قاسيين قبالتها.

قالت الآنسة كريبس لجدتي: «أشكر لك حضورك!». أستطيع الآن رؤية صورة وجهها في ذهني، ورؤية تلك الابتسامة مشدودة الشفتين التي لم أستطع قراءتها تلك اللحظة. ظننت أن ابتسامتها صورة حقيقية ناطقة بالتهذيب. لكني صرت الآن أفهمها بشكل أفضل.

قالت جدتي: «تعليم حفيدتي أمرًا في غاية الأهمية عندي». لكني أستعيد الآن تلك الصورة فأنتبه إلى يديّ جدتي المتشابكتين معًا، وكيف وضعتهما على طاولة المكتب أمامها بحركة واضحة... إشارة صغيرة فيها رجاء وفيها إصرار.

سألتها الآنسة كريبس: «هل لي أن أسأل أين هي والدة مولي؟ لا أعني بهذا أنني أعترض على الحديث معك، لكنك أكبر منها بجيلين».

«مولي تعيش معي. وأنا الوصيّة عليها. وأنا مسؤولة عنها من الناحية القانونية».

أوشكت على تذكير جدتي بأنها لم تجب عن سؤال المعلمة، الأمر الذي جعل وجه الآنسة كريبس يتجهّم قليلًا. لكني لم أكد أفتح فمي كي أنطق حتى وضعت جدتي يدها على ركبتي، فتوقفت الكلمات في حنجرتي مع أنني لم أعلم، وقتها ما الذي جعلني أصمت. حاولت فهم الصلة بين ركبتي وحنجرتي بأن دندنت لنفسي «أغنية الهيكل العظمي»

التي تتحدّث عن ارتباط عظام القدم بعظام الساق، وهكذا دواليك. لكنني استعرضت الأغنية كلها، فلم أصادف فيها شيئًا يربط بين اللسان والركبة.

في غضون ذلك، تابعت الآنسة كريبس وجّدتي حوارهما المهذّب.

«أعلم أن مشاغلك كثيرة، يا سيدة غراي. أنت امرأة متزوجة. أليس هذا صحيحًا؟ أم أنك عازبة؟».

صحّحت جدتي معلوماتها: «تستطيعين مخاطبتي بالآنسة غراي».

«فهمت من مولي أنك لا تزالين تعملين. عليّ القول إن هذا أمر يثير الإعجاب بالنظر إلى سنك المتقدمة».

تنحنحت جدتي.

تابعت الآنسة كريبس كلامها: «المسألة هي أنه لم تعد تفصلنا عن نهاية السنة إلا أسابيع معدودة. وهذا هو الوقت الذي نبدأ فيه التفكير في توزيع طلبتنا من أجل السنة القادمة».

أجابت جدتي: «أنا معجبة بتخطيطكم المسبق. تتطلع مولي إلى أن تكون لديها معلمة جديدة في السنة القادمة. أليس هذا صحيحًا، يا مولي؟».

قلت: «أنا في شوق إلى ذلك. أتمنّى أيضًا أن يكون لي زملاء جدد في صفّي».

قالت الآنسة كريبس: «هكذا هو الأمر، يا آنسة غراي!»... وكأنني لم أقل شيئًا.

«لقد توصّلت إلى قرار صعب مفاده أن من الأفضل لمولي أن نبقيها في صفّها هذه السنة. يؤسفني القول إن تقدّمها لا يلبّي معاييرنا التعليمية».

تململت جدّتي في جلستها وراحت عيناها تنتقلان بيني وبين الآنسة كريبس: «لا أفهم هذا. تشير تقاريرها المدرسية إلى أنها تحرز درجات جيدة».

«صحيح. درجاتها مرضية. كما أن مهاراتها اللغوية وقدرتها على

القراءة أفضل مما لدى زملائها وزميلاتها. كثيرًا ما تبالغ في الدقة. إنها تصحح أخطاء زملائها وترشدهم إلى المفردات الصحيحة».

كتمت جدتي ضحكتها. وقالت: «هذه هي مولي التي أعرفها».

«لكن، وكما ترين... إنها... مختلفة».

قالت جدتي: «أوافقك الرأي تمامًا. إنها فتاة فريدة من نوعها. لكن، هل انتبهتِ يومًا، يا آنسة كريبس، إلى أننا متماثلون جميعًا من حيث الأساس على الرغم مما بيننا من فروق؟».

لحظتها، جاء دور الآنسة كريبس في تفادي الإجابة عن السؤال. وبدلًا من الإجابة قالت لجدتي: «تطور مولي من الناحية الاجتماعية أقل مما ينبغي. ليس لها أصدقاء في المدرسة. من هذه الناحية، أستطيع القول إنها فاشلة. أيتها الآنسة غراي، أستطيع وصف مهارات مولي الاجتماعية بأنها... بدائية».

قلت: «ب-د-ا-ئ-ي-ة. بدائية». انتظرتُ أن تعبّر جدتي عن إعجابها بمهاراتي في التهجئة؛ لكنها لم تنطق بكلمة. مع أنني كنت واثقة من صحة تهجئتي، بدت لي جدتي كأنها موشكة على البكاء.

وددت إخبارها بأن كل شيء سيكون على ما يرام وأنني أعرف تلك الكلمة من برنامج ديفيد آتنبورو الوثائقي الذي تابعناه قبل ذلك ببضعة أسابيع. كان برنامجًا عن القرود، عن تلك الحيوانات الرائعة التي كثيرًا ما يقلل الناس من أهميتها. إنها قادرة على استخدام أدوات بدائية من أجل حل المشكلات، لا في المختبرات وحدائق الحيوانات فحسب، بل في الطبيعة أيضًا. شيء رائع!

قالت الآنسة كريبس: «يا آنسة غراي، أقدمت مولي منذ أيام على توبيخ واحد من زملائها في الصف لأنه يمضغ طعامه بفم مفتوح. وهي تقف على مقربة شديدة من أولئك الأطفال الصغار فأفزعهم ذلك. تصرّ على مخاطبة المشرف على مبنى المدرسة باسم السير وولتر برومز!

وفي بعض الأيام، تختبئ في واحدة من حجرات المراحيض وترفض الخروج. لذا، كما ترين، هي ليست على سوية الأطفال الذين هم في مثل سنها».

تنتصب جدتي في جلستها على كرسيها. وتقول لها: «أوافقك الرأي تمامًا. هي ليست في مثل سوية بقية الأطفال». تلتفت إليَّ وتتابع... «مولي، لماذا تختبئين في حجرة المرحاض؟».

أجيبها كأن الأمر واضح تماما: «تراب».

تكرر جدتي تلك الكلمة: «تراب!». أجد نفسي في غاية الاعتزاز عندما أسمع تلك الكلمة من فمها وأرى تلك الانحناءة البسيطة في شفتيها عند آخر الكلمة، هذا يعني أنها ترغب في سماع المزيد.

«في الاستراحة، دعوني إلى لعب كرة القدم مع بقية الأطفال. وافقت أن أكون حارس مرمى قبل أن أنتبه إلى وجود بركة من الوحل ممتدة من العارضة إلى العارضة. وعندما رفضت الوقوف هناك، أجبرني أفراد فريقي على ذلك فامتلأ حذائي طينًا. وعندما صرخت بهم، قذفوني بمزيد من الطين وقالوا لي إن عليَّ أن أعتاد ذلك، قالوا إن عليَّ ألّا أخاف الاتساخ بالطين. هذا ما قالوه لي».

فغرت جدتي فمها دهشة والتفت إلى الآنسة كريبس من غير أن تستطيع أن تقول شيئًا.

قالت الآنسة كريبس: «يظل الأطفال أطفالًا. لم يقصدوا الإساءة إليها. إضافة إلى ذلك، لا بد لمولي من التعلّم بطريقة من الطرق».

قالت جدتي: «نحن متفقتان على هذه النقطة. لكن مولي ليست مضطرّة إلى التعلم بهذه الطريقة. ولا ينبغي أن يتولّى زملاؤها تعليمها».

أثارت تلك العبارة اهتمامي. لا بد لي من الإقرار بأنه لم يكن قد تبادر إلى ذهني، حتى تلك اللحظة، أن زملائي في الصف يمكن أن يكونوا معلّمين لي. لم يستطع عقلي فهم حسنات هذه الطريقة في التعليم. فما

الذي يمكن أن أتعلّمه إذا وضعوا وجهي عنوة، على نحو متكرّر، في المرحاض، أو إذا تركوا كتلة من البصاق في محفظة أقلامي؟ ما الذي يمكن أن أتعلمه من مخاطبتي بأسماء من قبيل «مولي البلهاء»، و«الآنسة اللجوج»، و«آلة التنظيف»، و«مولي غريبة الأطوار»؟ التسمية الأخيرة لا تعجبني أبدًا.

صحيح أنني تعلمت من زملائي في الصف أمرًا؛ تعلمت أن ذلك القول الشائع عن العصي والحجارة[1] غير صحيح أبدًا. وقدموا لي أمثلة كثيرة من خلال قذفي بالعصي وقذفي بالحجارة. حتى عندما تصيب مقذوفاتهم هدفها، فإن الكدمات تزول مع الزمن. أما الكلمات فتظل باقية... تظل باقية لسعتها، وصْمَتُها. حتى هذا اليوم، لا تزال كلماتهم تلسعني.

مالت جدتي صوب المعلمة وسألتها: «هل فكرتِ يومًا في أن مولي يمكن أن تستفيد من اهتمام أكثر تلاؤمًا مع طبيعتها؟ قد تستطيع المدرسة إدخال تعديلات تجعلها تحس نفسها أكثر ارتياحًا في الصف. وقد يكون أمرًا حسنًا أن يحاول المعلمون والمعلمات تجربة أساليب جديدة في التواصل مع مولي. ألستِ متفقة معي في هذا؟».

ضحكت الآنسة كريبس عند ذلك. ظننت ساعتها أن ثمة نكتة قيلت ولم أفهمها. لكن الآنسة كريبس أوضحت: «أنا معلمة منذ سبع سنوات، وقبلها خمس سنوات في الجامعة. أظنني صرت الآن أعرف ما أفعل. بطبيعة الحال، ثمة خيارات كثيرة من أجل الأطفال الذين هم مثل مولي. يسرني أن أزوّدك بنشرات عن اختصاصيين تستطيعين استئجارهم من أجلها».

قالت جدتي: «استئجارهم! يعني هذا أن ثمة تكلفة مالية».

«بالطبع! لا أظنك تتوقّعين أن يعمل المربّون مجانًا».

---

(1) «العصي والحجارة تكسر العظام، لكن الشتائم لا تؤذي أحدًا».

قالت جدتي وهي ترفع يديها عن طاولة المكتب: «هذا صحيح. لا أتوقع ذلك».

«هذه مدرسة عامة، يا آنسة غراي. لا نستطيع أن نوجّه جهدنا بما يتناسب مع فتاة واحدة. إنني أدرّس صفًا فيه خمسة وثلاثون تلميذًا».

أجابت جدتي: «أفهم هذا. أظن أن مربيًا اختصاصيًا، أو مدرسة خاصة، أمر يتجاوز قدراتي».

«أنت عاملة منزلية، خادمة، أليس هذا صحيحًا؟».

أومأت جدتي برأسها.

«كثيرًا ما تتحدّث مولي عنك. تريد أن تكبر وتصبح مثل جدتها تمامًا. لا تسقط التفاحة بعيدًا عن شجرتها... مثلما يقولون. من الممكن أن تكبر وتصبح عاملة تنظيف. قد تعمل في غسل الأطباق. وقد يبدو هذا هدفًا مهنيًا ملائمًا لفتاة في مثل حالها».

أطرقت جدتي برأسها ناظرة إلى حضنها. ظلّت لحظة قبل أن تجيب: «أجد صعوبة في فهم كيف يمكن تأخير طفلة تحرز درجات جيدة مدة عامٍ دراسيٍّ كاملٍ. لست مقتنعة بأن هذا هو التعامل التربوي الصحيح. علىً الرغم من تقديري لآرائك في هذا الأمر، هل أستطيع الكلام مع المديرة؟».

أجابت الآنسة كريبس: «إنها أنا. لم يعلن الأمر رسميًا حتى الآن، لكن مجلس الإدارة رأى أن من الأفضل الاستعانة بدم جديد، بشخص يكون أكثر شبابًا. سوف تتقاعد المديرة السابقة في آخر هذه السنة. وهي الآن في إجازة. إجازة مرضية بسبب الإجهاد». قالت ذلك همسًا، لكني سمعته بكل وضوح.

قالت جدتي: «حسنًا جدًا!». ومع قولها هذا، ضربت بيديها على فخذيها، والتقطت حقيبة يدها، ونهضت واقفة على نحو مفاجئ قليلًا. وقالت لي: «فلنذهب، يا مولي! الوقت ثمين».

سارت جدتي صوب الباب فلحقتُ بها.

قالت الآنسة كريبس: «مهلًا! ستبقى مولي هنا. لا يزال أمامها يوم مدرسي كامل».

قالت جدتي: «أوه! أظنك مخطئة. إن كنت تريدين إرغامها على إعادة سنتها، فأقلُّ ما أستطيع فعله هو إراحتها من إكمال هذه السنة. وداعًا». بعد ذلك، أخذتني معها وخرجنا من الباب.

في ذاكرتي... يد دافئة تحتضن يدي. يا لها من راحة بسيطة! لم أعد في مكتب المديرة. أنا الآن مع جدتي أقف أمام قصر غريمثورب.

سألتها: «هل سندخل؟».

قالت جدتي: «أجل، سندخل».

«هل يتوقّعون قدومي؟».

«لا. لا يتوقّعون قدومك، بكل تأكيد».

«ماذا إن كانوا غير راغبين في وجودي في البيت أثناء عملك؟ ماذا إن لم أعجبهم؟ ماذا نفعل عند ذلك؟».

قالت جدتي: «يا فتاتي العزيزة، سوف نعالج الموقف مثلما نعالج كل شيء».

سألتها: «كيف ذلك؟».

أجابتني: «نعالجه معًا».

الفصل الرابع

بقيت أنتظر مع ليلي في مكتب السيد سنو وقتًا طويلًا إلى حد غريب. لم تنطق أي منا بكلمة خلال الدقائق العشر الأخيرة. لا بد لي من الإقرار بأن هذا ضايقني أكثر مما ضايق ليلي. رحت أذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وظلت ليلي جالسة على الكرسي من غير حركة. بدت شاحبة.

كان سقوط السيد غريمثورب ميتًا على أرض صالة الشاي أمرًا مخيفًا، ثم ازداد سوءًا عندما دخل عناصر الشرطة والإسعاف إلى المكان وراحوا يصيحون: «فليخرج الجميع من القاعة، الآن!». اندفع المدعوون صوب باب الخروج في حين حاول عناصر الإسعاف إنعاش الرجل الميت على الأرض، لكن عبثًا. كنت موشكة على الخروج لاحقة بالمدعووين، لكن ليلي كانت قد أفلتت من يدي ووقفت ملتصقة بالجدار. الذعر يرتسم على وجهها. حتى أنا كنت قادرة على رؤية هذا من غير صعوبة. كانت متجمّدة في مكانها كأنها ذابت في ورق الجدران.

ناديتها: «ليلي!». ذهبتُ إليها. أمسكت بيدها شديدة البرودة وقلت لها: «فلنذهب!». خرجنا من الصالة معًا محاولتَين ألّا ننظر إلى جسد السيد غريمثورب الهامد على الأرض من غير حياة. قال السيد سنو عندما رآنا: «خذيها إلى مكتبي، يا مولي! قد تطلب السلطات أن تكلّمها».

«السلطات». كلمة جعلت قشعريرة تسري في ظهري.

سرتُ وسارت ليلي معي. عبرنا الممر بين زحام الناس، واجتزنا المسافة من مدخل صالة الشاي حتى ردهة الفندق الرئيسية. كانت السيدات المهووسات بالقصص الغامضة، ومعهم الصحافيون الجائعون إلى قصص جديدة (بطاقة «VIP» معلقة من رقبة كل واحد

منهم) يتبادلون المعلومات بأصوات خفيضة... «هل هو ميت؟ ماذا جرى؟ ما الذي كان يريد الإعلان عنه؟». لكن تجمع أشخاصٍ غيرهم كان قد بدأ أيضًا، أولئك الذين تناهى إلى أسماعهم أن أمرًا غيرَ مألوف قد وقع في فندق ريجنسي غراند.

مع سيرنا في الردهة مسرعتَيْن، لمحتُ السيد بريستون واقفًا على درجات مدخل الفندق، باسطًا ذراعيه في محاولة لصدّ الفضوليين المتجمهرين بينما راحت أضواء سيارات الإسعاف الوامضة تنعكس على مدخل الفندق الصقيل.

مع كل خطوة، تصير ليلي أثقل وزنًا على ذراعي. نشأ لديّ إحساس يقول لي إنها موشكة على الانهيار والسقوط على الأرض. أمسكت ذراعها بمزيد من القوة وقلت لها: «تماسكي، يا قطعة الزبدة! سيكون كل شيء على ما يرام!». سرت بها مسرعة عبر ممر خلفي في الفندق. حقيقة الأمر أنني لم أكن مصدقة أن كل شيء سيكون على ما يرام. لكني تعلمت من جدتي، تعلمت منذ زمن بعيد، مدى أهمية الموقف المتفائِل في الأوقات المظلمة.

مضينا في متاهة الممرات إلى أن صرنا أخيرًا أمام مكتب السيد سنو. طرقت الباب بقوة وقلت: «خدمة الغرف!». قلتها بصوت مرتعش، لكنه واثق. لم يجبني أحد، ولم يكن هذا مفاجئًا لي؛ لكن اتّباع البروتوكول أمر مهم. أدرت مقبض الباب فوجدته غير مقفل. أخذت ليلي إلى كرسي الضيوف البني فجلست عليه، بل سقطت عليه كأنها واحدة من تلك الدمى التي يحركونها بالخيوط. وهي الآن تجلس على ذلك الكرسي، صامتة، منذ أكثر من نصف ساعة. سألتها: «ليلي، هل أنت بخير؟».

نظرت ليلي إليّ. بؤبؤا عينيها أكبر مما أذكرهما. همست: «لديّ إحساس فظيع. قد يكون هذا سيئًا، سيئًا جدًا. قد يكون سيئًا بالنسبة إليّ، بالنسبة إلينا».

في تلك اللحظة، ظهر عند الباب وجه مألوف، وجه مُرَحّب به كثيرًا. «أنجيلا!»، صحت واندفعت إليها. خرجت من الغرفة كي أقف معها في الممر. كان في يدها فنجان شاي.

ناولتني الفنجان الدافئ وقالت لي: «خذي! أظنك في حاجة إليه».

قلت: «شكرًا. لا أستطيع تصديق هذا، يا أنجيلا. لا أستطيع تصديق أنه مات».

أجابت: «وأنا لا أستطيع تصديق ذلك. فلنأمل أن يكون هناك تفسير منطقي. لكني أقول لك، يا مولي، إن الأمر يبدو سيئًا. يبدو سيئًا كأنه جريمة حقيقية».

لديّ على الدوام ميل إلى الإغماء. وفي تلك اللحظة، عاودني ذلك الإحساس بالدوار. أحسست بأن العالم كله ينقلب رأسًا على عقب، إحساس مخيف. لا أستطيع فعل شيء لإيقافه. ركّزت على الفنجان الذي في يدي كي أحافظ على توازني.

أليس غريبًا كم يمكن أن يتغيّر معنى أمر من الأمور في لحظة واحدة؟ منذ بضعة شهور فقط، عرّفتني أنجيلا على أكثر من بودكاست يتحدّث عن جرائم حقيقية، فاستمتعت بتلك التجربة. استمعنا معًا إلى بودكاست اسمه «عشرة مشتبه فيهم قذرون». كان موضوعه سلسلة من جرائم القتل أقدمت المافيا على ارتكابها في الضواحي. كانت أنجيلا قادرة على أن تحزر القاتل بعد عشر دقائق من الحلقة الأولى.

«بام!». صاحت بهذا فرحة عندما كُشف عن اسم القاتل في الحلقة الأخيرة. سألتني: «من الزعيم هنا؟»، ثم راحت ترقص ويرقص معها شعرها الأحمر كالنار احتفالًا بنفاذ بصيرتها.

منذ بضعة شهور فقط، كانت الجرائم الحقيقية تسلية لنا، لكن تفكيري فيها الآن يجعلني موشكة على الإغماء.

سألتني أنجيلا: «هل أنت بخير، يا مولي؟».

استطعت أن أومئ برأسي إيماءة صغيرة.

قالت أنجيلا: «لا تقلقي! سأنتبه جيدًا، وسأخبرك إن اكتشفت أي شيء قذر».

قلت: «قذر!؟».

وضعت يدها على ذراعي المرتعشة وقالت لي: «يا مولي، الموت المفاجئ على ذلك النحو ليس أمرًا طبيعيًا تمامًا».

سألتها: «إن لم يكن طبيعيًا، فماذا يكون؟».

«يكون جريمة». أجابت أنجيلا ونظرت إليّ بعينيها المدوّرتين اليقظتين.

قلت لها: «كانت جدتي تقول، 'لا تقفزي إلى الاستنتاجات قفزًا كي لا تتعثّري، كي لا تقعي'».

فعقبت أنجيلا: «وكانت جدتي تقول، 'فلتكن عيناك مفتوحتان دائمًا!'. هذا ما سأفعله».

في تلك اللحظة، سمعنا صوت بكاء آتٍ من داخل غرفة مكتب السيد سنو. نظرنا فرأينا ليلي جالسة على الكرسي، تدفن وجهها بين كفيها، وتبكي.

سألتني أنجيلا: «ما بها؟».

أجبتها همسًا: «صدقًا، لا أدري». شكرت أنجيلا على فنجان الشاي. أومأت برأسها وانصرفت من غير أية كلمة أو همسة أخرى.

دخلت الغرفة ووضعت الفنجان عند حافة الطاولة إلى جانب الفنجان الذي جلبته سابقًا من أجل ليلي. قلت لها: «هيا! فنجان شاي جيد يشفي العلل كلّها. وإذا لم يشفها، فتناولي فنجانًا ثانيًا!».

توقّعت أن تبتسم لي أو أن تنظر إليّ، لكنها لم تنظر ولم تبتسم.

يمر وقت طويل جدًا أمضيه في تأمل (هو تأمل لا معنى له) أناقة مكتب السيد سنو، وفي الفوارق بين الكتب ذات الأغلفة الجلدية

والكتب ذات الأغلفة الورقية، وفي التفكير في أنني تعلمت من جدتي طرقًا كثيرة لتلميع الفضيات، وتعلمت أيضًا أفضل طرق تنظيف الكتب ذات الأغلفة الجلدية باستخدام قطعة قماش من غير أوبار وصابون خاص بتنظيف الجلود.

تقول ليلي فجأة: «مولي!».

أسرع إليها وأجلس على كرسي مجاور: «ماذا؟».

عيناها بركتان مدوّرتان ممتلئتان قلقًا. «أنا خائفة».

أقول لها: «أعلم هذا. لكن، لماذا أنت خائفة؟».

«لأن رجلًا شهيرًا قد مات. ولأنهم يتهمون الخادمات دائمًا. أنت تعلمين هذا أكثر مما يعلمه أي شخص آخر».

أضم يديها بين يديّ. أهُمُّ بقول أفضل ما لدي من كلمات تشجيعية من قبيل إن الخير ينتصر على الشر دائمًا، وأن الخيِّرين هم الذين سيرثون الأرض... لكن السيد سنو يظهر عند باب الغرفة في تلك اللحظة تمامًا.

أقول: «أوه، الشكر للسماء! أنا مسرورة جدًا لرؤية...». تختنق الكلمات في فمي لأنني أرى السيد سنو يخطو داخلًا الغرفة ومن خلفه شخص كان من سوء طالعي أن التقيته منذ بضع سنين، شخص تمنيت ألا ألتقيه بعد ذلك أبدًا. امرأة ضخمة، قوية، لها كتفان رياضيتان عريضتان. إنها ترتدي كنزة سوداء وبنطلونًا أسود، لكن حقيقة أنها ترتدي ملابس مدنية بدلًا من ملابس الشرطة لا تفيد شيئًا في تخفيف كربي.

تقف المحقّقة ستارك عند عتبة باب مكتب السيد سنو. تقول لي: «مرحبًا، يا مولي!».

أعلم أن قواعد السلوك الحسن تقضي بأن أجيبها بشيء من قبيل: «تسرّني رؤيتك كثيرًا»، أو: «ما أسعدني برؤيتك مرة أخرى بعد أن اتهمتني ظلمًا بقتل السيد بلاك منذ بضع سنين وكدتِ تدمرين حياتي»،

لكني تعلمت أنّ من الأفضل لي ألّا أفتح فمي إذا كنت غير قادرة على السيطرة على الكلمات في رأسي.

يقول السيد سنو: «اتصل أحدهم برقم الطوارئ لحظة سقوط السيد غريمثورب. وصلت الشرطة سريعًا بعد مغادرتك الصالة، يا مولي».

تقول المحققة ستارك وهي تدس إبهاميها في حمالات حزامها وتتأرجح أمامًا وخلفًا مثلما يفعل رعاة البقر في الأفلام القديمة، «ثم وصلت بعد ذلك بوقت قصير». تجول عيناها في غرفة مكتب السيد سنو وتضيف: «وجودي هنا كأنه تكرار لأمر حدث من قبل».

أقول: «آمل ألا يكون الأمر كذلك. إذا كنت هنا من أجل التحقيق، فمن الأفضل هذه المرة أن تحرصي على تجنب الخطأ في تطبيق العدالة. كانت جدتي تقول، 'أمر بشري أن يخطئ المرء مرة؛ وأما أن يخطئ مرتين، فهذا غباء'!».

سعل السيد سنو سعلة خفيفة وقال: «مولي، أدرك أن ما حدث هذا الصباح قد شوّشك كثيرًا».

تدخل ستارك الغرفة وتنظر إلى ليلي المنهارة على كرسيها. «الظاهر أن لدينا شخصًا آخر مشوّشًا أيضًا!». وتكمل مومئة برأسها في اتجاه ليلي: «سمعت أن هذه الشابة كانت تخدم غريمثورب قبل موته مباشرة».

أقول: «هذه الشابّة لها اسم. إنها ليلي فينتش، وهي خادمة موثوق بها أقوم بتدريبها. أرجو أن تعذري صمتها فأنا أظنها في حالة صدمة شديدة».

«هل أستطيع الجلوس؟». تقول المحققة هذا وتقرّب كرسيًا فتضعه قبالة ليلي، ثم تجلس عليها قبل أن يفلح أحد في أن يقول لها «تفضّلي!».

تقول المحقّقة بصوت مبالغ في علوه: «أنا في حاجة إلى طرح بعض الأسئلة عليك». أتراها تظن ليلي صماء.

أقول لها: «أذناها تعملان جيدًا».

تنظر ليلي إلى يديها اللتين كانتا مضمومتين في حجرها، مبيضّتين.

أوضح: «هي ليست شخصًا كثير الكلام، لكني أؤكد لك أنها خادمة متدرّبة استثنائية».

تجيبني المحققة: «استثنائية من أية ناحية؟ هذا هو السؤال». ثم تتوجه بالكلام إلى ليلي: «ليلي، تعلمين أن السيد غريمثورب قد توفي. تفحّصت جثته منذ قليل ولاحظت بضعة أمور... غريبة جدًا. لاحظت أمورًا مريبة. سمعت أنك أعددت له الشاي هذا الصباح».

أسألها: «كيف تعلمين هذا؟».

يجيبني السيد سنو: «شيريل أخبرت المحققة بهذا. لقد بقيت هناك، في المكان».

أسأل المحققة: «ما علاقة إعداد ليلي الشاي للسيد غريمثورب بسقوطه ميتًا على الأرض؟».

تستدير المحقّقة في كرسيها فتواجهني: «مولي، لا يموت الناس موتًا مفاجئًا من غير سبب وجيه. عادة ما يلزمهم بعض العون». تشيح بوجهها عني وتنظر في وجه ليلي مباشرة. تقول لها: «ليلي، هل مسّ أحد غيرك عربة الشاي الخاصة بالكاتب هذا الصباح؟».

ظلت صامتة.

تسألها المحقّقة ستارك: «هل رأيت في الفندق اليوم أي شيء غير مألوف؟ في الأعلى، أو ربما في الأسفل، في المطبخ؟».

لا تجيبها ليلي. تظل عيناها غائمتين، لا تنظران إلى شيء. تقفز إلى ذهني كلمة «كاتاتونيا»[1]. تراودني رغبة شديدة في تهجئتها بصوت مرتفع... عادتي القديمة... لكني أقاوم.

أتدخّل: «أيتها المحقّقة، لقد أعدّ العاملون في المطبخ هذا الصباح

---

(1) Catatonia: حالة سلوكية حركية غير طبيعية ناجمة عن تشوش عقلي غالبًا ما يكون انفصامًا في الشخصية.

عربتَيْ شاي من أجل السيد غريمثورب، استخدم واحدة منهن قبل بدء المناسبة، واستخدم الثانية أثناء انعقادها. كانت ليلي مسؤولة عن خدمة العربتَيْن. أما في ما يتصل بوجود أمور غير مألوفة في الفندق، فإن أمورًا غريبة يتكرّر حدوثها كثيرًا في فندق ريجنسي غراند. منذ بضعة أسابيع، قام واحد من النزلاء بتهريب حيّة إلى غرفته. هربت الحية من الغرفة وتكوّرت على نفسها في واحدة من كراسي ردهة الفندق. لحسن الحظ، انتبهت إلى تلك اللفافة غير الطبيعية التي كانت على كنبة خضراء زمردية تمامًا قبل أن تجلس فوقها سيدة ذات مؤخرة كبيرة. هل تعلمين أنني ضبطت ذات مرة واحدًا من نجوم البوب يملأ المرحاض بقطع الجليد كي يبرّد الشامبانيا؟ يوم أمس فقط، كان عدد غير قليل من المعجبين بالسيد غريمثورب يتجوّلون في الفندق حاملين بطاقات VIP مزوَّرة معلّقة من أعناقهم».

تسألني المحققة: «كيف علمت أنها مزورة؟».

أجيبها: «غريمثورب».

«عفوًا!؟».

أوضح: «خطأ في ترتيب الأحرف في اسم غريمثورب. خطأ إملائي. قلة انتباه شديدة!».

يؤكد السيد سنو على كلامي: «لدى مولي عينا نسر من حيث الانتباه إلى التفاصيل».

تقول المحقّقة ستارك وقد قلبت شفتيها من جهة واحدة: «هممم».

تذكّرني شفتاها بكلب يعيش في بيت مقابل شقتي. تنقلب شفتاه مثلما انقلبت شفتاها تمامًا، وذلك قبل أن يلقي بنفسه على السور بكل عزمه. لعل ليلي لاحظت ذلك بدورها لأنها انفجرت باكية من جديد ودفنت وجهها بين كفيها.

أقول: «أنت لست واقعة في أية مشكلة، يا ليلي».

تردّ المحققة: «لا يزال الوقت مبكرًا على قول هذا».

«كي يكون هذا معلومًا... ليست ليلي الشخص الوحيد الذي مسّ عربتَيْ الشاي هذا الصباح. أنا مسستهما أيضًا. لقد صحّحت بضعة أخطاء صغيرة وقع فيها العاملون في المطبخ. لديهم هذا الأسبوع نقص في العاملين الرئيسيين. يؤسفني القول إنهم يرتكبون عددًا من الأخطاء».

تنهض المحقّقة وتسير في الغرفة. بعد بضع دورات فيها، تقف أمامي مباشرة.

تقول لي: «إذًا، أنت تقرّين بأنك مسست عربة الشاي».

أرفع يدي اليمنى وأقول: «أنا أقرّ بهذا. من واجبي بصفتي كبيرة الخادمات أن أتحقّق من كل تفصيل، وذلك من أجل مراقبة الجودة. أنا لا أقصّر أبدًا في القيام بواجبي».

تسألني المحققة: «هل لاحظت أي شيء غريب في تلك العربة؟ أو في العربة التي كانت قبلها؟ أي شيء غير طبيعي؟».

أفكر في الأمر لحظة، ثم أقول: «الحقيقة أنني لاحظت شيئًا غريبًا. كانت قطعة القماش العازلة الموضوعة تحت وعاء الشاي مجعدة قليلًا، لكني سوّيتها».

تقول المحققة ستارك وهي تدعك صدغها بإحدى يديها: «فليكن الرب في عوني، لم أعنِ ما قلته حرفيًا».

أقول لها: «عفوًا!؟». أنا أيضًا لم أعنِ هذه الكلمة حرفيًا. ما عنيته كان: *وحق السماء، لا أفهم ما تريدين مني!*

تسأل المحققة من جديد: «عربة الشاي... أسألك إن كان فيها شيء قد تكون له علاقة بسقوط رجل ميتًا على أرض صالة الشاي».

أجيبها: «لم ألاحظ شيئًا... إن لم يكن الشاي مسمومًا».

وكأنّ ما قلته إشارة انطلاق: يبتسم فم ستارك ابتسامة هازئة، وتبدأ ليلي نوبة بكاء جديدة.

تلتفت المحقّقة إلى السيد سنو: «أريد أن تخبرني، بالضبط، بما قاله غريمثورب في إعلانه المهم».

يجيبها السيد سنو: «لا شيء. قبل أن يفلح في قول أي شيء ذي معنى، سقط...».

أخفُّ إلى مساعدته. «سقط ميتًا. لا معنى لتسمية ذلك بغير اسمه. مات السيد غريمثورب قبل أن يلقي كلمته».

تنظر المحقّقة ستارك إلى السيد سنو. وتقول له: «بما أنك الرجل الذي عمل مع غريمثورب على تنظيم هذه المناسبة، ألم تعلم ما كان قد اعتزم إعلانه؟».

يجيبها السيد سنو: «للأسف، لا أعلم».

أقدم اقتراحًا: «تحققوا من بطاقات الملاحظات التي كانت معه».

تكرر المحقّقة ستارك ما سمعته مني: «البطاقات التي كانت معه». بدت كأنها ببغاء مُدرَّب.

أقول: «كانت البطاقات في يده عندما صعد على المنصة. ثم وضعها على المنبر».

تقول ستارك وهي تعقد يديها على صدرها: «هل هذا صحيح؟».

أفكر لحظة إن كان ما قالته كلامًا فحسب، أم سؤالًا من محققة تنتظر مني إجابة. أوثر أن أظل صامتة، من باب الحيطة.

تزفر المحقّقة ستارك بطريقة كان من الممكن أن تصفها جدتي بأنها «مبالغ فيها كثيرًا». تقول: «لم نجد بطاقات على المنبر، ولا في أي مكان آخر في الصالة».

وتلتفت إلى ليلي: «عليك أن تتكلمي. الآن، أريدك أن تأتي معي إلى صالة الشاي كي تشرحي لي ما جرى. هل هذا واضح؟».

أقف بينها وبين متدرّبتي المسكينة المعذّبَة. أقول لها: «أيتها المحققة، ليلي غير قادرة الآن على الكلام. لقد عشت هذه الحالة في وقت سابق.

في حالتي، كنت أعجز عن الكلام عندما يكلّمني الناس بطريقة لا أستحقها. أفهم أن هذا الأمر مُلحّ؛ وبما أن فمي قادر تمامًا على العمل... في هذه اللحظة، على الأقل، فسوف أتطوع بمرافقتك إلى صالة الشاي كي أشرح لك ما جرى هذا الصباح».

تجيبني المحققة: «لا. هذا غير ممكن».

يقول السيد سنو: «انتظري لحظة! كانت مولي موجودة هناك، إلى جوار ليلي وقد رأت كل شيء. ثم إنها أشارت قبل قليل إلى شيء مفقود لم تستطيعوا، أنت وعناصرك، العثور عليه في المكان. قد تكون مولي مفيدة أكثر مما تظنين».

أقول: «إن لي عينين كعينيّ النسر من حيث الانتباه إلى التفاصيل».

تضيف المحقّقة ستارك: «لكنك تغفلين عن أمور لا تقل عددًا عن الأمور التي تنتبهين إليها».

كانت جدتي تقول إنه إذا لم يكن لديك شيء لطيف تقوله، فمن الأفضل ألا تقول شيئًا أبدًا. لهذا السبب، أحرص الآن على أن تظل ذقني مرفوعة، وكتفيَّ مشدودتين، وفمي مطبقًا.

لكن الصمت لا يلبث أن يصير مُصمًّا.

تتنهّد المحقّقة بضع مرات بطريقتها الدراماتيكية المميزة. تقول لي: «إذًا، هيا بنا يا مولي، من الأفضل ألّا يضيع وقتي من غير طائل».

الفصل الخامس

في ما مضى

هل تساءلت يومًا كيف يكون الأمر عندما تعود إلى أماكن تتذكّرها منذ طفولتك، تعود كي تراها من جديد، لكن بعيني شخص راشد؟ هل تبدو مثلما بدت لك من قبل، أم تبدو أصغر حجمًا مثلما تظهر الأشياء في مرآة السيارة... لا لأنها تغيّرت، بل لأنك أنت الذي تغيّرت؟

أسمع في عقلي ضجيجًا ميكانيكيًا صادرًا عن البوابة السوداء التي كانت تُغلق من خلفي.

تقول جدتي: «قدم أمام قدم أخرى. إنها الطريقة الوحيدة للوصول إلى أي مكان في هذه الحياة». وضعت يدها الدافئة على ظهري وقادتني صوب قصر غريمثورب عبر الممر المحاط بالورود.

«هل أنت واثقة من أنه ليس متحفًا؟».

تقول جدتي: «إنه مكان إقامة شخصي، يا عزيزتي. لكني أتردّد في تسميته بيتًا».

أسألها: «لماذا؟».

«سوف ترين».

مع سَيرنا، أمد يدي وأمس بتلات الورود الحمراء المخملية الناعمة التي يجذبني لونها الأحمر كالدم.

تقول جدتي: «انتبهي! عليك دائمًا أن تنتبهي إلى الأشواك».

أبعد يدي وأمسك بيد جدتي من جديد. أسألها عند بلوغنا منتصف الطريق: «هل في القصر خادمات أو عاملات غيرك؟».

تجيبني جدتي: «لم يعد فيه غيري. أكثرهم طُرد من العمل. لديهم

الآن بستاني وحارس أمن في برج المراقبة عند البوابة. أما داخل البيت نفسه، فهم تقريبًا لا يثقون بأحد. إنه بيت كبير جدًا، لكني أكاد أكون الشخص الوحيد تقريبًا الذي يسمحون له بالدخول هذه الأيام».

«تقريبًا!؟».

«الفكرة هي أن البيت ليس عامرًا بالنشاطات الاجتماعية. يفضل آل غريمثورب عدم مخالطة الناس».

أجيبها: «يبدو هذا مثاليًا».

«عما قريب، سوف تلتقين السيدة غريمثورب التي تطالب دائمًا بالامتثال التام، لكن زوجها، السيد غريمثورب، يكاد يكون مختفيًا هذه الأيام... إلا عندما لا يكون مختفيًا».

تسري في جسدي ارتعاشة خوف عندما أتخيل شبحًا بشريًا، رجلًا غير مرئي جزئيًا. أسألها: «هل هو شبح؟».

تضحك جدتي وتقول: «بطريقة من الطرق، هو كذلك. إنه كاتب يقفل باب مكتبه على نفسه معظم الوقت. والسيدة غريمثورب مصرّة على أن سلوكه الغريب هذا علامة على العبقرية الفنية، وعلى أنه أعلى منّا شأنًا، نحن عامة الناس. علينا أن نخدمه ونخدمها من دون طرح أسئلة. إياكِ، يا مولي، أن تقاطعي كتابته. أنصحك بأن تحافظي على مسافة أمان بينك وبينه. عملاق ذو مزاج متقلّب بين كئيب ومزعج». تتشكّل في ذهني صورة جديدة لذلك الرجل - عملاق ممتلئ الجسم، كثيف الشعر، له عينان خرزيتان حمراوان وظهر محدودب وأسنان سفلية مفترسة ناتئة. أسألها وفي قلبي شيء من أمل، «والسيدة غريمثورب؟ هل لديها أطفال؟».

تجيبني جدتي: «ليس لديها أطفال. إنها تكرّس حياتها كلها من أجل راحة زوجها ومن أجل حماية اسم العائلة العريق».

أسألها: «على الأقل، هل تحب الأطفال؟».

تجيب جدتي: «أشك في هذا كثيرًا. لكننا سنكتشف ذلك عمّا قريب».

لقد اجتزنا الممر الطويل المتعرّج وصرنا الآن أمام باب ضخم عليه دقّاقة مخيفة على هيئة رأس أسد غاضب. «هيا، دقي الباب!».

أمسك الأداة الثقيلة بيدي الصغيرة وأضربها مرتين على الخشب القاسي.

أسمع خطوات حذاء عالي الكعب آتية من خلف الباب، ثم يتحرك مقبض الباب. أعود مسرعة إلى مكاني الآمن، إلى جوار جدتي.

ينفتح الباب مطلقًا صريرًا وتظهر فيه امرأة في مثل سن جدتي وفي مثل طول قامتها، امرأة لها وجه متطاول وشفتان رقيقتان مكشّرتان قليلًا.

تضع جدتي قدمًا خلف الأخرى وتخفض عينيها وتنحني تحية لتلك المرأة... أمر لم أرها تفعله قبل الآن، لم أرها تفعله أبدًا.

تقول المرأة الجافة: «فلورا!». في صوتها حشرجة مثل أسطوانة غرامافون عتيقة، «بحق السماء، ما هذا؟».

تلتفت عينا المرأة الضيقتان صوبي فأندسّ في جدتي ملتصقة بها.

تقول جدتي بصوت ثابت قوي: «هذه مولي، حفيدتي. بكل تواضع، ألتمس أن تأذني لها بالبقاء معي هذا اليوم».

تسألها السيدة غريمثورب: «البقاء أين؟».

«سيدتي، وقعت اليوم مشكلة في مدرستها، مشكلة لم تكن منتظرة أبدًا. ما من أحد غيري كي تبقى معه أثناء عملي هنا. لهذا السبب، أرجو سماحك لها بالبقاء هنا خلال فترة عملي. إنها فتاة طيبة. لا تُحدث أية فوضى. إنها... إنها كنزي».

تنفخ السيدة غريمثورب مستاءة، ثم ترفع أصابعها الهزيلة إلى جبهتها كأن نزلة حمى فظيعة أصابتها جرّاء هذا النبأ. «الخادمة تطلب من مستخدميها رعاية الطفلة. أمر عجيب من كل النواحي!». تهز رأسها... «سوف أشملها اليوم بكرمي؛ لكن عليك معرفة أن لهذا الإحسان حدًّا، والحد هو الساعة الخامسة من بعد ظهر هذا اليوم».

أقول: «إحسان... إ-ح-س-ا-ن. معناها: لطف، رحمة، فعل خيّر».
أنحني لها خافضة رأسي مثلما فعلت جدتي منذ لحظات.

تسأل السيدة غريمثورب: «بحق السماء، ما معنى هذا؟».

توضح جدتي: «إنها مولعة بالتهجئة. وهي شديدة المهارة في ذلك».

عينا السيدة غريمثورب الشبيهتان بحفرتين سوداوين تنظران إليّ كأنهما تثقبانني. «لدينا قواعد في هذا البيت، أيتها الفتاة! وعليك أن تلتزمي بها كلها».

أقول لها: «أحب القواعد».

«جيد. القاعدة رقم واحد: يمكن أن يكون الأطفال ظاهرين، لكن من غير صوت. تصحيح: لا يمكن أن يكون الأطفال ظاهرين، ولا أن يُسمع لهم صوت».

أومئ برأسي من غير أن أقول شيئًا. أخاف أن أتكلم لأن في هذا مخالفة للقاعدة رقم واحد.

«القاعدة رقم اثنين: لا زعيق، ولا صياح، ولا جري، ولا صوت على الإطلاق».

أومئ برأسي من جديد.

«القاعدة رقم ثلاثة: لا يجوز لك في أيّ حال من الأحوال أن تشوّشي على السيد غريمثورب. لن يكون لطيفًا معك إن حدث هذا، ولن أكون لطيفة بدوري. عمله الأدبي ذو أهمية قصوى، ولا تجوز مقاطعته. هل تفهمين هذا؟».

أومئ برأسي من جديد، وتشدّ أصابعي على يد جدتي.

تقول جدتي: «مولي استثنائية من حيث تهذيبها وحسن سلوكها. ستكون مسرورة بأن تجلس في الردهة من غير إصدار أي صوت».

تسأل السيدة غريمثورب: «وكيف ستسلي نفسها؟ اليدان العاطلتان لعبة الشيطان. لا أريد أن تدمّر هذا البيت عندما يصيبها الضجر».

أجيبها: «سوف أسلي نفسي بخيالي الخصب». أدرك بعد فوات الأوان أنني خرقت القاعدة رقم واحد، فأضيف «يا سيدتي» آملة أن تخفّف هذه الكلمة من أثر غلطتي.

تتنهّد السيدة غريمثورب، ثم تتنحى جانبًا فتتيح لنا عبور العتبة إلى الداخل.

ردهة المدخل أكبر من أي شيء رأيته في حياتي. أرضها من رخام أسود صقيل مزين برسوم هندسية متداخلة. سلّم من خشب البلوط الداكن يصعد منحنيًا إلى الطابق الثاني المرتفع. مرآة طويلة مذهّبة على جدار إلى يساري تعكس صورة الصدمة في وجهي وتعيدها إليّ. إطار المرآة ذهبي جدًا، ذهبي إلى حد يجعلني واثقة من أنها المرآة السحرية التي في قصة «بياض الثلج». أرفع رأسي ناظرة إلى السقف فأجده عاليًا كالسماء. تؤلمني رقبتي. ثريّا حديثة متلألئة مصنوعة من ألف قطعة كريستال بيضاء كالجليد، معلقة فوق رؤوسنا بحبل قليل الثخانة إلى حد يصعب تصديقه. في الممر، أرى لوحات على الجدران، لوحات مثلما قالت لي جدتي: ليست صورًا لأشخاص أو أشياء أعرفها، بل لطخات تجريدية جريئة من ألوان يبدو لي أنها أُلقيت على القماش ولم ترسمها فرشاة.

تغلق السيدة غريمثورب الباب من خلفنا فيدوّي صوت انطباقه.

تقول جدتي: «سأضعك في الردهة، يا مولي! تستطيعين أن تتابعي تطريزي، ما رأيك في هذا؟».

تأمرها السيدة غريمثورب: «ابدأي العمل سريعًا! لن تنظف نوافذ غرفة المؤونة أنفسها، يا فلورا!».

تستدير السيدة غريمثورب وتذهب سائرة في الممر مطقطقة بكعبيها، ثم تختفي في أعماق القصر الغامضة. تربّت جدتي على كتفي ثم تقودني عبر باب ذي زجاج مزدوج فندخل أول غرفة عملاقة إلى جهة اليمين.

تعلن جدتي: «هذه هي الردهة».

أحس دوارًا عندما أنظر في تلك الغرفة... كنبات بلون أزرق ملكي، ظهورها مرتفعة، وتزيينات تشبه التزيينات التي تكون على الكيك، ولوحات كلاسيكية تغطي كل إنش من الجدار، سفن وأنقاض سفن وسيدات سائرات مرتديات معاطف جميلة، وجماعات من الصيادين تحاصر ثعالب عيونها كبيرة في غابات شديدة الخضرة. وأخيرًا، على الرف فوق فم الموقد المظلم، في وسط الرف تمامًا، شيء هو أعجب ما رأيت في حياتي كلها. على قاعدة قديمة ذات زخارف معقدة، بيضة تزيينية لامعة كأنها لؤلؤة متألّقة، بيضة مرصّعة بالألماس وبجواهر أخرى. ليست بيضة كبيرة جدًا فأنا أستطيع احتواءها بين كفّيّ يديّ. شيء ذو جمال ساحر. لا أستطيع إبعاد عيني عنها.

تقول جدتي: «من الأفضل، يا عزيزتي، أن يظل فمك مطبقًا حتى لا يدخل الذباب فيه».

أفعل مثلما قيل لي، لكني لا أستطيع إبعاد عينيّ عن تلك البيضة الساحرة فوق رف الموقد.

تضيف جدتي: «تقول السيدة غريمثورب إنها من صنع فابرجيه. تحفة أثرية ثمينة توارثتها الأجيال. أليست جميلة؟».

أجيبها مبهورة الأنفاس: «إنها كنز».

تقول جدتي: «أحب هذه الغرفة كثيرًا. لقد أدخلوا تحديثات على المدخل وبعض الصالونات الأخرى، لكنّي أحب هذه الردهة أكثر من أي مكان آخر. والآن، تعالي!». تشدّني جدّتي فتخرجني من حلمي وتأخذني إلى واحدة من الكنبات مرتفعة الظهر ذات الزرقة الملكية. «اجلسي هنا وتابعي تطريز وسادتي. في وسعك أن تطرّزي الزهرات الصغيرة، الوردية والزرقاء. شرحت لك كيف نطرّزها. ألا تتذكرين؟».

أتذكر ذلك. هذه الإبرة أرنب، نجعل الأرنب يدخل في الجحر، وما إن يصير هناك حتى نعقد الخيط كي يبقى آمنًا.

«من الأفضل أن أسرع إلى غرفة المؤونة. إذا كنت تظنين بأن السيدة غريمثورب متجهّمة الآن، فصدقيني عندما أقول لك إنك لن تحبي رؤيتها إذا لم أبدأ سريعًا بتنظيف تلك النوافذ».

بعد ذلك، تفعل جدتي أمرًا غريبًا. تقرفص أمامي وتمسك يدي. «أنا آسفة جدًا!». تقول هذا وتمتلئ عيناها دموعًا... «تستحقين ما هو أفضل، لكني لا أعلم ما أستطيع فعله غير هذا».

لا فكرة عندي أبدًا عمّا يجعلها حزينة. تنقبض معدتي لرؤية دموعها. أقول لها: «لا تبكِ، يا جدتي! ألا تتذكرين ما تقولينه لي دائمًا عن عثوري على مكاني السعيد؟».

«عندما تعثرين عليه، سيكون كل شيء على أحسن ما يرام. أليس كذلك؟».

أجيبها: «هذا صحيح. وأيضًا، يا جدتي...».

«ماذا؟».

«لقد عثرت عليه».

***

بعد خروج جدتي من الردهة، أظل وقتًا طويلًا جالسة على تلك الكنبة ذات اللون الأزرق الملكي، وأتمعّن في كل التفاصيل الدقيقة في تلك الغرفة الرائعة؛ أدرس التفاصيل وأحفظها في ذاكرتي وأسجّل كل ما فيها في سجل أتخيله في عقلي. على هذا النحو، وحتى إذا لم أعد أبدًا إلى قصر غريمثورب، فسوف أظل قادرة دائمًا على زيارته في ذاكرتي.

هذه طريقة تعلمتها عندما ذهبنا في رحلة مدرسية ميدانية إلى المتحف الوطني. كان ذلك منذ زمن غير بعيد. صحيح أن زملائي في الصف راحوا يضحكون ويسخرون مني لأنني قرأت البطاقة التعريفية المرافقة لكل قطعة معروضة؛ لكني لم ألق إليهم بالًا. لا شيء أهم عندي مما كنت أبنيه في عقلي... ليس مكانًا سعيدًا فحسب، بل قصرٌ سعيدٌ!

بعد أن سجَّلت في عقلي كل لوحة وسجادة وقطعة فنية في ردهة غريمثورب، استظهرت تلك التفاصيل كلها بعينَيْن مغمضتين، فلم أبدأ تطريز وسادة جدتي إلا بعد أن اكتملت الصورة المخزونة في عقلي. بدأت تطريز وردة زهرية وزرقاء، لكني نعست وثقُلت أجفاني بعد وقت قصير فوضعت تطريز جدتي في حجري وتركت عينيَّ تُغمضان.

أستيقظ مجفلة عندما أسمع «وقت الشاي». تنقضي لحظة قبل أن أتذكّر أين أنا. جدتي تقف أمامي. أنظر إلى الساعة الموضوعة على طاولة القهوة، فتفاجئني رؤية أن عقرب الدقائق قد أنجز أكثر من دورة كاملة.

تقول جدتي: «أرى أنك ارتحت قليلًا. لا أستغرب أن تكوني متعبة، يا مولي. كان صباحك مرهقًا».

إلى جانبها عربة ذات عجلات عليها إبريق شاي يتصاعد منه البخار، وفنجان شاي بلون أزرق خفيف مثل لون بيضة أبي الحنّاء مستقر فوق طبق أنيق من البورسلان. سلة فيها قطع من خبز طازج بالزبيب، وكريمة مخفوقة في إناء وردي جميل، وشرائح ليمون في إناء آخر أصفر اللون، وسندويتشات أصابع الخيار في طبق جانبي، وملعقة فضية مزخرفة.

أقول: «لمن هذا كله؟ قلتِ لي إن آل غريمثورب لا يُكرمون الضيوف أبدًا».

تضحك جدتي، «أؤكد لك أنهم لا يُكرمون الضيوف. هذا كله من أجلك أنتِ».

لا أكاد أستطيع تصديق ما أراه. ففي أيام السبت، تُعدّ لنا جدتي وجبة شاي خاصة فيها قطع من الخبز المحمص الشهي. نتناول وجبتنا جالستَيْن إلى طاولة المطبخ القديمة في شقتنا الصغيرة. ذات مرة، يوم عيد ميلادي الثامن، اشترت جدتي كريمة مخفوقة كانت لذيذة جدًا، فلم أنسَ طعمها أبدًا. سألتها إن كنا نستطيع شراءها كل عطلة نهاية أسبوع،

لكن جدتي هزت رأسها. وقالت لي: «أتمنى أن نكون قادرين على ذلك، لكنها غالية جدًا».

والآن، تُعدّ جدتي الشاي لي مثلما أحبّه: قطعتا سكر وقليل من الحليب. تملأ طبقًا صغيرًا بتلك المأكولات اللذيذة وتضعه على الطاولة الجانبية ذات القوائم المقوّسة، إلى جانبي. تطوي قطعة قماش نظيفة وتضعها على ذراع الكنبة. أظنها تضعها من أجل حماية الكنبة من الفتات المتساقط.

«ألن تنضمي إليَّ، يا جدتي؟». أتوقّع أن تُقرّب كرسيًا وتجلس. لا أطيق انتظار إخبارها بالقصر الذي بنيته في عقلي، وكيف حفظت ذاكرتي كل ما هو موجود في هذه الغرفة، من الطواويس المرسومة على السجادة المصنوعة باليد إلى تشكيلة الجواهر الرائعة على بيضة فابرجيه... حفظتها كلها لأنني قد لا أعود إلى هذا القصر الرائع مرة أخرى.

تقول جدتي: «مولي، لا أستطيع مشاركتك. لديَّ نوافذ أخرى لا بد من تنظيفها. لكني سأتفقّدكِ في وقت لاحق. هذا يوم التنظيف... لذا، علينا أن ننظف. في ما بعد، ستكونين معي عندما أنظف هذه الغرفة. ألن يعجبك هذا؟».

أجيبها: «يعجبني، يا جدتي».

تداعب يدها وجنتي، ثم تخرج من الغرفة.

من جديد، أنظر إلى عربة الشاي بإعجاب. أتناول قطعة من خبز الزبيب وأضع عليها كريمة ومربى، ثم أتناول واحدة أخرى. ألتهم الاثنتين وأشرب بعدهما الشاي الذي له مذاق الليمون والورد المشبع بضياء الشمس. أصب لنفسي فنجانًا آخر مستخدمة يديّ الاثنتين مثلما علمتني جدتي. أنا فخورة بنفسي لأن قطرة واحدة لم تسقط خارج الفنجان.

أحاول التمهّل وأمضغ كل لقمة ما لا يقل عن عشرين مرة. لكن سلة

الخبز بالزبيب تفرغ بعد زمن غير طويل، ولا يبقى في طبق السندويتشات شيء غير قليل من فتات الخبز. أعيد الأطباق إلى عربة الشاي. عند ذلك، أنتبه إلى قطعة القماش التي وضعتها جدتي على ذراع الكنبة. تلمع في رأسي فكرة. لماذا أهدر الوقت في التمتع بالشاي والتطريز في حين أنني قادرة على أن أكون مفيدة لجدتي؟

افعلْ أمرًا حسنًا من أجل من هو في حاجة إليه!... هكذا علمتني جدتي.

أتناول قطعة القماش وأبدأ بإزالة الفتات الذي تساقط على الكنبة. وبعد ذلك، أواصل أداء عمل جدتي، فأمسح الطاولة الجانبية وأنظفها إلى أن تصير لامعة. أتنقّل في الغرفة وأمسح كل سطح، سطوح الطاولات الكبيرة والصغيرة وسطوح الكراسي، وإطارات اللوحات على الجدران... على الأقل، اللوحات التي تستطيع يداي أن تطالها. أزيل الغبار عن الساعة الموضوعة على طاولة القهوة، وأيضًا عن الكتب ذات الأغلفة الجلدية المصطفة عليها. أمسح التحف الصغيرة والتماثيل وقواعد المصابيح وإطارات النوافذ. بقي في الغرفة شيء واحد لم أنظفه: بيضة فابرجيه المدهشة التي تراكم عليها الغبار. أرفع البيضة عن رفّ الموقد وأحملها بحرص إلى كنبتي. أجلس وأضع التحفة الثمينة في حجري. إنها أثقل وزنًا مما تبدو، وأشد جمالًا عند النظر إليها عن قرب. قوائم القاعدة المقوّسة مزينة بأكاليل نباتية متداخلة، والألماسات واللآلئ اللامعة على البيضة نفسها منظومة في صفوف متماثلة تمامًا. قد تبدو القاعدة الذهبية الآن كابية من غير لون، لكني أعلم ما ينبغي فعله لإصلاح ذلك.

أتناول شريحتَيّ ليمون وأعصر السائل على قوائم القاعدة المبقّعة مثلما رأيت جدتي تفعل عندما تنظف الفضيات العتيقة في بيتنا. أستخدم قطعة القماش فأدعك القاعدة وألمّعها، أنفخ عليها وأدعكها بقوة. لا أفرغ من ذلك إلا وقد تعبت يداي وتعبت مفاصلي، لكن ما من نقطة

واحدة في القاعدة الذهبية ظلّت غير متألقة، غير مشعّة. أضع البيضة على قاعدتها وأعيدها إلى مكانها حيث تشعّ كأنها شمس صغيرة.

عند ذلك، أسمع من خلفي ذلك الصوت الأجش: «ماذا فعلت؟». أقفز في مكاني، وألتفت.

السيدة غريمثورب تقف بباب الغرفة. إصبعها العظمية تشير إلى بيضة فابرجيه اللامعة. أسمع صوت خطوات سريعة، ثم تظهر جدتي عند الباب. تنظر إلى قطعة القماش في يدي وإلى طبق الليمون الذي تركته على الكنبة.

تسأل جدتي: «مولي، ماذا تفعلين؟».

أجيبها: «قلت في نفسي إن من الممكن أن أتولى جزءًا من عملك هنا. علينا أن ننظف. وأنا أنظف أيضًا. كانت بيضة فابرجيه متّسخة، يا جدتي. لا أظن أن أحدًا نظفها في يوم من الأيام».

أتوقّع أن تثني جدتي على مبادرتي. بدلًا من ذلك، أراها تضع يدها على فمها.

تزعق السيدة غريمثورب: «أيتها الفتاة الشريرة!». تخرق القاعدة التي وضعَتها بنفسها. القاعدة رقم اثنين: لا يجوز رفع الصوت في هذا البيت. تلتفت إلى جدتي وتقول لها: «لقد أزالت التعتيق عن قطعة أثرية ثمينة».

أقول: «لم ألحق بها أي أذى. انظري، إنها لامعة».

تصرخ السيدة غريمثورب: «أنت غبية!». لا تزال إصبعها العظمية تشير إليَّ كأنني ضفدع ذو خمس قوائم، أو عجل ذو رأسين، أو شيء كريه، غير طبيعي.

تقول جدتي: «كانت تحاول المساعدة، لا أكثر».

«إنها لا تفهم شيئًا! لقد أفقدت قطعة من عمل فابرجيه قيمتها. إن أخبرت السيد غريمثورب عما فعلتِه، أيتها الفتاة، فسوف تطردان معًا من هذا البيت، أنت وجدتك».

أقول: «لكن جدتي لم تفعل شيئًا. أنا التي فعلت».

تأمرني السيدة غريمثورب: «هششششش! ألا تدركين معنى أن تظلّي صامتة؟».

هذا، بالضبط، هو ذلك النوع من الأحاجي الذي يفلق دماغي نصفين! كيف أظل صامتة عندما يكون السؤال موجهًا إليّ؟

تتدخّل جدتي: «سيدتي، أستطيع إعادتها مثلما كانت. ثمة حيَل تعرفها كل خادمة تتقن عملها. لا حاجة إلى أن يعلم السيد غريمثورب بالأمر. لا تطرديني! تعلمين كم صار صعبًا هذه الأيام أن يعثر المرء على مساعِدة. ومثلما تقولين دائمًا، يمكن *أن تزداد الأمور سوءًا*، وسوف *تزداد سوءًا!*».

أقول لها: «لن تعثري أبدًا على خادمة أفضل من جدّتي... أبدًا!».

تنتقل نظرات السيدة غريمثورب ذهابًا وإيابًا بيني وبين جدتي، نظرات عينيها الضيقتَيْن الغاضبتين. «جدتك مخلصة، بل بالغة الإخلاص أحيانًا. على الأقل، تفهم واجباتها خلافًا لغيرها من الخادمات اللواتي مررن بهذا البيت. أما أنت، أيتها الفتاة، فلا تفهمين واجباتك».

تقول جدتي: «أرجوك! ارتكبتْ مولي غلطة. هذا كل ما في الأمر».

تقول السيدة غريمثورب: «إن كان لحفيدتك أن تشق طريقها في هذا العالم، فإن عليها أن تتعلم أن الأفعال لها عواقبها. ينبغي أن تنال الفتاة عقوبتها».

تجيبها جدتي: «أنا متّفقة معك تمامًا. تستحق عقوبة شديدة. تستحق عقوبة شديدة جدًا».

أقول: «يا جدتي...». يصدمني أن تقترح شيئًا من هذا القبيل على الرغم من علمها أنني أحاول دائمًا أن أكون مفيدة. لكنني أنظر إلى جدتي، فأراها تضع إصبعين على ذقنها. إنها إشارتها السرية التي تعني أن كل

شيء سينتهي على ما يرام، وأن عليّ أن أنفِّذ ما تقوله لي. على الفور، أكف عن الكلام.

تقول جدتي: «ما أقترحه هو أن تعمل مولي كي تسدّد دينها، كي تعوّض عما فعلته. ينبغي أن يتعلم الأطفال الدروس؛ وأي درس أفضل من العمل الشاق. ألستِ متّفقة معي؟».

تتغيّر قسمات وجه السيدة غريمثورب. تقول: «عمل شاق! بمَ تفكرين بالضبط؟».

«سوف تضع مولي مواهبها موضع الاستخدام. سوف تنظف، ولن يكلفك هذا شيئًا».

تبتسم السيدة غريمثورب، لكنها ليست تلك الابتسامة التي تبلغ العينَيْن. تقول: «أظن أن العقوبة ينبغي أن تكون متناسبة مع الجرم. سوف تلمّع أدوات الطعام في خزانة الفضيات».

تسألها جدتي: «أدوات الطعام كلّها؟».

تجيبها السيدة غريمثورب: «كلها».

تقول جدتي، «لكن هذا يستغرق أسابيع!».

تجيبها السيدة غريمثورب: «صحيح، سيستغرق أسابيع».

تنظر جدتي إليّ نظرة غريبة لا أستطيع فهمها. أراها مشرقة مثلها مثل بيضة فابرجيه. تقول لي: «هيا، يا مولي! دعينا نذهب إلى الغرفة التي ستتلقين فيها عقابك الشديد!».

رأسي يدور. لا أفهم شيئًا مما يجري، لكني أسير خلف جدتي والسيدة غريمثورب اللتين تخرجان من الغرفة، وتسيران في الممر الطويل الممتد عميقًا في متاهة بطن ذلك القصر الكبير. نعبر قاعة رقص ضخمة إلى يسارنا، وصالة طعام رسمية إلى يميننا، وغرفة بليارد، وأكثر من حمام. أخيرًا، ينتهي الممر الطويل بمطبخ لم أرَ مثله من قبل، لم أر ما يدانيه اتساعًا ونظافة وروعة. نوافذه الممتدة من الأرض إلى السقف

مطلّة على مستنبت محمي ومن خلفه حدائق شديدة الخضرة، شديدة الترتيب كأنها شيء من حكايات الخيال.

«تابعي سيرك، أيتها الطفلة!». تقول السيدة غريمثورب هذا وتسير إلى آخر المطبخ. تفتح بابًا وتضيء النور. الغرفة أكبر من غرفتي في بيتنا بمرتين اثنتين، فيها رفوف من الأرض إلى السقف تغصّ بأوعية فضية وأطباق كبيرة فضية ودوارق فضية وأباريق شاي فضية وصحون فضية وما لا يحصى من سكاكين فضية وشوكات فضية وملاعق فضية. هذا مستحيل! كيف تكون لدى زوج وزوجة هذه الكمية كلها من أدوات الطعام الفضية؟ أنكون قد دخلنا وكر قرصان أو عرينًا سريًا يقطنه تنّين؟

تعلن السيدة غريمثورب: «هذه هي خزانة الفضيات. الفضيات غير نظيفة. إنها قذرة كلها. ذات مرة، طردت خادمة لأنها رفضت تلميعها وقالت إن هذا مضيعة للوقت. فضلًا عن قولها السخيف هذا، زعمت تلك الغبية أن مادة تلميع الفضيات قد أضرّت بيديها. لم أسمع شيئًا مثل هذا من قبل».

أقول: «جدتي، لماذا لم تلمّعي هذه الفضيات؟».

توضح السيدة غريمثورب: «لأن جدتك لديها مهمات أخرى من بينها العناية بالبيت كله وتلبية احتياجات زوجي الكثيرة. هل تدركين أن مجرد القرب من فنان عبقري مثله يعتبر شرفًا كبيرًا؟ نحن نخدم الإبداع ذاته عندما نخدمه».

أومئ برأسي عدة مرات كي أبيّن أنني فهمت، ثم أرفع يدي مثلما أرفعها في غرفة الصف عندما يكون لديّ سؤال ملحّ.

تكشّر السيدة غريمثورب وتسألني: «ما الأمر الآن؟».

«هل يعني هذا أنني سآتي إلى هذا القصر كل يوم بدلًا من ذهابي إلى المدرسة؟ وهل يعني أن من واجبي تنظيف هذه الفضيات؟».

أنظر إلى جدتي فتشير لي من جديد إشارة الذقن نفسها. أظل ساكنة مثل تمثال وأطبق فمي وأشد على شفتيّ.

تقول السيدة غريمثورب: «أنت طفلة فظيعة غير منضبطة! لكني آمل أن تتحسّني خلافًا لمن أتَيْن من قبلك. تكرّمًا مني، سأمنحك فرصة ثانية. خلال المستقبل المنظور، سوف تأتين كل يوم وتعملين كي تعوّضي عن الضرر الذي ألحقته بواحدة من تحف السيد غريمثورب التي لا تقدّر بثمن. سوف تعوّضين عن ذلك من خلال تلميع كل ما في هذه الخزانة من فضيات».

لا أستطيع تصديق حسن حظي! لشدة فرحتي، أقفز في مكاني. أنظر إلى جدّتي فيبدو لي أنها تحاول ابتلاع ابتسامتها.

أنظر إلى السيدة غريمثورب وأقول: «هذا جميل جدًا! هل أستطيع أن أبدأ التنظيف الآن؟».

الفصل السادس

تخرج المحقّقة ستارك من مكتب السيد سنو تاركة ليلي والسيد سنو خلفها. ألحق بها مثلما أمرتني، لكنها تتوقّف فجأة عندما ينفتح الممر على اتجاهين اثنين. أكاد أصطدم بظهرها.

تسألني: «في أي اتجاه تقع صالة الشاي؟».

أجيبها: «هذا متوقّف على رغبتك. هل تفضلين الطريق الأكثر جمالًا عبر ردهة الفندق أم الطريق الأسرع عبر الممرات الخلفية؟».

تجيبني: «من فضلك، خذيني إليها بأسرع ما تستطيعين!». تقول هذا بنبرة أرى فيها قدرًا كبيرًا من الفظاظة.

أقول: «لا بأس!». أنعطف يسارًا وأتقدّم المحقّقة عبر الممرات الخلفية. ننعطف يسارًا مرة أخرى، ثم يمينًا إلى أن نصل إلى صالة الشاي. أرى الشريط التحذيري الذي تستخدمه الشرطة مثبتًا على بابها. من جديد، يتملّكني إحساس عميق بالضيق وإحساس بتوجّس متزايد إزاء كل ما حدث هذا الصباح. أنظر داخل الغرفة فأشهق لما أراه.

تقول ستارك: «مع مرور الوقت، يعتاد المرء هذا المنظر».

إنها تشير إلى السيد غريمثورب الذي صارت جثته المتيبسة داخل كيس أسود في وسط قاعة الشاي. اثنان من عناصر الشرطة يغلقان الكيس. لكن جثة السيد غريمثورب ليست سبب صدمتي، بل حالة الغرفة هي ما أثار جزعي. بعد عملي الشاق كله، صارت الغرفة الآن في اضطراب شديد. مفارش الطاولات مُزاحة، وعليها بقع شاي، والأطباق مرمية، مقلوبة، البلاط دبق تحت قدمي. وهنا وهناك، سندويتشات صغيرة سقطت على الأرض وداستها الأقدام. عجيب أن لا شيء قد

انكسر إلّا فنجان السيد غريمثورب الذي صارت شظاياه الآن مبعثرة حول الكيس الذي يضم جسده.

أقول: «تعلمين، أيتها المحقّقة، أنني رأيت الموت فيما مضى». ما لا أقوله هو أنني لست شديدة الحزن لموت السيد غريمثورب وأن للأقدار أحيانًا أسلوبها الغامض في إحقاق ما هو مُستحَق. أمتنع أيضًا عن ذكر الصلة التي كانت بيني وبين الرجل الذي في الكيس الأسود. إن كنت قد تعلمت شيئًا من مسلسل كولومبو ومن تجارب الماضي فهو أن معارف الميت الباقين على قيد الحياة سرعان ما يصيرون موضع شبهة. هذا آخر ما أريده الآن.

أنظر في الصالة مرة أخرى فينتابني القنوط من جديد. كنت شديدة الاعتزاز بأننا استطعنا تحويل هذا المكان من غرفة مستودع قديمة مغبرة إلى قاعة مناسبات جديدة مبهرة. عندها، تفاجئني الفكرة: الغرفة ليست إلّا حاوية! وكل مكان يمكن أن يصير مسمّمًا بذكرى ما وقع فيه. صالة شاي، أو مكتبة، أو ردهة...

على غير انتظار، أحس أنني صرت غير مستقرة على قدميَّ. العالم كله يميد من حولي. أسمع بكاء من خلفي.

يسأل صوت مرتعش: «هل هو حقًا... ميت؟».

ألتفت وتلتفت المحقّقة ستارك.

مجموعة محتشدة في الممر، كتلة من نساء في أواسط العمر متلاصقات كلهنَّ معًا تلاصقًا يجعل صعبًا على المرء أن يعلم أين تنتهي الواحدة منهن وأين تبدأ الأخرى. على صدورهن جميعًا بطاقات «VIP»، وعند قلوبهن شارات متماثلة مكتوب على كل واحدة منها «معجبات ج. د. غريمثورب».

تسأل ستارك: «من أنتن؟».

تقول امرأة طويلة القامة تقف في مقدّمة المجموعة، شعرها رمادي

متموج: «نحن جمعية المعجبات بالكاتب غريمثورب». أعرفها فورًا... هي رئيسة جمعية المعجبات. أعرفها من العلم الأحمر الذي في يدها. على امتداد أيام مضت، كانت تحمل هذا العلم وتسوق رفيقاتها في أرجاء الفندق آملة أن يلمحوا الكاتب الشهير نفسه، أو أن يحصلوا على أوتوغراف منه أو، أكثر من ذلك... أن يلتقطوا صورة سيلفي إلى جانبه.

أقول للمحققة: «إنهن من نادي المعجبات. قارئات متحمسات لقصص الغموض، متخصصات في دراسة السيد غريمثورب وأعماله الأدبية».

«نحن لسنا نادي معجبات فحسب! نحن خبيرات متحمّسات في قصص الغموض». تقول امرأة أخرى كبيرة الصدر رمادية الشعر، وتشير بإصبعها إلى الشارة المثبتة على كنزتها البنية. إما أن تكون تلك الكنزة مصنوعة كلها من شعر القطط، أو أن تكون مغطاة بشعر القطط إلى حد يجعل المادة التي تحته غير مرئية.

تقول امرأة قصيرة القامة تقف وسط الجمع، شعرها فضي رمادي فيه خصلات لامعة بلون برتقالي: «في الموت والحياة، في المرض والصحة، نحن مخلصات لسيد الغموض. في قلوبنا وفي ذاكرتنا، يظل ج. د. باقيًا إلى الأبد».

أقول متذكرة أول مرة سمعت فيها تعبير «إلى الأبد»: «المعنى: دائمًا».

تبكي بضع عضوات في الجمعية، أو يبكين جميعًا. تظهر علبة مناديل من مكان ما وسط الجماعة وتدور بين النساء منتقلة من واحدة إلى واحدة.

تشير رئيسة الجمعية، المرأة الطويلة ذات الشعر المتموّج، إلى ستارك بالعلم الأحمر الذي في يدها وتسألها: «هل أنت محقّقة؟».

تجيبها ستارك: «هذا صحيح».

تسأل امرأة أخرى وسط الجماعة: «هل تعرفين سبب الوفاة؟».

تجيب ستارك: «هذا ما أتيت كي أعرفه».
«هل هي جريمة قتل؟». تطرح هذا السؤال المرأة القصيرة ذات خصلات الشعر الوردية.
تجيبها المحققة ستارك: «لا أستبعد أي احتمال حتى الآن».
تقول السيدة صاحبة كنزة شعر القطط: «أستطيع مساعدتك. أنا خبيرة في شؤون ج. د. غريمثورب».
«حصلت منذ الآن على مساعدة أكثر مما يلزمني». تجيبها ستارك بهذا وتنظر إليّ... «ما أريده الآن منكنّ جميعًا هو الخصوصية. أطلب منكن الابتعاد عن المكان فورًا».
تومئ رئيستهن برأسها وتقول: «بالطبع! يا عضوات الجمعية، أخلين المكان من أجل المحقّقة». ترفع علمها الأحمر كي تتحرّك رفيقاتها... «أيتها المحقّقة، نحن هنا إن غيّرت رأيك ووددت الحصول على معلومات إضافية». تقول هذا وتقود جماعتها بعيدًا عن مدخل صالة الشاي.
تقول المرأة ذات الشعر الرمادي والخصلات الوردية: «من فضلك، لا تنسينا!».
تجيبها المحقّقة ستارك: «لن أستطيع نسيانكن، حتى إن أردت».
تسير الرئيسة صاحبة العلم وتقود قطيعها في الممر إلى أن تغيب عن أنظارنا.
بعد ذهابهن، ترفع المحقّقة ستارك الشريط التحذيري الأصفر الذي يعترض الباب. تأمرني قائلة: «ادخلي، يا مولي!».
أقول مع انحنائي كي أعبر من تحت الشريط: «هذا لطف منك!».
تتبعني المحقّقة ستارك.
يأتي إلينا الشرطيان اللذان كانا يغلقان الكيس.
تسألهما المحققة ستارك: «هل وجدتما شيئًا؟».

«شِرى حول الفم، وانتفاخ حول العينين».

أقول: «هذا يعني انتفاخًا ناجمًا عن فشل أحد الأعضاء أو، في بعض الأحيان، عن نوبة قلبية. لكن، ما الذي يجعل القلب يتوقّف؟ هذا هو السؤال دائمًا، أليس كذلك؟».

يلتفت الشرطيان إليّ كأنهما يريانني أول مرة. يسأل الأطول قامة بينهما: «من تكون هذه؟».

تجيبه المحقّقة ستارك: «مولي. إنها خادمة في الفندق».

يقول الشرطي الأقصر قامة: «مولي، الخادمة!؟ هل هذا مزاح؟»[1].

تجيب المحقّقة ستارك بصوت منخفض جدًا: «ليته كان مزاحًا!»؛ لكنها لم تخفض صوتها إلى الحد الذي لا تلتقطه أذناي.

يسألها الشرطي طويل القامة: «وماذا تفعل خادمة في مسرح الجريمة؟».

أسأله: «هل تفترض أن هذا مسرح جريمة؟ عندما تفترض، فأنت تسخر من نفسك ومني!»[2]. لسبب لا أستطيع تبيّنه، تفتح المحقّقة ستارك عينيها على اتساعهما في حين تظهر الدهشة على وجهَيْ الشرطيَيْن.

تقول المحققة ستارك: «تجاهلاها! إنها مشكلتي وحدي. عودا إلى عملكما!».

أقول للمحققة: «لكن عليّ أن أنظف هذه الفوضى. لا بد لي من بعض الوقت كي أعيد القاعة إلى كمالها».

تقول ستارك: «هذا غير ممكن. لن تنظفيها!».

عندها فقط، أدرك كم كانت تلك الفكرة غبية.

---

(1) «مولي الخادمة»، أو «Molly Maid»، اسم شركة معروفة توفر خدمات تنظيف المكاتب والبيوت.

(2) هذا تلاعب بالألفاظ قائم على تقسيم كلمة ـ «يفترض» إلى «Ass»، و«U»، و«Me» ـ «غباء أو غبي» و«أنت» و«أنا».

يعود الشرطيان إلى الناحية الأخرى من الصالة.

تخرج ستارك من جيبها دفترًا صغيرًا وتقول لي: «لا بأس... فلننته من هذا الأمر! أريد منك أن تصفي الصالة مثلما كانت قبل أن يحدث ما حدث. هل تستطيعين أن تقولي لي من كان هنا وماذا كان هنا قبل لحظة صعود السيد غريمثورب إلى المنصة؟ لا تهملي أي تفصيل. هل تفهمين هذا؟».

أجيبها: «أفهمه تمامًا». أعود بذاكرتي إلى هذا الصباح وأستحضر في عقلي صورة صالة الشاي بكل ما كان فيها من ألق، الصالة الغاصة بمدعوّين ينتظرون دخول السيد غريمثورب.

«عند الساعة التاسعة والنصف، كان المدعوون جالسين جميعًا. عمال الخدمة هناك والنادلات والخادمات واقفات إلى الجانبين. وأنا كنت هناك تمامًا، عند أول الصالة، إلى جوار ليلي. كان المصورون والصحافيون خلفنا».

تسألني ستارك: «وتلك الطاولة؟».

«كان بائعو الكتب يقفون خلفها. وكانت ليلي تخدم عربة الشاي الخاصة بالسيد غريمثورب».

«هل هي تلك العربة هناك؟». تشير إلى عربة في أول القاعة.

أجيبها: «إنها هي. أعني أنها كانت عربة الشاي الخاصة بالسيد غريمثورب».

تنادي المحقّقة ستارك: «يا شباب! تلك هي عربة غريمثورب». يومئ الاثنان برأسيهما ويشرعان في فحص العربة بأيديهما المرتدية قفازات.

تسألني ستارك: «هل كان غريمثورب في القاعة عند دخولك؟».

«لا. كان خلف ذلك الباب المخفي في الجدار. دقت الباب الآنسة سيرينا شارب، وهي سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية. عند ذلك، دخل السيد غريمثورب. خيّم صمت مطبق عندما صعد إلى المنصة ووضع بطاقاته على المنبر».

«صحيح... البطاقات» تنادي: «يا شباب! هل وجدتم بطاقات ملاحظات؟».

يجيبها الشرطي طويل القامة، «لا، يا سيدتي». يهز الشرطي الآخر رأسه نفيًا.

«ماذا حدث بعد ذلك، يا مولي؟»، تسألني ستارك وهي تدوّن شيئًا في دفترها.

«سعل السيد غريمثورب قليلًا، ثم طلب فنجان شاي. صبت له ليلي فنجان شاي وأخذته إلى المنصة».

«سوف نفحص الشاي الذي في الإبريق».

أقول لها: «لا حاجة إلى هذا. لقد كان شاي الإفطار الإنكليزي. أنا واثقة من ذلك».

«أعني أننا سنفحص إن كانت فيه مواد سامة، يا مولي. هل تفهمين هذا؟ نريد أن نعرف إن كان أحدهم... كتلك الغبية الجالسة في مكتب السيد سنو... قد دسَّ شيئًا في شاي الكاتب».

أقول: «لا حاجة إلى استخدام كلمات سيئة في وصف الناس. أما بالنسبة إلى شاي السيد غريمثورب، فأنا واثقة من أنه كان فيه شيء: عسل».

تكرر المحقّقة ستارك تلك الكلمة: «عسل».

«نعم... كان عسلًا من وعاء العسل الذي وضعته على عربة الشاي قبل ذلك. مثلما قلت لك، تفقّدت عربة الشاي بنفسي قبل المناسبة الكبيرة فانتبهت إلى أن فيها خللًا. السيد غريمثورب يتناول الشاي مع العسل، لا مع السكر. سوّيت قطعة القماش العازلة التي كان وضعها غير صحيح، ثم بدّلت وعاء العسل بوعاء السكر الذي كان على العربة».

تنادي المحقّقة من جديد: «يا شباب! وعاء العسل على تلك العربة!».

يبحث الشرطيان عن وعاء العسل، لكنهما لا يجداه.

أقول: «ينبغي أن يكون هنا. وعاء فضي رفيع الجودة، في غطائه فتحة صغيرة من أجل الملعقة التي تحمل شعار ريجنسي غراند». أسير إلى العربة، وعندما أصل إليها، لا أجد في الصينية الفضية شيئًا.

أقول: «وعاء العسل ليس هنا». أنظر في أرجاء الغرفة. أرى أوعية سكر على الطاولات كلّها، لكني لا أرى أي وعاء عسل لأن تقديم العسل مع الشاي ليس جزءًا من الخدمة المعتادة في فندقنا.

أقول: «أمر غريب جدًا! لقد نزل السيد غريمثورب بنفسه عن المنصة كي يضيف العسل إلى الشاي».

تسألني المحقّقة ستارك: «هل شرب شيئًا من ذلك الفنجان المكسور المتناثر على الأرض؟».

«بكل تأكيد. رأيناه جميعًا. تناول عدة رشفات وهو لا يزال واقفًا عند العربة، ثم بضع رشفات أخرى بعد عودته إلى المنصة. بعد ذلك، وضع الفنجان وبدأ يتكلم. كان ينوي الإفصاح عن أمر سرّي -هذا ما قاله- لكنه بدأ يتمايل قبل أن يستطيع قول أي شيء آخر، وبدا كأنه ثمل. ثم مال إلى الأمام وسقط على الأرض فوقع فوق المسكينة ليلي».

تقول المحققة: «وسقط الفنجان من يده».

أنظر إلى شظايا الفنجان على الأرض وأجيبها: «سقط الفنجان، وكذلك سقطت الملعقة وسقط الطبق الذي تحت الفنجان».

تذهب المحقّقة ستارك إلى حيث شظايا الفنجان والطبق على الأرض. تقرفص هناك. تلتفت إلى الشرطيَيْن وتسألهما: «يا شباب، هل رفعتم عن الأرض ملعقة؟».

يقول طويل القامة: «لا»، ويهز القصير رأسه.

تدوّن شيئًا في دفترها، ثم تقلب الصفحة. تسألني: «ماذا جرى بعد سقوط غريمثورب؟».

«اندفع الجميع إلى مقدّمة القاعة. صاح بعضهم طالبًا الإسعاف،

وراح الناس يتدافعون. تقدّمت إلى الأمام، وخلّصت ليلي من تحت السيد غريمثورب. كان السيد سنو والآنسة سيرينا شارب التي هي سكرتيرة السيد غريمثورب الخاصّة يحاولان إنعاشه».

ترفع المحقّقة رأسها عن دفترها. «أين تظنينها الآن... السكرتيرة؟».

أقول: «قد تكون في غرفتها. إنها في الطابق الثاني، إلى جوار غرفة السيد غريمثورب».

تقول المحقّقة مستغربة: «غرفتان متجاورتان! هي ورئيسها!».

تلتفت إلى الشرطيَّيْن: «هل تبادر إلى ذهن أي منكما أن يحتجز السكرتيرة الشخصية ويستجوبها؟».

يتفادى الرجلان نظرة عينيها.

تغلق المحقّقة ستارك دفترها بحركة عنيفة. «حان وقت العمل»، تقول هذا وتسير صوب الباب.

أسألها: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

«ذاهبة كي أبحث عن سيرينا شارب».

أسير خلف المحقّقة وأخرج من صالة الشاي. أعبر ردهة الفندق متجهة إلى المصعد حيث يقف عدد من النزلاء في انتظاره.

تقول المحقّقة ستارك وهي تضغط على مفتاح طلب المصعد بقوة أكبر كثيرًا مما هو ضروري، «تستطيعين الانصراف. اذهبي وافعلي ما تفعلينه هنا. لكن، لا تغادري الفندق، يا مولي. هل تسمعين هذا؟ ولا تتركي تلك الخادمة التي تساعدك تذهب إلى أي مكان».

أجيبها: «حسنًا جدًا! كيف ستدخلين غرفة الآنسة شارب إذا لم تكن موجودة فيها؟ هل أعطاك أحد مفتاحًا؟ لعل السيد سنو أعطاك المفتاح! أفترض أن لديك إذنًا بدخولها لأنك لا تستطيعين دخول غرف النزلاء كيفما تشائين... إلّا، بالطبع، إذا كنت خادمة في الفندق». أقول هذا وأرفع بطاقتي التي تفتح الأبواب كلها.

تنظر ستارك إلى النزلاء الواقفين معنا. أتكون هذه واحدة من ألاعيب الضوء، أم إنني أرى حمرة كحمرة الطماطم تسري منتشرة من رقبتها إلى وجنتيها؟ تقول بصوت منخفض جدًا: «لا بأس! تستطيعين المجيء معي. وإذا طرح أحدهم أسئلة فأنت -من الناحية العملية- التي تدخلين تلك الغرفة، لا أنا. هل تفهمين هذا؟».

أجيبها: «مثلما تريدين».

عند ذلك، يحدث أمر لم يحدث لي طيلة سنوات عملي خادمة فندق. ينفتح باب المصعد، ويتراجع النزلاء الواقفين أمامه كي يتيحوا لي ولمحققتي الدخول قبلهم. وعندما ندخل لا يلحقون بنا ولا يدخلون المصعد. أستطيع سماعهم يتهامسون في ما بينهم. «من هذه المرأة ذات الملابس السوداء. تبدو شرطية في ملابس مدنية. هل يعني أن موت غريمشورب كان جريمة قتل؟». يغلق باب المصعد. أضغط على مفتاح الطابق الثاني. نظل أنا وستارك صامتتَيْن إلى أن ينفتح الباب.

أقول: «في هذا الاتجاه!». وآخذ المحقّقة ستارك إلى جناح الآنسة شارب، رقم 201. أدق الباب في حين تنتظر المحققة على مسافة بضع خطوات. أقول بصوت عالٍ، لكنه واثق: «خدمة الغرف! هذه المرة، لست هنا من أجل تنظيف الغرفة. معي شخص يود أن يكلمك».

ننتظر، لكننا لا نسمع ردًّا. ألتفت إلى المحققة ستارك. أقول لها: «بكل وضوح، وطبقًا للقواعد التي أتّبعها، لا يحق لغير خادمة الآنسة شارب دخول هذه الغرفة. وأنا لست تلك الخادمة. لكني سأقبل بأن تكون هذه المرة استثناءً من ذلك».

تجيبني المحقّقة ستارك: «أنا ممتنة لك أبد الدهر». لكنها تقول ذلك بطريقة تجعلني أشك في صدق كلماتها.

أخرج بطاقتي وأفتح الباب. تظلّ المحقّقة خارج الغرفة. تمد رأسها فقط وتنظر إلى هذه الناحية وتلك. أعلم ما تفعله المحقّقة لأنني أفعله

بدوري. إنها تحفظ تفاصيل الغرفة في ذاكرتها، تخزّنها مستخدمة عين عقلها كي تدرسها في وقت لاحق.

السرير مرتب تمامًا، زواياه مشدودة مثل زوايا أسرة المستشفيات. الأغطية الصحية الواقية موجودة على كؤوس الماء على الطاولة. السجادة منظفة بالمكنسة الكهربائية التي تركت عليها خطوطًا تشبه خطوط حدائق زن، أوبارها نظيفة، متناسقة. لا يعني هذا أن الغرفة قد نُظّفت منذ وقت قصير جدًا فحسب، بل يعني أيضًا أن الآنسة شارب ليست فيها. لا أرى حقيبة في أي مكان، ولا مستلزمات شخصية على أي سطح من السطوح.

أسمع صوتًا من خلفي: «هل كل شيء على خير ما يرام، يا مولي؟ هل نظّفْنا كل شيء كما ينبغي أن نفعل؟».

ألتفت فأرى سنشاين وسونيثا تقفان عند الباب مع عربة التنظيف، إلى جوار المحقّقة. إنهما من الخادمات الرئيسيات في الفندق.

أسأل الخادمتين: «هل رأت أي منكما الآنسة شارب؟».

تهز سنشاين رأسها وتقول: «قالوا في مكتب الاستقبال إنها تركت الفندق. طُلِب منّا أن ننظف هذا الجناح وجناح السيد غريمثورب المجاور. لقد غادر الفندق بدوره».

تقول المحقّقة ستارك: «يمكن التعبير عن الأمر بهذه الطريقة».

أقول للخادمتَيْن: «لقد مات. مات تمامًا».

ينفتح فم سونيثا دهشة. وتتسع عينا سنشاين.

أسألهما: «ألم تسمعا بهذا؟».

«لقد نقص عددنا خادمتَيْن، يا مولي. وذلك لأنك مكلَّفَة أنتِ وليلي بخدمة صالة الشاي. الحقيقة أن تنظيف هذه الغرفة كان من نصيب ليلي. لكن شيريل طلبت منّا أن ننظفها. لم نترك هذا الطابق منذ الصباح»، تقول سنشاين موضحة سبب عدم سماعهما بما جرى، هذا الصباح.

تسألهما المحققة: «هل أستطيع إلقاء نظرة على سلة القمامة التي معكما؟».

تتبادل سنشاين وسونيتا نظرات لا أستطيع تفسيرها إلا أنهما تعتقدان بأن هذه المرأة العملاقة التي ترتدي ملابس سوداء من رأسها حتى قدميها امرأة معتوهة أو امرأة مختلة، أو امرأة هي مزيج من الاثنتين.

أقول: «إنها هنا كي تحقّق في الأمر. من فضلكما، أحضرا القمامة التي كانت في هذه الغرفة».

تومئ سونيتا برأسها وتبحث في العربة، ثم تخرج كيس قمامة صغيرًا أبيض اللون. تقدم الكيس إلى المحقّقة ستارك.

تسألها ستارك: «هل لديك زوج قفازات؟».

تتناول سنشاين من العربة زوج قفازات نظيفًا وتقدمه لها.

تدخل المحقّقة يديها في القفازين، ثم تفتح الكيس وتبحث فيه قليلًا، ثم تُخرج من قعره شيئًا. إنه ورقة مجعدة من الأوراق المستخدمة في فندق ريجنسي غراند. تمسّد الورقة، وتقرأ ما هو مكتوب عليها.

أنتِ ملاك.

تحياتي.

أكبر المعجبين بك

الكلمات مكتوبة بخط ممتاز، بقلم حبر. أعلم هذا من دقة رسم نهايات الحروف ومنحنياتها. يبدو لي الخط مألوفًا، مألوفًا جدًا، لكني لا أستطيع تحديده.

تسأل المحققة: «هل هذا خط السيد غريمثورب؟».

أجيبها: «لا، بكل تأكيد. أستطيع قول هذا على الفور».

تحدّق المحققة في وجهي ويتغضّن حاجباها. تسألني: «ما الذي يجعلك واثقة إلى هذا الحد؟».

يجري عقلي سريعًا. تتسارع ضربات قلبي. حواف المكان من حولي

تصير مظلمة. أقول متعجّلة: «أعلم لأن... لأنه وقّع كتبًا في وقت سابق من هذا اليوم. وقّع كتبًا لي ولكثيرين غيري. هذا الخط مختلف».

تقول المحققة ستارك: «هممم!».

سنشاين وسونيثا تتابعان حديثنا كأنهما تتابعان مباراة في التنس. لكنهما مدرّبتان على خدمة النزلاء، لا على التعليق على الكلام. لا تطرحان أي سؤال في شأن ما يجري أمامهما.

«أيتها السيدتان، هل تركت شارب أيّ شيء آخر في هذه الغرفة؟».

تقول سنشاين: «تركت هذه». تشير إلى اثنتي عشرة وردة في مزهرية زجاجية موضوعة فوق عربة خدمة الغرفة... «يا مولي، لقد احتفظنا بهذه الورود. بدا لنا أن رميها هدر غير مقبول. قرّرنا أن نسألك... إن كنا نستطيع الاحتفاظ بها».

على الفور، أجد نفسي متعاطفة مع زميلتيّ الخادمتين اللتين تواجهان هذه المعضلة. فمن ناحية أولى، إنّ «*دليل الخادمة وكتابها الإرشادي في خدمة الغرف والتنظيف، والمحافظة على حالة لا تشوبها شائبة*» (كتاب أنظمة رسمي، فكرت فيه وكتبته بنفسي) يقول، إن أية أشياء يتركها النزلاء في غرفهم ينبغي تسليمها إلى مكتب المفقودات في قسم الاستقبال. ومن ناحية ثانية، ثمة فقرة فرعية تقول، إن الأشياء التي يتركها النزلاء في غرفهم يمكن اعتبار أنهم تخلّوا عنها قصدًا ولم ينسوها، وبالتالي يمكن أن تأخذها الخادمات من أجل الاستخدام الشخصي.

أقول لهن: «يجوز لَكُنَّ أخذ الورود».

تسأل المحقّقة ستارك: «ماذا عن غرفة السيدة غريمثورب؟ هل وجدتما شيئًا متروكًا فيها؟».

تهز سونيثا رأسها نفيًا.

«ألم يكن في سلة القمامة أي شيء؟».

تقول سونيتا: «لا شيء في الغرفة أبدًا، لا حقيبة، ولا قمامة، ولا أي شيء. فقط، كان السرير غير مرتّب».

تقول المحقّقة ستارك مستغربة: «إذًا، رئيسها يموت فجأة، وهي تفرّ من المكان!». تطوي الورقة التي أخرجتها من كيس القمامة وتضعها في دفتر ملاحظاتها، ثم تتقدّم من عربة خدمة الغرف وتضع كيس القمامة الذي لا يزال في يدها. تخلع قفازيها وترميهما.

تقول وهي تبدأ السير عائدة في الممر: «هذا كل شيء».

ألحق بها وأسألها: «إلى أين أنت ذاهبة؟».

«إلى مركز الشرطة».

«هل يعني هذا أن تحقيقك قد انتهى؟».

تستدير فجأة فأكاد أصطدم بها. تقول: «لا تزال نهايته بعيدة. من الأفضل لك أن تأملي، من أجلك أنت ومن أجل رفيقتك، أن ينتهي الأمر بأن يكون كل شيء في صالة الشاي نظيفًا».

أقول: «سيكون نظيفًا. سيكون كل شيء نظيفًا عندما أنتهي من عملي».

«أنا لا أعني التنظيف، يا مولي. أعني تقرير فحص السموم. أعني الشاي الذي كان على تلك العربة».

«أدرك تمامًا ما تعنينه، أيتها المحقّقة. فهل تدركين أنتِ ما أعنيه؟».

تضع المحقّقة ستارك يديها على خصرها. تقول: «دعيني أطرح عليك هذا السؤال مباشرة. هل تعلمين إن كان لدى أية خادمة أو أي شخص آخر من العاملين في الفندق، سواء أكان هذا الشخص أنت أو أي شخص آخر، سببًا يجعله يكره السيد غريمثورب؟».

أتردّد لأنني لا أعلم كيف أجيب عن هذا السؤال. الحقيقة أنني أعلم أن هناك خادمة لديها سببًا يجعلها تكره السيد غريمثورب. لكني أعلم أيضًا أن تلك الخادمة قد ماتت.

الفصل السابع

في ما مضى

أتذكّر الأمر كله في ذهني، وأستطيع عيشه من جديد كأنه حدث يوم أمس. كان ذلك في الليل، بعد اليوم الأول الذي أمضيته في العمل إلى جانب جدتي في قصر غريمثورب. كنت قد عدت إلى شقتنا. وضعتني جدتي في فراشي وزودتني بالتنبيهات المعتادة في شأن بقّ الفراش والنوم جيدًا. أغمض عينيَّ وأغرق في أعمق وألذّ نوم في حياتي.

لأول مرة منذ زمن بعيد، لا تزورني كوابيس أرى فيها التعذيب الذي ينتظرني في باحة المدرسة في اليوم التالي. بدلًا من ذلك، تتألق أحلامي وتتلألأ... صور الفضيات وبيضات فابرجيه تتراقص في رأسي. أستيقظ صباح اليوم التالي نشيطة منتعشة، أستيقظ متحمسة كي أمضي يومًا جديدًا في قصر غريمثورب. أنطلق مع جدتي عند الساعة الثامنة إلا ربعًا. لن نذهب اليوم بسيارة تاكسي باهظة الأجرة. بل سنستخدم أقدامنا، ثم نصعد إلى باص المدينة، ثم إلى باص آخر. خلال طريقنا الطويلة، أحكي لجدتي عن الرؤيا العظيمة التي أتتني قبل أن أَخلُدَ للنوم في الليلة السابقة. «لقد اتخذت قراري. أعلم ما أريد أن أكون عندما أكبر».

تسألني جدتي: «ماذا تريدين؟».

«أريد أن أكون خادمة، مثلكِ تمامًا».

تقول جدتي: «أوه! لا أنصحكِ بهذا. إن في هذا العمل مخاطر خفية كثيرة. أظن أنك تستطيعين أن تضعي لنفسك هدفًا أعلى من ذلك لأن لديك عقلًا قويًا».

أقول: «ماذا تعنين بقولك إن هدفي ينبغي أن يكون أكبر؟ أريد أن أكون خادمة».

تتنهد جدتي وتربّت على يدي. «حسنًا جدًا. تستطيعين الآن أن تكوني خادمة متمرّنة تحت إشرافي في القصر. ما رأيك في هذا؟».

أجيبها: «إنه الجنة».

بعد ساعة من ذلك، نصل إلى بوابة القصر. تضغط جدتي على المفتاح المخفي وتعلن عن وصولنا. يفتح لنا الحارس الخفي في برج المراقبة بوابة الجنة. نسير في الممر المبلّط بالحجارة ومن حولنا تلك الورود العطرة. وعند الباب، أرى وجهًا بشعًا لم أنتبه إليه في اليوم السابق يحدّق فينا من فوق الباب.

أسأل: «جدتي، هل هذا هو السيد غريمثورب؟».

تطلق جدتي ضحكة صغيرة وتقول: «لا. إنه تمثال حجري... لكني أوافقك على أنه يشبهه إلى حدٍ غريب».

أصعد الدرجات المفضية إلى الباب وأمسك بالدقاقة الثقيلة وأدق الباب ثلاث مرات. يدور مقبض الباب، ثم تظهر السيدة غريمثورب مرتدية بلوزة بلون بيج، وتنورة رمادية، ووجهها المكشّر.

أقول لها: «صباح الخير، يا سيدة غريمثورب! أنا جاهزة للتلميع والتنظيف». أقول هذا معتزة بأن جدتي عينتني خادمة متمرنة تحت إشرافها.

لا تجيبني السيدة غريمثورب بشيء، لكنها تتنحّى جانبًا كي تسمح لنا بالدخول. تعقد ذراعيها على صدرها وتنظر إلينا عندما نقف في ردهة المدخل. تُخرج جدتي من الخزانة قطعة قماش وتأمرني بخلع حذائي. تدعك حذاءَينا دعكًا شديدًا، ثم تضعهما في خزانة منفصلة عن الخزانة الأخرى التي تضم الأحذية الثمينة.

تنشق السيدة غريمثورب بأنفها، ثم تتقدمنا في الممر الرئيسي مرورًا

باللوحات الفنية إلى أن نصير في قلب البيت. نبلغ المطبخ الرائع الذي تغمره أشعة الشمس، المطبخ الفائح برائحة الليمون وهواء الربيع المنعش.

تعلن السيدة غريمثورب: «لديَّ اليوم تسوّق وأعمال أخرى في المدينة. سيأخذنا البواب إلى المدينة بالسيارة. ستذهبين معي، يا فلورا، كي تحملي الأكياس. وستبقى الفتاة هنا كي تعمل».

تقول جدتي: «سيدتي، لا أستطيع أن أترك مولي، من سيهتم بأمرها؟».

«أنا واثقة من أنها تعرف كيف تهتم بنفسها. ثم إن السيد غريمثورب في مكتبه في الطابق العلوي، وجنكينز موجود في الحديقة».

أنظر عبر النافذة الممتدة من الأرض إلى السقف فأرى رجلًا أحمر الوجه له عينان جاحظتان، وظهر ليس فيه من الاستقامة ما يتجاوز استقامة علامة الاستفهام. ينظر الرجل إلينا وهو يقلّم الشجيرات بمقص كبير حاد.

تنظر السيدة غريمثورب إلى ساعتها ثم تقول: «هيا، هيا، يا فلورا! خذي الفتاة إلى خزانة الفضيات ريثما أجمع حوائجي».

ثم تذهب في الممر مطقطقة بحذائها وتختفي عن أنظارنا.

لحظة ذهابها، أحس يديّ جدتي على كتفيَّ الصغيرتين.

«مولي، لا أحب أن أتركك وحدك هنا».

«لا مشكلة عندي، سأكون في أحسن حال».

«هل هذا صحيح؟ أحيانًا، لا أعرف ما ينبغي فعله». تقول جدتي هذا وتتغضّن عيناها بطريقة تجعل معدتي تنقبض وتؤلمني. يحدث هذا أحيانًا بين جدّتي وبيني. أحسّ بما تحسّه، وتنتقل مشاعرها إليّ عبر جلدي، فتتخلل كياني كله. أسجّل في عقلي ملاحظة تقول إنّ عليّ أن أبحث عن تفسير هذا الأمر في كتاب التشريح في المكتبة. صحيح أن أغنية الهيكل العظمي التي أحفظها لا تقول شيئًا عنه، لكن، لا بد من وجود تفسير لهذه الصلة بين عيني جدتي ومعدتي.

أقول لها: «عندما يراودنا الشك، ننظف كل شيء». هذه عبارة من أغنية نردّدها معًا مثلما نردّد أغنيات كثيرة أخرى عندما نتصدى لمهمات التنظيف في البيت.

تحضنني جدّتي وتشدّني إليها، ثم تبعدني عنها قليلًا. «إذا وجدت نفسك في حاجة إلى أي شيء أثناء غيابي، فما عليك إلا أن تذهبي إلى البستاني جنكينز، هل فهمت؟ أعرف أن شكله مخيف قليلًا، لكنه شخص في غاية اللطف. سأطلب منه أن يهتم بأمرك. حاذري أن تزعجي السيد غريمثورب في الطابق العلوي، ولا لأي سبب من الأسباب. هل تفهمين؟».

قبل أن أفلح في قول شيء، أرى امرأة تسير في الممر متجهة صوب باب القصر الجانبي. منديل أزرق معقود على رأسها، وفي يديها قفازان من لونه. تلوّح لنا بيدها عبر النافذة وتومئ برأسها لجنكينز قبل أن تتابع سيرها صوب الباب.

أسأل: «جدتي، من هذه المرأة؟».

تجيب جدتي: «أوه! هذه هي سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية. تحظر عليها السيدة غريمثورب الاختلاط معنا... تقول إن هذا من أجل المحافظة على خصوصية عمل السيد غريمثورب. فلنذهب إلى خزانة الفضيات!».

أسير خلف جدتي إلى الغرفة التي أمضيت الليل كله أحلم بها. أجدها مثلما تركتُها تمامًا، أجدها تغصّ بأدوات طعام متنوعة في حاجة إلى تنظيف. وعلى الطاولة الكبيرة، أجد القطع التي نظفتها يوم أمس. قطع تلمع كأنها نجوم متألقة.

تبحث جدتي في الخزانة، وتخرج منها زوجًا من قفازات مطاطية، وإبريقًا كبيرًا، وحوضًا له فوهة واسعة. تلتفت إليّ وتضع يديها على خصرها. «لا أستطيع تركك تلمعين هذه الفضيات كلها باستخدام يديك وحدهما. سوف تتراخى ذراعاك بعد فترة من العمل».

استهلكَ الجهد الذي بذلته في اليوم السابق قوة ذراعيّ. أحسّهما اليوم متيبستين قليلًا. لكنني لا أظن، حتى الآن، أنني معرَّضة لخطر سقوطهما وانفكاكهما عني.

تعطيني جدتي القفازين. وبكل حرص، تحمل الإبريق وتصب في الحوض سائلًا.

«هذه مادة تلميع الفضيات، يا مولي. إن فيها كمية بسيطة من مادة تؤذي الجلد. في ما مضى، عندما كنت خادمة متمرنة، كنا نمزج هذا المحلول بأنفسنا. وذات مرة، ضاعفت عاملة كانت معي كمية هذه المادة أربع مرات وتركت الحوض عند مدخل البيت الخلفي. عاد السيد من الصيد، وكانت يداه متّسختين. رأى الحوض، فلم يتأخر عن وضع أصابعه فيه. لو لم أسارع إلى صب الماء على يديه، لأكلت المادة الحمضية لحمه حتى العظم».

أقول لها: «يا لها من حادثة مخيفة».

«مخيفة... نعم. لكن هل كانت حادثة؟ لم أكن واثقة من ذلك».

أسألها: «ماذا تعنين بهذا؟».

تقول جدتي: «إنه القدر، يا مولي. يعمل القدر بطرق غامضة. لهذا السبب، من المهم كثيرًا أن نعامل الآخرين باحترام طيلة الوقت». تقول هذا وتناولني زوج القفازات. أُدخل يديَّ في القفازين.

«محلول التلميع الحديث هذا مختلف عن المواد القاسية التي كنا نستخدمها منذ سنين. إنه لطيف جدًا. لكن، يظل ضروريًا أن ترتدي قفازات مطاطية عندما تستخدمينه».

تتناول جدتي شمعدانًا فضيًا متسخًا وتغمسه في المحلول، ثم تمسحه بقطعة قماش. بعد أن تمسحه عدة مرات، يصير الشمعدان الفضي لامعًا من جديد.

أقول لها: «هذا سحر!». أصفق بيديَّ اللتين صارتا في القفازين.

نسمع من مكان بعيد في البيت: «فلورا! اشتغلي! اشتغلي!».

تخلع جدتي القفازين من يديها وتضعهما إلى جانب الحوض. تضعهما بأناقة. تطبع على جبهتي قبلة. تقول لي: «سوف أعود قبل أن تنتهي من تهجئة كلمة أعاجيب». وتخرج من الغرفة مسرعة.

أسمع السيدة غريمثورب تعطي جدتي أوامرها عند المدخل. ثم أسمع صوت إغلاق الباب فأعلم أنهما قد ذهبتا.

هكذا هو الأمر... أقولها في سرّي. أنا الآن وحدي في هذا القصر. جدتي ليست هنا. بدلًا من أن يخيفني هذا، أجد أنه يملأني اعتزازًا بمسؤوليتي الجديدة. أهجّئ كلمة «أعاجيب» خمس مرات، ثم أتوصّل إلى استنتاج أن معنى ما قالته جدتي كان مجازيًا (أي: غير حقيقي)، لا معنى حرفيًا (أي: دقيق، محدّد).

أسمع في الصمت أصداء صوت تتردد في القصر الخالي.

رات - رات - تات - تات - تات.

إنه صوت آلة كاتبة. أصوات كثيرة تزعج أذنيَّ، لكن هذا الصوت لا يزعجني لأنه صوت إيقاعي متكرّر، ويمكن التنبوء به. لا بدّ أنها تلك المرأة ذات الملابس الزرقاء، سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية، تضرب على الآلة الكاتبة في مكتب في مكان بعيد داخل القصر.

تجول عيناي في خزانة الفضيات، فيتملكني إحساس بالنشوة. أنا الآن مسؤولة عن نفسي. أنا في قصر! أنا فتاة كبيرة عُهِد إليها بمسؤوليات الكبار. أنظر في الغرفة من جديد، ثم أرتدي المريلة وأضع يديّ في القفازين المطاطيين الجديدين.

نغمسها في المحلول، ثم ننظفها ونلمعها.

أبدأ العمل، وألمّع أدوات الطعام قطعة بعد قطعة. أضع كل قطعة لمّعتها على الطاولة. أصفّ القطع كلها متوازية تمامًا. أثناء عملي،

أتخيل نفسي في وليمة ملَكية تقيمها جدتي المعروفة أيضًا باسم «دوقة المريلة». وأنا اسمي «الخادمة مولي من فابرجيه».

تضم قائمة المدعوّين صفوة الصفوة. روبن هود جالس عند رأس الطاولة، يرتدي بدلة مخملية خضراء. وإلى جانبه كولومبو في ترانشكوت جديد؛ شعره مُسرّح بأناقة - تمامًا مثلما تحب جدتي أن يكون. يجلس قبالتهما بادجر ومستر تود، وبعدهما السِير ديفيد آتنبورو في بدلة سفاري، وهمبتي دمبتي المتمايل مرتديًا بنطلونًا قصيرًا له حمالتان، وبواب مدرستي السير وولتر برومز، الشخص الوحيد هناك الذي يعجبني.

لا تزال لديّ بضعة كراسٍ خالية. لذا، أُجلس عليها فزاعة الطيور والأسد والرجل القصديري من *«ساحر أوز»*. وأيضًا، أضيف القط تشيسهاير الجاثم مبتسمًا على كرسي عند آخر الطاولة. لا تزال لديّ كرسي واحد. إنها من أجلي. أنا أرتدي ثوبًا طويلًا جميلًا أبيض اللون له كُمّان من الدانتيلا وفوقه معطف طويل يبلغ الكاحلين.

أدعوهم إلى شرب نخب بأن أنقر على فنجاني البورسلان بشوكة فضية لامعة. صوت الرنين الحاد بهيج في أذني. أقول: «في صحة جدّتي! وفي صحة الأصدقاء من قصصي المفضّلة. أشكركم على إخلاصكم وصدقكم من الصفحة الأولى حتى الصفحة الأخيرة». نشرب الشاي ونأكل خبزًا بالزبيب مع كريمة مخفوقة. لدينا نحلة تهجئة ماهرة: أهجئ كلمة «أعاجيب» تهجئة صحيحة من المحاولة الأولى. نحن «فرسان الفضيات الحقيقيون» من «الطاولة المستطيلة، طاولة الأرواح المتآخية»... الأصدقاء الوحيدون الذين سيكونون لي في حياتي كلها.

لسعة صغيرة توقظني من حلمي. قطرة واحدة من محلول تلميع الفضيات سقطت على ذراعي، فوق القفاز مباشرة. أذهب إلى المغسلة مسرعة وأغسل البقعة الحارقة بماء بارد. تزول الوخزة الحارقة، لكني أعود إلى حفلة الشاي فأكتشف أن أصدقائي قد اختفوا.

أقول لهم: «انتظروا! عودوا!»، لكن مخيلتي تخذلني. أنظر إلى مريلتي القديمة... لا فستان مزينًا، ولا دانتيلا. لا أرى شيئًا غير الحقيقة العارية.

أنتبه في تلك اللحظة. أدرك أنني في حاجة ملحّة للذهاب إلى الحمام. أخلع القفازين من يديَّ، وأخرج من خزانة الفضيات. يوم أمس، دلّتني جدتي على الحمام الذي أستطيع استخدامه. إنه ليس الحمام الخاص بالزائرين القريب من المدخل، الحمام الذي تدعوه جدتي «التواليت الذهبي»، وليس الحمام القريب من المطبخ، ذلك الحمام الذي رأيت فيه حوض استحمام ضخمًا. وبالتأكيد، هو ليس الحمام الذي في الطابق العلوي. عليّ أن أستخدم الحمام الخاص بالخدم الذي في الأسفل، في القبو، حيث الجدران الحجرية الرطبة التي يكمن في كل ثقب وفي كل فجوة فيها عنكبوت كثيف الشعر له عيون مركّبة مخيفة.

لقد قالت جدتي يوم أمس عندما شدت الخيط المتدلي من المصباح الكهربائي العاري وقادتني فنزلنا درجات السلم الزلقة ذات الصرير: «فيه ما هو ضروري فقط».

أنا الآن أقف أمام باب القبو القريب جدًا من المطبخ أحاول استجماع شجاعتي كي أفتح الباب وأنزل، لكن ساقيّ كأنهما ملتصقتان بالأرض. لا أستطيع الحركة. أسمع صوت نقرات على النافذة.

تكاد المفاجأة تخرجني من جلدي. ألتفت فأرى عيني جنكينز الجاحظتين تحدقان بي عبر زجاج نافذة المطبخ. يهز رأسه بضع مرات ويقول كلامًا لا أفهمه.

أقول له: «لا أستطيع سماعك. لا أفهم ما تقول».

ينتقل جنكينز من النافذة إلى الباب الزجاجي. يفتح الباب، لكنه لا يخطو إلى الداخل، بل يمد رأسه ويهمس لي: «لست مضطرة للنزول إلى هناك».

أقول: «بل أنا مضطرة إلى ذلك. عليّ أن أستخدم الحمام». تذكّرت ما قالته لي جدتي من أن جنكينز يبدو مخيفًا، لا أكثر. أرى عليه خدوشًا كثيرة أعتقد أنها ناجمة عن أشواك الورد. وأراه يحمل مجموعة مخيفة من أدوات حادة معلقة من حزام جلدي عند خصره. رؤية مقصه الحاد تجعل قشعريرة تسري في ظهري. مع ذلك، يظل أفضل من العناكب. ثم إنه الآن أملي الوحيد. أقول له: «من فضلك، يا سيدي، ألا تنزل معي إلى القبو؟».

يقول: «ليتني أستطيع ذلك، يا صغيرتي! لكن دخول البيت محظور عليّ. عامل متسخ... وتلك الأمور كلها. إذا ضبطتني «المدام» داخل البيت، فسوف تسلخ جلدي ثم تطردني إلى الشارع. ما عليك إلا أن تستخدمي مرحاضًا آخر. إذا حافظت على النظافة، فلن تعلم السيدة غريمثورب بالأمر أبدًا». يقول هذا ويغمز لي بعينه.

يغلق جنكينز الباب بهدوء، ثم يتناول مقص النباتات من حزامه ويبدأ مهاجمة الجدار النباتي القريب من النافذة.

أستنشق بضعة أنفاس عميقة كي أهدّئ نفسي. كانت جدتي واضحة في قولها إن الحمامات الموجودة في هذا الطابق لا يجوز لي استخدامها. وأنا لا أريد أبدًا أن أُغضب السيدة غريمثورب بأن أخرق القواعد فأجعلها تسلخ جلدي، فقد بدا لي هذا شيئًا مخيفًا... لم يعجبني أبدًا.

أذهب إلى أول البيت وأقف تحت الثريا الحديثة التي يتدلى منها الكريستال كأنه قطع من الجليد. إذا استخدمت حمامًا في الطابق العلوي، فقد يُعزى الأثر إلى السيد غريمثورب، أو إلى سكرتيرته. أصعد السلم على رؤوس أصابعي. تصرّ الدرجات مع كل خطوة من خطواتي. ينعطف السلم عند فسحة صغيرة لها نافذة، ثم يتابع صعوده إلى الطابق الثاني. أصل إلى أعلاه، فأرى ممرًا طويلًا عميقًا جدرانه مغلّفة بورق جدران عليها رسوم قاتمة كان مقصودًا منها أن تبدو شبيهة بالبروكار، لكني أراها أشبه بمئات من عيون تراقب كل حركة من حركاتي.

أسير في الممر فتضيء المصابيح التي في السقف كأنما بفعل سحر. أمرّ بغرفة نوم فخمة وبغرفة نوم فخمة أخرى وأطل برأسي فألقي نظرة سريعة في كل منهما - سرير ذو أربعة أعمدة في الغرفة الأولى، وسرير نحاسي في الغرفة الثانية يبدو كأنه مأخوذ من قصص الساحرات. أخيرًا، أهتدي إلى الحمام. أغلق الباب من خلفي، ثم أقفله. بعد قضاء حاجتي أغسل يدي تحت الماء المندفع من صنبور ذهبي وأجففهما بمنشفة صغيرة شديدة النعومة كأنها غيمة. أفتح الباب وأخرج. صرت الآن مرتاحة.

أعلم أن عليّ أن أتسلل نازلة السلم وأن أعود إلى العمل على الفضيات. لكنني أنظر في الممر فأرى بابًا مفتوحًا من خلفه غرفة كبيرة تبهر أنفاسي. إنها غرفة المكتبة التي وصفتها لي جدتي فيما مضى، لكن ما من شيء كان قادرًا على جعلي متأهبة لرؤيتها في الحياة الحقيقية. فحتى من بعيد، أستطيع رؤية رفوف تغصّ بالكتب ممتدة من الأرض إلى السقف. أرى الكتب الكبيرة ذات الأغلفة الجلدية الحمراء والزرقاء والذهبية والخضراء.

تمر بي لحظات يكون فيها لقدميَّ عقل خاص بهما. وهذه اللحظة واحدة منها. تسير قدماي على رؤوس أصابعهما، تسيران في الممر. المصابيح في السقف فوق رأسي تشدني إلى التقدّم. قبل أن أدرك الأمر، أجد نفسي واقفة بعتبة المكتبة التي تثير في نفسي الخشوع. شيزلونغ مخملي في الزاوية عند النافذة. وإلى جانب الشيزلونغ مصباح للقراءة تحمل ظلّته حورية من نحاس تجمدت وسط قفزة رشيقة. سلم طويل له عجلات في أسفله مستند إلى الجدار البعيد. هذا السلم قادر على الوصول إلى أعلى الكتب في الغرفة كلها.

أخطو مسحورة فأجتاز العتبة. سمعت ببعض هذه الكتب، ورأيت بعضها في المكتبة العامة. هناك كتب جديدة، من بينها كتب تحمل

كعوبها اسم ج. د. غريمثورب – *سر الرجل الميت*، *سمّ وعقاب*، *النزيل الغامض*. أمد يدي وأمرّ بإصبعي على كتب أغلفتها جلدية بلون الجواهر – *الكونت دي مونت كريستو*، *قصص خيالية لغريم*، *دورة مسمار الربط*. تنتابني رغبة شديدة في تناول كتاب والتكوّر على الشيزلونغ ونسيان نفسي بين الصفحات.

رات – تات – تات – تات.

صوت الآلة الكاتبة يأتي من جديد، لكنه الآن أكثر قربًا. في تلك اللحظة، أرى حزمة نور ضيقة آتية من شق في أسفل الجدار القريب الممتلئ كتبًا. أقترب من تلك النقطة.

أسمع صوت خطوات. شخص يسير إلى الجانب الآخر من الجدار. «مُخيِّب! قمامة... كله قمامة! كل كلمة عليها دُمّلة!». إنه صوت رجل، صوت عميق، أجش، مظلم. تصير الخطوات أكثر ثقلًا، ثم يصطدم شيء بالأرض. أحس باهتزاز تحت قدمَيْ.

يسقط ظل على حزمة النور المنسكبة على ألواح الأرضية. من غير إرادة مني، أقترب بضع خطوات، لكن الأرضية تصر تحت قدميَّ.

أسمع صوتًا كالرعد: «من هناك؟».

لا يمكن أن تخطئ أذناي الغضتان ذلك الصوت – صوت الغول الغاضب المتعطّش إلى الدم.

يصيح الغول مطالبًا: «أريد إجابة!».

أبدأ بالارتعاد لأنني أراه بعين عقلي، أراه محدودبًا غزير الشعر، وأرى عينيه الجاحظتين المحتقنتين دمًا. سوف يرفعني من أربطة مريلتي ويرميني مباشرة في فمه المفترس الواسع.

لا أتحرّك ولا أجري هاربة ولا أحاول حتى أن أستطلع الأمر لأن جدّتي تقول دائمًا إن «الفضول يقتل القطة». وفي هذه الحالة، لا أريد أن أكون تلك القطة.

يعمّ الهدوء الغرفة من جديد فأحس انفراجًا كبيرًا. لكن قدميّ تعصيانني من جديد. وعلى غير انتظار، أجد نفسي أتقدم وأجثو على الأرض. أنا غير قادرة على الامتناع عن فعل ذلك. أستلقي على الأرض كي أستطيع النظر، عبر ذلك الشق في الجدار، إلى الغرفة المجاورة. أنا مستلقية على جانبي كي تصير عيني على مستوى الشق. أقترب من الشق، وأقترب أكثر، ثم أكثر إلى أن أرى عينًا... عين الغول الزرقاء الفولاذية... تنظر إليّ من الجانب الآخر من الجدار.

أصرخ: «آآآآآههههه!» ويجري الأدرينالين سريعًا في جسدي كله. أقف على قدميّ وأجري خارجة من المكتبة ثم إلى الممر الطويل. في تلك اللحظة، أسمع باب القصر ينفتح، وأسمع صوت السيدة غريمثورب تأمر جدتي بإدخال الأكياس كلها.

أنزل درجات السلم الرئيسي مسرعة. أقفز كل درجتين معًا إلى أن أقف عند المدخل لاهثة الأنفاس محاولة الظهور بمظهر عادي بكل الطرق الممكنة.

تقول جدتي وهي تضع على الأرض أكياس التسوق التي في يديها: «مولي! تبدين كأنك قد رأيتك شبحًا». أتمسّك بالدرابزين في محاولة عاجزة لأن أبدو في مظهر عادي. أجيبها: «ليس شبحًا... ليس شبحًا بالضبط».

الفصل الثامن

أرى في حلمي أنني أتجوّل في حديقة مسحورة على مقربة من آخر الممر أمام كوخنا الذي يشبه أكواخ الحكايات.

يسألني خروف غريب المظهر عمّا أفعله هناك. أجيبه: «أجمع دواء من أجل جدّتي».

يقول الخروف قبل أن يجري في الممر مسرعًا: «من الأفضل أن تسرعي قبل فوات الأوان».

عندما أعود إلى كوخنا، أجد جدتي مستلقية في فراشها، أجدها قد شدّت الأغطية عليها حتى بلغت ذقنها. أقول لها، «أتيت لك بالدواء، سيكون كل شيء على ما يرام».

تجيبني جدتي: «تأخرت كثيرًا». أنتبه في تلك اللحظة إلى أن مَن في الفراش ليس جدتي بل السيد غريمثورب الغول. إنه متدثّر بجلد خروف وعلى رأسه قبعة بيضاء. أصرخ: «لا! أنت ميت! اذهب عني ولا تعد أبدًا».

يبدأ بالضحك. ضحكة عميقة مجنونة. ولحظة يمد مخالبه كي يمسك بي، أستيقظ على صوت رنين هاتفي الموضوع على الطاولة إلى جانب السرير.

أنا لست طفلة في كابوس، بل امرأة ناضجة نائمة في سريرها.

أضغط على مفتاح الهاتف وأرد على المكالمة. أقول لاهثة الأنفاس: «ألو!».

يجيبني خوان مانويل: «مولي! يبدو لي من صوتك أنك كنت تركضين».

أقول: «كنت نائمة». أحس نفسي متعرّقة. أحس تشوّشًا.

«آسف لأنني أيقظتك، يا حبيبتي. أردت أن أتمنّى لك صباحًا طيبًا وأن أذكّرك بأن تنهضي وتنظّفي وتلمّعي».

إنه يقلد جدّتي. لقد حكيت له كيف كانت تقول لي هذا كل صباح وهي تفتح ستائر غرفتي عندما كنت طفلة صغيرة. ينطلق صوتها متألّقًا بهيجًا كأنه أغنية عصفور: «انهضي، ونظفي، ولمّعي!». ماتت جدتي قبل أن يستطيع خوان مانويل رؤيتها. لكن أجزاء منها لا تزال حية فيه بطريقة لا أفهمها تمامًا... تمامًا مثلما هما حَيّان فيّ دائمًا. تضفي هذه الحقيقة السلوى على أيامي.

«كيف كانت مناسبة غريمثورب، يا مولي؟ هل ذبحتِها ذبحًا؟».

«هل ماذا؟». أنتصب جالسة في فراشي. تنقضي لحظة قبل أن أدرك أنه لا يشير بهذا إلى السيد غريمثورب، بل يستخدم واحدًا من التعابير الجديدة التي يحبها كثيرًا. أقول: «للعلم فقط... أنا لم أذبح أحدًا».

يضحك خوان استجابة لذلك. يسألني: «هل كانت المناسبة يوم أمس ناجحة؟».

لا أريد الهروب من الحقيقة، لكني أعلم أنني إن أخبرته بموت كاتب كبير في صالة الشاي في فندق ريجنسي غراند، فسوف يصيبه قلق شديد. أعرفه جيدًا، وأعرف أنه سيعود سريعًا على أول طائرة. لن يكون هذا أمرًا منصفًا. لا يجوز لي توقّع أن يكون خوان موجودًا كي يساعدني كلما حدث شيء غير مستحَب. فضلًا عن هذا، أنا قادرة تمامًا على التعامل بمفردي مع هذا الأمر. ففي نهاية المطاف، أنا كبيرة الخادمات.

يسألني خوان مانويل: «حبيبتي، هل تسمعينني؟ هل كل شيء على ما يرام؟».

أسأله: «من قال إن هناك ما هو على غير ما يرام؟ هل اتصل بك أحد من الفندق؟».

يجيب: «لا. لا يحق لهم أن يتصلوا بي. لقد قال السيد سنو للعاملين في المطبخ إنه ينتظر منهم إبداء قدرة على تدبر أمورهم بأنفسهم من غير استشارتي كلما وقعوا في مشكلة».

أقول: «هذا صحيح تمامًا. نحن جميعًا نبالغ كثيرًا في الاعتماد عليك. لقد حان وقت حصولك على استراحة حقيقية، على استراحة جيدة».

«لكنكِ مشتاقة إليَّ، أليس كذلك يا حبيبتي؟».

أقول: «بالطبع، اشتقت إليك. ليس لديك فكرة كم أنا مشتاقة إليك». على غير انتظار، يعلو الحزن حتى حلقي، فأبتلعه سريعًا قبل أن يظهر من فمي... «من الأفضل أن أذهب الآن. لدي أعمال تنظيف كثيرة في الفندق».

«أنا واثق من أنك قادرة على إنجازها كلها. أنت قادرة على ذلك دائمًا».

نتبادل كلمات عاطفية، ثم أنهي المكالمة. أقفز من فراشي وقد نسيت نومي وأحلامي. أتحرك في الشقة سريعًا كي أصير مستعدة لبدء نهاري. لا أعرف أبدًا ما سيأتيني به هذا اليوم، لكن جدتي كانت تقول، *استعدي للاحتمالات! لا تعلمين أبدًا ما يمكن أن يحدث.*

آمل أن نتمكّن سريعًا من اكتشاف أن موت السيد غريمثورب الغريب كان ناجمًا عن أسباب طبيعية، وذلك كي نعود إلى ما نتقن فعله في فندق ريجنسي غراند: تزويد نزلائنا بأفضل مستوى من خدمة الزبائن في فندق فخم يستجيب لمتطلبات العصر الحديث.

بعد ساعة من ذلك، كنت أسير بخطوات سريعة تحت ضياء الشمس متوجّهة صوب سلم الفندق ذي اللون القرمزي. السيد بريستون يقف بمعطفه وقبعته على سجادة فسحة السلم يساعد بعض السائحين ويدلهم على وجهتهم. أراه يكلم رجلًا وامرأة ويشير إلى الشارع التالي، فينزلان درجات السلم مسرعَيْن صوب وجهتهما وكأن كل شيء في أحسن

حال، وأن فندقنا لم يشهد يوم أمس اضطرابًا شديدًا كأن هزة أرضية أصابته. أنظر إلى مدخل الفندق فترتعش ركبتاي.

يصيح بي السيد بريستون لحظة يراني: «مولي!».

أصعد السلم إليه.

«يا فتاتي العزيزة! أمضيت هذا الصباح كلّه أفكر فيك. لا بد أنك عشت صدمة كبيرة يوم أمس. هل أنت بخير الآن؟».

«يا سيد بريستون! لست أنا من مات. ينتج عن هذا أنني بخير». أجيبه بهذه الكلمات مع أنني لا أصدقها تمامًا.

يقول السيد بريستون: «فلنشكر السماء على هذا! أنا مسرور لأنك استطعت تجاوز محنة يوم أمس من غير أضرار كبيرة. لا أستطيع قول شيء غير التمني بأن يرقد ذلك الكاتب بسلام».

أجيب: «فليرقد بسلام!». لكن هذا لا يعبّر عن حزن حقيقي.

يجيبني السيد بريستون: «أحتفظُ بمشاعري الحقيقية من أجل أولئك الذين يستحقونها. ذلك الرجل لم يكن واحدًا ممن يستحقونها».

أمر غريب يشبه الدغدغة أحسه في أعماق بطني. كانت جدتي تعرف هذا الإحساس. كانت تدعوه «حدسها».

أقول: «سيد بريستون، هل كنت على معرفة بالسيد غريمثورب؟».

يجيب: «لست واثقًا من أن أحدًا كان يعرفه فعلًا، ولا حتى هو نفسه».

«هل تظن فعلًا أن من الممكن أن يكون أحدٌ في هذا الفندق قد قتله؟».

«رجل مثله!؟... كل شيء ممكن».

عند ذلك، يصل نزلاء جدد بسيارة تاكسي. يقول السيد بريستون: «مولي، كوني حذرة اليوم! ثمة أمور تجري هنا لا أفهمها تمامًا. وإلى أن أستطيع فهمها، من الأفضل أن تكوني يقظة وأن تظلي منتبهة».

غريب أن يقول لي هذا في آخر حديثنا الممتلئ بأمور غريبة؛ لكن

السيد بريستون لم يكن على طبيعته في الآونة الأخيرة. يظل مصرًّا على أن نتغدّى معًا؛ وهذا ما يجعلني أتساءل إن كانت أموره على ما يرام. وأيضًا، أراه قد صار أشد تعبًا وأكثر تشوّشًا مما هو معتاد. يطلب المساعدة من عمال الفندق؛ وقد ازداد تواتر استراحاته هذه الأيام.

أقول: «لا تقلق عليّ، يا سيد بريستون! سأكون بخير. إن كان هناك من يجب أن تقلق عليه، فاقلق على نفسك».

يومئ برأسه ويبدأ نزول درجات السلم. أسير في الاتجاه المعاكس وأعبر الباب الدوار إلى ردهة فندق ريجنسي غراند الرائعة. إنها تزخر بالحركة مع أن الوقت لم يبلغ الساعة التاسعة بعد. الزائرون يجلسون متلاصقين على كل كنبة من كنبات الردهة الفاخرة. الهواء يفوح بروائح الصباح المتداخلة كلها معًا، روائح القهوة وشذى الليمون من مواد التنظيف والتلميع.

صف من نزلاء جدد أمام مكتب الاستقبال، وعمال الخدمة في الردهة آتون وذاهبون ينقلون الحقائب الكثيرة المنتشرة في أرجاء الردهة. لقد رأيت هذا من قبل، رأيته بالطبع في اليوم الذي أعقب موت السيد بلاك في فندقنا. امتلأت غرف الفندق كلها ذلك الصباح. أتى كل فضولي في المدينة وحجز لدينا غرفة كي يكون جزءًا من «المشهد». وكانوا كلهم يطرحون السؤال نفسه: هل مات السيد بلاك نتيجة أسباب طبيعية أم إن أمرًا أكثر شؤمًا حدث في فندق ريجنسي غراند؟ الأمر لا يختلف هذه المرة. فيوم أمس، سقط شخص له شهرة عالمية ميتًا على أرض صالة الشاي. وها هي ردهة الاستقبال اليوم تنضح بطاقةٍ تآمرية مع تبادل النزلاء والعاملين نتفًا من شائعات مثيرة عمّن قد يعلم شيئًا وعما قد يكونه ذلك الشيء. جوٌّ يثير القلق! هذه الثرثرة كلها عمّن يُحتمل أن يكون مشكوكًا في أمرهم وعمن قد يكونون مجرمين ويتحركون بيننا.

أنعطف يمينًا متجاوزة ردهة الاستقبال وأسرع نازلة السلم إلى قسم

خدمة الغرف، حيث تنتظرني ملابس العمل النظيفة في كيس من النايلون معلّق من مقبض باب خزانتي... بداية جديدة. أرتدي ملابس العمل سريعًا. وبينما أكون منهمكة في تثبيت بطاقة «كبيرة الخادمات» فوق قلبي، ألاحظ في زاوية الغرفة ذات السقف الواطئ شيئًا يجعلني أقفز في مكاني.

أقول: «ليلي!». إنها تقف في ظلال خزانتها، تقف في سكون تام... «لقد أفزعتِني كثيرًا. يا فتاتي العزيزة، ماذا تفعلين هنا اليوم؟ لم أتوقّع حضورك، ليس بعد ما جرى يوم أمس. لماذا لم تتغيبي وتقولين إنك مريضة؟».

تهمس لي: «لأنني لست مريضة. وهناك أمر لا بد لي من...».

في تلك اللحظة، تدخل شيريل مجرجرة قدميها بتلك الطريقة القذرة التي تجعلني راغبة أن أقطع تلك القدمين.

تقول شيريل عندما ترى ليلي مختبئة في الزاوية: «ها أنت هنا، يا زهرتي الصغيرة! هل أنت مستعدة تمامًا؟ سوف تنظفين اليوم الطابق الثاني كلّه لأن مولي مطلوبة لأمر آخر».

أسأل شيريل: «ما هذا الذي تقولينه؟».

«أوه! ألم يخبرك السيد سنو؟ إنه في حاجة إليك في بار سوشال. تغيّبتْ اليوم عدة نادلات هناك. هذا ما يجعلني اليوم رئيستك، يا ليلي. هذه هي أوامر السيد سنو». تشير إلى البطاقة المثبتة على صدرها الكبير. «انظروا من عادت فصارت كبيرة الخادمات!».

يغلي غضب في داخلي. لست أدري إن كنت أريد تصحيح وضع تلك البطاقة المائلة على صدر شيريل أم أنهال بصفعة على وجهها.

أحاول طمأنة ليلي، «أنا واثقة من أن هذا سوء تفاهم. سوف أكلم السيد سنو في شأن هذا القرار المتسرع».

تدمدم شيريل: «لك أن تتعبي نفسك مثلما تشائين».

كانت جدتي تقول: لا معنى *لمجادلة الحمقى!* لذا، أنزعُ بطاقة «كبيرة الخادمات» وأضعها في خزانتي. «أتمنى لك يومًا جميلاً، يا ليلي!». أقول لها هذا قبل أن أخرج من غرفة تبديل الملابس من دون أية كلمة أخرى مع شيريل.

أصعد السلم مسرعة. أحس أنني أشد حرارة من إبريق يغلي.

أتجه إلى ردهة الفندق حيث أجد السيد سنو واقفًا عند مكتب الاستقبال مرتديًا صدارًا مخمليًا أسود اللون وربطة عنق أنيقة الزخارف. أنجيلا واقفة إلى جانبه وشعرها الأحمر المتوهّج ينطق بتوترها.

أذهب إليهما مباشرة. أسأل السيد سنو: «هل أنا كبيرة الخادمات في هذا الفندق أم إنني لست كبيرة الخادمات؟».

يتنهد السيد سنو، ثم يصحح وضع ربطة العنق. يقول لي: «هذا اليوم فقط، يا مولي! لدى أنجيلا ثلاث عاملات متغيبات. وبالتالي، نحن في مشكلة. نريد أن تساعدينا في المطعم. وبما أنك لن تكوني في خدمة الغرف اليوم، كان لا بد لي من تكليف إحداهن بأن تكون مسؤولة عن الخادمات».

أقول: «لماذا اخترت شيريل؟ لماذا لم تستشرني في شأن إدارة قسمي؟ هل انقلب العالم رأسًا على عقب؟ وماذا أصاب النادلات هنا؟ هل هنّ مريضات؟».

تجيب أنجيلا: «الظاهر أنهن خائفات. يبدو لي أنهن قلقات من أن يكون لدينا قاتل طليق في هذا الفندق».

يقول السيد سنو: «هذا سخف! أمر سخيف جدًا!».

تقول أنجيلا: «هل هو كذلك فعلًا؟ إن كنت قد تعلمتُ شيئًا من الإنترنت فهو أن أسوأ الأمور تحدث في أكثر الأماكن أمانًا».

تتجعد شفتا السيد سنو كأن في فمه قطعة ليمون.

تقول أنجيلا: «وأيضًا، ألا ترى أن من المستغرب قليلًا أن تكون

سكرتيرة غريمثورب الشخصية قد تركت الفندق عقب موت رئيسها مباشرة؟ أعني... يسرني أنها عائدة اليوم. لكن الأمر يبدو غريبًا على الرغم من ذلك».

يسألها السيد سنو: «كيف علمت أن الآنسة شارب عائدة اليوم؟».

تقول أنجيلا: «عجبًا! ألا ترى أن اسمها لا يزال مكتوبًا على صندوق الأمانات الذي خلفك؟».

يعدّل السيد سنو وضع نظارته. تصير أكثر استقرارًا على أنفه.

تقول أنجيلا: «بالمناسبة، تبدو اليوم شديد التأنق، يا سيد سنو. ألا ترين هذا، يا مولي؟».

أقول: «صحيح. هل لدينا حفل زفاف مهم في الفندق؟ أم لدينا مأدبة؟ سيد سنو، لماذا أنت متأنق هكذا؟».

من جديد، تتجول عينا السيد سنو في ردهة الفندق. لست أدري عمن يبحث، أو عن أي شيء يبحث.

أقول له: «سيد سنو!».

تسأل أنجيلا: «ما الأمر؟».

ينظر إليها. في نظرته قدر من القلق والترقّب. يجيبها: «بضعة أمور صغيرة. بضعة أمور بقيت بعد الاضطراب الذي عشناه يوم أمس». يستند بكفه على غطاء صندوق إلى جانبه.

تقول أنجيلا: «جميل! تعجبني الأمور الصغيرة». تمسك بغطاء الصندوق وتزيحه بحركة سريعة فتسقط يد السيد سنو إلى جانبه. «لدينا الكثير من الأمور الصغيرة، يا مولي!». تقول أنجيلا هذا وتنظر في الصندوق.

في داخل الصندوق نسخة قديمة من رواية السيد غريمثورب التي حقّقت مبيعات ضخمة. رواية *«الخادمة في القصر»*، التي يظهر على غلافها (خلافًا للنسخ التي كانت معروضة للبيع يوم أمس) عمل فني أصيل، باب

قصر عظيم وعين تنظر عبر ثقب الباب. وإلى جانب الكتاب، أرى قلم السيد غريمثورب. لقد استخدم هذا القلم في توقيع الكتب يوم أمس. في الصندوق أيضًا لصاقة سوداء عليها الأحرف الأولى من اسمه ومعها مغلف مختوم من مغلفات فندق ريجنسي غراند مكتوب عليه «سيرينا».

يقول السيد سنو: «أنا من وضع هذا المغلف الموجّه إلى سيرينا كي أشكرها على رعاية المناسبة».

أقول: «سيرينا!؟ أظنك تعني الآنسة شارب». أهمّ بأن أقول شيئًا عن البروتوكول المعتمد في مخاطبة النزلاء، لكن السيد سنو يقاطعني قبل أن أبدأ محاضرتي.

يقول: «اسمحا لي بأن أوضح أمرًا! سيرينا بريئة مثل حَمَل الربيع».

تجيبه أنجيلا: «ما من أحد في هذا الفندق بريء إلى هذا الحد. ولا حتى أنت، يا سيد سنو!». تمسك بالكتاب وتفتحه على صفحة حقوق الملكية الفكرية. تقول: «أمر عجيب! إنها الطبعة الأولى. لا بد أن تكون نسخة نادرة».

يضيف السيد سنو: «صحيح. إنها نادرة. كنا قد وضعناها في صندوق عرض من أجل الترويج للإعلان الذي سيدلي به السيد غريمثورب؛ ووضعنا معها في الصندوق بضعة تذكارات أخرى. لكن سيرينا طلبت استعادة كل شيء».

تقول أنجيلا: «حسنًا، حسنًا! اذكر الشيطان تجده أمامك».

في تلك اللحظة أرى الآنسة سيرينا شارب تدخل عبر باب فندق ريجنسي غراند الذهبي الدوار. أراها متألّقة، أثيرية، مع أن ثوبها -فستان مخملي أسود اللون ملتصق بجسدها- يوضح أنها في حداد.

تنظر الآنسة شارب في أرجاء الردهة فترى السيد سنو يلوّح لها بيده. تتجه إلينا. تقترب فلا أستطيع إلا أن ألاحظ إرهاقها -أم هو حزنها؟- واضحًا من خلال الدوائر الداكنة تحت عينيها الزرقاوين الغامضتين.

يقول السيد سنو: «عزيزتي سيرينا! كيف حالك؟».
تقول: «إن أردت الصدق، فأنا لا أزال مصدومة. لا أستطيع تصديق أنه قد رحل».
يجيبها السيد سنو: «هذا مفهوم تمامًا. لك مني أعمق التعازي. إذا وجدت نفسك في حاجة إلى مساندة نفسية في هذا الوقت العصيب، فأرجو أن تعلمي أنك تستطيعين الاتكال عليّ».
لا أصدق ما يحدث بعد ذلك. يضع السيد سنو يده على ذراع الآنسة شارب العارية. أهمّ بالقول إن هذا خرق لأنظمة الفندق التي تحدّد أسس السلوك الملائم بين العاملين والنزلاء... أسس وضعها السيد سنو بنفسه. لكن الآنسة شارب تُبعد ذراعها قبل أن أفلح في قول شيء.
تقول: «أود أن أطرح سؤالًا. هل لديك أي معلومات جديدة عن سبب موت السيد غريمثورب؟ هل كشفت الشرطة عن أي شيء؟».
صوتها مرتعش، غير واثق.
يقول السيد سنو، «يؤسفني أنهم لم يقولوا شيئًا. سوف يستغرق ظهور نتائج التشريح يومًا أو يومين. هكذا قيل لي».
أقول: «الحقيقة أن المحقّقة ستارك بحثت عنكِ يوم أمس، يا آنسة شارب. أرادت أن تعلم منك ما كان السيد غريمثورب يعتزم الإعلان عنه قبل موته».
تجيبني: «أوه! أعلم هذا. لقد أتتني بضع رسائل نصية من المحقّقة».
أقول: «لعلك تستطيعين الاتصال بها!».
يتصلب وجه الآنسة شارب. يصير حجرًا. تقول بنبرة متيبسة: «في الحقيقة، أنا الآن ذاهبة إلى المحطة».
في تلك اللحظة، يظهر لي شيء عند أطراف مجال رؤيتي. ألتفت فأرى ليلي واقفة في أقل زوايا ردهة الفندق إنارة. في يدها منفضة غبار من ريش. تقف تحت السلم الرئيسي بين كنبتين زمرديتي اللون. بحق

السماء، لماذا هي في ردهة الفندق في حين ينبغي أن تكون في الأعلى من أجل تنظيف غرف النزلاء؟

يسأل السيد سنو الآنسة شارب: «منذ متى بالضبط تعملين لدى السيد غريمثورب؟».

تجيب: «منذ سنة واحدة، أو أكثر قليلًا. استخدمني كي أكون سكرتيرته الخاصة بعد وفاة سكرتيرته الخاصة السابقة. لا أدري كيف سأعثر الآن على عمل بعد رحيله».

في تلك اللحظة تمامًا، تدخل شيريل الردهة تدفع أمامها ممسحة أرض حال لونها. بحق السماء، لماذا أرى في ردهة الفندق خادمة ثانية في حين ينبغي أن تكون في الأعلى؟ من الواضح أن السيد سنو يفكّر مثلما أفكر لأنني أراه ينظر إلى شيريل نظرة غضب شديد. يفتح فمه كي يقول شيئًا، لكن صوتًا شديدًا يداهم آذاننا قبل أن يفلح في مخاطبتها. ترتفع يداي كي تحميا أذنيَّ. أدرك بعد لحظة أن ذلك هو صوت جهاز إنذار الحريق. في كل مكان من حولي، يجفل النزلاء والعاملون وينظرون من حولهم.

أحس يدًا على ذراعي. إنها أنجيلا. تقودني إلى الخارج عبر مدخل الفندق. من حولنا، جماعات من النزلاء. يندفع الجميع للخروج من الباب الدوار. بعد لحظات، نصير كلنا على درجات مدخل الفندق ذات اللون القرمزي. هنا، لا يعود زعيق صفارة الإنذار مصمًّا للآذان.

من حولنا بشر كثيرون.

«ماذا يجري؟».

«ماذا جرى؟».

«هل شب حريق؟».

في خضم تلك الفوضى، يعلو صوت السيد بريستون داعيًا إلى الهدوء. يطلب من الناس النزول إلى حيث الأمان، إلى الرصيف.

يتوقّف زعيق صفارة الإنذار توقفًا مفاجئًا مثلما بدأ. يخرج السيد سنو من الباب الدوار وينادي الواقفين على درجات المدخل، «كل شيء على ما يرام! كان إنذارًا كاذبًا. من فضلكم، تستطيعون الآن العودة إلى ريجنسي غراند!».

أصوات مسموعة منبئة بالارتياح تتعالى من حولي.

تقول إنجيلا: «كان هذا مثيرًا».

أجيبها: «لم يكن مثيرًا أبدًا. كان مزعجًا؛ وكان مخيفًا».

تسأل أنجيلا: «ما بك؟ لقد انتهى الأمر الآن، فلنعد إلى الداخل!».

أسير خلفها فنصعد درجات السلم ونعبر الباب الدوار. نصير في الداخل. نتجه صوب مكتب الاستقبال حيث كنا نقف قبل أن تدوّي صفارة الإنذار. يأتينا السيد سنو مسرعًا. تجول عيناه في ردهة الفندق. يسألنا: «أين ذهبت؟ أين سيرينا؟».

تجيبه أنجيلا: «لا أعلم أكثر مما تعلم».

عند ذلك، أنتبه إلى مكتب الاستقبال من خلفنا. الظاهر أن الآنسة شارب ليست الغائب الوحيد. الصندوق الذي يحتوي على تلك النسخة النادرة من الطبعة الأولى قد اختفى أيضًا.

الفصل التاسع

في ما مضى

أعود بذهني رجوعًا إلى مطبخنا الصغير حيث استمتعت مع جدتي بوجبات كثيرة تناولناها معًا أيام طفولتي. كان ذلك في الصباح الذي تلا انحنائي ونظري في عين الغول الفولاذية، ذلك الغول الذي يعيش خلف جدار مكتبة السيد غريمثورب. هل كنت مذعورة؟ أجل! هل جريت هاربة؟ أجل! لكن الغول لم يأكلني. لم أنقلب حجرًا ولم أُذب في مكاني. لقد واجهت الوحش... ونجوت.

تتأرجح ساقاي الصغيرتان أمامًا وخلفًا من تحت طاولة مطبخنا الريفية المهترئة. تجلب جدتي طبقين حارَّيْن من عصيدة القرفة. أستنشق الرائحة التي لا أزال، حتى اليوم، أضاهي بينها وبين الهناءة والبيت.

أسأل بين لقمتين حارتين: «جدّتي، لو كنتِ ثرية، فما الذي كنت ستنفقين مالك عليه؟».

«مدرسة خاصة لك فيها معلمات لطيفات صبورات. وبيت صغير نستطيع أن نعتبره بيتًا لنا من غير أن ندفع لصاحبه إيجارًا. بيت فيه كرسيان مريحان عند الموقد».

«عندما نصير ثريتين، هل نستطيع تناول الشاي مع الكريمة المخفوقة كل يوم؟».

تجيبني: «كل يوم».

«أخبريني من جديد، يا جدتي، ماذا حدث لأمي؟».

يأتي السؤال من غير مقدّمات فيفاجئ جدتي. تضع الملعقة من يدها وتقول لي: «أمك تركتنا وذهبت».

«أعلم هذا»، أجيبها وأنا أحاول استحضار ذكرى وجه أمي. لكني لا أستطيع استحضار صورتها. لا أستطيع استحضار شيء غير صورتها الموضوعة في إطار، تلك الصورة التي علّقتها جدتي في غرفة المعيشة. صورة التُقطت عندما كانت أمي أكبر مني الآن بسنوات قليلة.

تقول جدتي: «كانت لأمك شياطينها. وقد ضاعت في المتاهة مثلما يحدث للناس أحيانًا. عندما انتبهتُ إلى أن ذبابة ليل قد غرّرت بها، كان وقت إنقاذها قد فات».

أتذكّر الغول في القصر. لا يبدو لي مخيفًا بقدر ما هي مخيفة شياطين أمي، أو تلك الذبابة الليلية التي غرّرت بها. يستطيع المرء أن يقاتل الوحوش التي يراها؛ أو يستطيع أن يفر منها. لكن، كيف الفرار من وحوش غير مرئية؟

أدير ملعقتي في طبقي. «جدتي، ماذا يحدث عندما تموتين؟».

تتسع عيناها دهشة. تقول لي: «يا ابنتي العزيزة، أنا لن أموت».

أضرب بملعقتي معترضة: «هذه كذبة».

«أنت محقة. سوف أموت يومًا من الأيام. لكني لن أموت عما قريب. ثم إنني لن أتركك حتى عندما أموت. لن تكوني قادرة على رؤيتي، لكني سأظل دائمًا موجودة من أجلك».

«هل تعنين أنك ستكونين موجودة كأنك شبح؟».

«هذا صحيح. سأكون مثل شبح صديق يزورك طيلة عمرك. سأكون شبحًا يذكّرك بأن تنظفي أسنانك بعد انتهائك من تناول الإفطار». تبتسم لي وتداعب يدها وجنتي.

أحمل طبقي الفارغ وأضعه في المجلى، ثم أجري في الممر صوب حمامنا الصغير. أنظف أسناني مثلما قالت لي جدتي. بعد بضع دقائق، ألتقي جدتي عند باب البيت.

تقول لي: «سنذهب إلى القصر». تنحني وتربط شريط فردة حذائها

اليمنى. تنتهي من ربطها وترفع رأسها. تنظر إليّ وتقول: «مولي، عديني بأنك ستقولين لي إن كنت غير مسرورة في القصر!». تنظر إليّ بعينين متضيّقتين، لامعتين.

«أحب ذلك المكان، يا جدتي. أحب أن أنظف».

«أنا واثقة من أنك تركت انطباعًا حسنًا لدى السيدة غريمثورب يوم أمس لأنك نظفّت كمية كبيرة من الفضيات. قالت إنك مطيعة وإنك ملتزمة بالتعليمات. بالنسبة إليها، هذا مديح كبير. قالت إن لديها اليوم مفاجأة من أجلك».

أسألها: «مفاجأة، ما هي المفاجأة؟».

تنتصب جدتي واقفة وتقرص وجنتي. تقول لي: «عليك أن تنتظري كي تري بنفسك».

نخرج من الشقة معًا، وتبدأ رحلتنا الطويلة. أمضي الرحلة كلها في تخيل المفاجأة التي يمكن أن تحضرها لي امرأة مثل السيدة غريمثورب. بيجاما رمادية مستعملة؟ كتلة فحم في جورب عتيق؟ عنكبوت كثيف الشعر في قمقم؟

لكن السيدة غريمثورب لا تتأخر في إعلان الأمر عندما تفتح الباب لنا. تقول على الفور: «جرى البارحة حديث بيني وبين جدتك عندما ذهبنا إلى التسوّق. وقد توصلنا إلى قرار».

أسألها: «قرار في شأن ماذا؟».

تجيبني السيدة غريمثورب: «في شأنك أنت». تضيقُ عيناها فتصيران نقطتين صغيرتين تثبتاني في مكاني كأنني فراشة مثبتة على لوح... «أنا والسيد غريمثورب نرى دائمًا أن العادات السيئة قابلة للإصلاح، وأن الطفل المهذب ذا التعليم الجيد أفضل من الطفل الصعلوك».

«صعلوك. ص-ع-ل-و-ك. المعنى: متسكّع من غير هدف».

تقول جدتي: «أو فاشل».

تضيف السيدة غريمثورب كأنها تضع نهاية لذلك كله: «شخص قذر».

توضح جدتي: «ما تقوله السيدة غريمثورب هو أن الأطفال جميعًا، والكبار أيضًا، قادرون على التعلم. كل ما في الأمر هو أن بعضهم في حاجة إلى التعلم بطريقة ملائمة له، في حاجة إلى مؤسسة بعينها... مدرسة أو مؤسسة أخرى... ليست المدرسة مكانًا مناسبًا للجميع».

تضيف السيدة غريمثورب: «لكن، لا يجوز لأي شخص، سواء أكان كبيرًا أم طفلًا، أن يضيّع أية فرصة للتحسن».

أسألها: «بما في ذلك أنت، يا سيدة غريمثورب؟».

تضع السيدة غريمثورب يديها على خصرها وينتأ مرفقاها بشكل يوحي بالخطر. تقول لي بنبرة صارمة: «سأقول لك إن أمامكِ هنا امرأتان تضحّي كل منهما كثيرًا من أجل تطوّر شخص تحبه. سوف تفهمين هذا في يوم من الأيام مع أنه من الواضح لي أن عقلك الآن لا يزال مليئًا بهراء طفولي لا يترك متسعًا لأي شيء غيره».

تتدخل جدتي وتقول: «ما تحاول السيدة غريمثورب قوله هو أنك أدَّيت يوم أمس عملًا جيدًا في تنظيف الفضيات، وإنها تود أن تكافئك انطلاقًا من لطفها اللامتناهي. أليس هذا ما تريدين قوله لها يا سيدة غريمثورب؟».

يتقلص وجه السيدة غريمثورب ويتشوّه كأن امتداحها لي يمكن أن يصيبها بنوبة مرَضيّة. تقول آخر الأمر: «لدينا مكتبة في الطابق العلوي. ورفوفها تغصّ بالكتب. لطالما رأينا، أنا والسيد غريمثورب، أن الكتب قادرة على إصلاح أي إنسان. سمعت أنك تحبين القراءة».

أومئ برأسي مرات كثيرة.

«حسنًا جدًا. من الآن فصاعدًا، سوف تعملين في التنظيف نصف النهار، وسوف تمضين النصف الباقي في القراءة. إذا كنت غير قادرة على الذهاب إلى المدرسة، فأقلّ ما تستطيعين فعله هو أن تثقّفي نفسك».

لا أكاد أستطيع تصديق ما تسمعه أذناي. يبدو هذا حسنًا. أحسن من أن يكون حقيقة. أنظر إلى جدتي كي تؤكّد لي ما سمعت. تبتسم وتومئ برأسها.

تقول السيدة غريمثورب: «اتبعيني إلى المكتبة».

«أوه! أعلم أين...». أضبط لساني في الوقت المناسب. أقول لها، «نعم، يا سيدتي».

تتقدّمني السيدة غريمثورب وتصعد درجات السلم الرئيسي التي تصر وتئن مع كل خطوة. أسير خلفها. عند فسحة السلم الأولى، أنظر من النافذة فأرى السيدة ذات الفستان الأزرق تسير صوب باب القصر الجانبي... تمامًا مثلما رأيتها تسير في اليوم السابق.

أسأل السيدة غريمثورب: «أين مكتبها؟».

تتوقف السيدة غريمثورب لحظة وتقول: «مكتب من؟».

أقول: «مكتبها». وأشير إلى السيدة الأنيقة المتجهة صوب الباب الجانبي بمنديلها الأزرق وقفازيها الأزرقين.

«تلك السيدة الشابة ليست من شأنك، أبدًا وبالمطلق. مفهوم؟».

أومئ برأسي حرصًا مني على حفظ السِلْم بيني وبينها. يظل فمي مطبقًا تمامًا.

تصعد السيدة غريمثورب درجات المرحلة الثانية من السلم، وأسير خلفها لاحقة بها. نبلغ أعلى السلم ونمضي في الممر الطويل الذي اجتزته وحدي مرة من قبل. المصابيح من فوقنا تضيء كأنها تقتفي أثرنا بفعل سحر، تضيء مع مرورنا وتنير ورق الجدران المزخرف. ما أغرب أن تكون هذه الرسوم الزخرفية التي كانت كلها عيونًا شريرة تراقبني، عندما مررت هنا في المرة الماضية، قد تحولت كلها إلى زخارف جميلة متقنة! نمر أمام غرفة نوم بعد غرفة نوم بعد غرفة نوم -ما من مكاتب هنا- إلى أن نقف أمام عتبة غرفة المكتبة التي خلبت لبّي.

تدخل السيدة غريمثورب وتزيح ستائر المخمل الثقيلة عن النافذة الطويلة في واحد من الجدران. ينسكب ضوء النهار في الغرفة وتتراقص شذرات الغبار في الهواء كأنها عفاريت صغيرة. تتجه عيناي إلى الشق القريب من الأرض في الجدار المقابل لي. لا أرى اليوم ضوءًا في ذلك الشق، ولا أستطيع سماع أي صوت من الناحية الأخرى من الجدار. أتساءل لحظة إن كان عقلي قد خدعني يوم أمس. قد لا يكون هناك غول؛ ولعل ذلك كله كان من فعل مخيلتي ذات النشاط المفرط.

تقول السيدة غريمثورب، «تجدين في هذه المكتبة واحدة من أفضل المجموعات الخاصة ذات الأغلفة الجلدية التي تضم طبعات نادرة. لن تَجدي مثلها في العالم الناطق بالإنجليزية كله. لقد درس السيد غريمثورب شخصيًا كل ما يضمه كل كتاب في هذه الغرفة. وكان لكل كتاب دوره في إغناء مساره المهني. إنه رجل واسع المعرفة استطاع أن يكتسب سمعته العطرة من خلال الدراسة الجادة. السماح لفتاة مثلك حتى بأن تدخل هذه الغرفة مزية كبيرة. هل تفهمين هذا؟».

أجيبها: «أفهمه».

«الظاهر أن جدتك تظنك قارئة موهوبة على الرغم من شكّي في أنها تميل إلى المبالغة في تقدير مواهبك لأنك حفيدتها، فضلًا عن نزوعها العام إلى المبالغة».

تبحث عيناي في الرف الذي أمامنا عن قاموس أستطيع أن أستخرج منه معاني الكلمات الصعبة الكثيرة التي تستخدمها السيدة غريمثورب. أجد قاموسًا فأمد يدي إليه.

تصيح بي السيدة غريمثورب: «لا!». قوة الاستنكار الحارقة في صرختها ترغمني على التراجع.

تقول بصوت آمر: «ليس مسموحًا لك أن تأخذي أي كتاب من رفوف الجدار الرابع. لكِ أن تأخذي كتبًا من هذا الجدار ومن ذلك ومن ذلك

أيضًا. لكن عليك ألا تمسي الجدار الذي أمامك، أبدًا. هل هذا واضح؟ هذه الكتب مجموعة ثمينة جدًا؛ ولن أسمح لك بإتلافها مثلما أتلفت بيضة فابرجيه».

أرفع رأسي وأنظر إلى وجهها المتشنج الذي يشبه كيسًا ورقيًا مجعّدًا. لا أستطيع العثور على صوتي فأكتفي بأن أومئ برأسي ردًا على كلامها.

«تستطيعين القراءة هنا بضع ساعات. وبعد الشاي، تعودين إلى أداء واجبك في تلميع الفضيات في الطابق السفلي. اجعلي وقتك هنا مفيدًا، يا مولي. العقل الجيد لا يجوز إهداره أبدًا. فرص تطوير الذات ثمينة جدًا».

مع قولها هذا، تستدير على عقبيها وتسير في الممر ذي الجدران المزخرفة، ثم تنزل السلم وتنطفئ المصابيح في أعقابها. بعد انصرافها، تجول عيناي في المكتبة. لا أستطيع تصديق حسن حظي. كيف صار في مستطاعي أن أجلس هنا كي أقرأ؟ أسير إلى الجدار البعيد، واحد من الجدران التي سمحت لي السيدة غريمثورب بأن أمد يدي إليها. تمر أصابعي على كعوب الكتب. جريمة في *قطار الشرق السريع*، *كلب باسكرفيل*، *آمالعظيمة*. أضع إصبعي فوق كتاب *آمال عظيمة*' وأسحبه. أحمل ذلك المجلد البنّي الثقيل وأذهب إلى كرسي القراءة. أجلس وأفتح الكتاب. أبدأ القراءة.

أثناء تعرفي في الكتاب على فتى يتيم عاثر الحظ اسمه بيب، أسمع صوت خطوات خلف جدار المكتبة الرابع. صوت مفتاح النور يأتيني واضحًا وينسكب الضوء متسربًا عبر الشق في الجدار ملقيًا ظلًا طويلًا على أرض غرفة المكتبة.

رات ـ تات ـ تات ـ تات.

ها هو صوت الآلة الكاتبة يدوّي من جديد.

أسمع زمجرة غول جائع آتية من الناحية الأخرى من الجدار المحرّم عليّ. سلسلة شتائم غاضبة لا أفهم معانيها.

أضع الكتاب من يدي وأسير على أطراف أصابعي مقتربة من مصدر الصوت. أعلم أنه لا يجوز لي فعل هذا. لقد قيل لي ألا أمسّ ذلك الجدار. لكني أضع يدي على قاموس أكسفورد وألصق أذني بأطلس العالم كي أستطيع سماع الغول بمزيد من الوضوح. ما إن تستقر يدي على الكتاب حتى يتحرك شيء، وينفتح الجدار كله.

أصرخ: «آآآآه!»، وأقفز متراجعة لهول المفاجأة.

أسمع صدى عميقًا، «واااااه!». وقبل أن أستطيع فهم ما جرى، أجد نفسي قبالة رجل نحيل متهالك يجلس إلى طاولة مكتب مصنوعة من خشب الماهوغاني عليه، إلى الجانبين، كدسان عاليان من دفاتر ملاحظات ذات أغلفة قماشية سوداء. شعره رمادي وأبيض، مشعّث، وعيناه الزرقاوان الفولاذيتان تنظران إليّ كأنهما تخترقاني. إن لم أكن مخطئة، فإن فيهما عزم على افتراسي... أو حيرة شديدة جدًا.

ترتعش يدي المستندة إلى قاموس أكسفورد، لكني لا أستطيع رفعها عنه لأن خزانة الكتب كلها ليست، في واقع الأمر، إلا بابًا خفيًا فتحته يدي المستندة إليه.

«من أنتِ، بحق الجحيم؟». يسألني ذلك الكائن العجيب الذي أمامي وهو يقبض على قلم حبر أسود وذهبي ويرفعه عاليًا فوق رأسي مثلما يرفع سكينًا. لا أعلم تمامًا إن كان قد اعتزم طعني به أو كتابة بعض الملاحظات. لكني أنظر إلى يده فألاحظ أنني لست وحدي من يرتعش هنا.

يهدر صوته: «تكلمي، ماذا تفعلين هنا؟».

أخشى أن تكون حياتي نفسها متوقفة على إجابتي، لكني لست واثقة مما ينبغي قوله.

أقول: «أنا... أنا آسفة لأنني قاطعتك. لم أتعمد إزعاجك».

يزمجر من جديد: «من أنت؟ من تخصّين؟».

أقول: «أخصّ جدتي. إنها تعمل هنا».

يسألني: «أهي الخادمة؟».

«صحيح. إنها الخادمة. وأنا حفيدتها. اسمي...». أتذكر فجأة أن جدتي منعتني تمامًا من إخبار الغرباء باسمي.

أقول له: «خاطبني باسم بيب». أقول هذا وأنحني له انحناءة مرتبكة.

يجيبني: «في هذه الحالة، ينبغي أن أتوقّع منك أمورًا عظيمة».

أنظر إليه لحظة قصيرة لخشيتي من أن يذيبني النظر إليه ويجعلني غبارًا. أسأله بصوت مرتجف: «هل أنت غول أم رجل؟».

«ما أجمل هذا! لم يُطرح عليّ هذا السؤال من قبل. أظن أنني مزيج من الاثنين. أنا من يدعونه ميزانثروب[1]».

أكرر تلك الكلمة: «ميزانثورب. م-ي-ز-ا-ن-ث-و-ر-ب».

«غير صحيح! لقد خلطت بين هذه الكلمة وبين غريمثورب. أبدلتِ موضعَيْ حرفين اثنين».

أنظر محترسة إلى الكائن الماثل أمامي. إنه نحيل ضامر، وجهه من غير شعر على الإطلاق. جلده ناعم شاحب اللون. أسنانه مستقيمة، نظيفة، غير مدببة. أسنانه ليست أنيابًا متعطشة إلى الدم. شعره أشعث. قد يكون شخصًا ممسوسًا؛ لكن الرجل نفسه يرتدي ملابس أنيقة... قميص أزرق له أزرار، وبنطلون مكوي، وشبشب بيتي من نسيج قطني خشن عليه كتابة. تجول عيناي سريعًا في غرفته المتقشفة تدققان في تفاصيلها. كرسي قراءة في الزاوية عليه صحف كثيرة. وفي الغرفة طاولة مكتب عليها كدسان عاليان من دفاتر ملاحظات ذات أغلفة قماشية سوداء. في الغرفة أيضًا خزانة كتب عند الجدار البعيد؛ وعلى كعب كل كتاب فيها اسم ج. د. غريمثورب. صحيح أن طاولة المكتب غير مرتبة أبدًا، لكني لا أرى عليها عظام أطفال ولا عظام حيوانات صغيرة أخرى. لا أرى أبدًا أي شيء يوحي بوحشية ظاهرة.

---

(1) ميزانثروب: شخص يكره البشر ويفضل البعد عن المجتمع.

أقول له: «أنت لست غولًا. أنت رجل. أنت السيد غريمثورب، الكاتب المهم نفسه الذي لا يجوز إزعاجه!».

يعقد ذراعيه على صدره ويرمقني بعينين مستطلعتين. يسألني: «أهذا ما قالته لك... زوجتي؟».

أومئ برأسي.

يقول، «حسنًا إذًا... يا له من شرف عظيم لك أن تكوني في حضرة هذه العظَمة الكبيرة كلها!». ينهض واقفًا وينحني لي... «أظنها قالت لك أيضًا ألّا تدخلي مكتبي أبدًا». يضع قلمه المدبّب على الطاولة فأحس انفراجًا كبيرًا. بعد ذلك، يسير خلف طاولته بضع خطوات، ثم يستند إليها ويميل صوبي، تمامًا بين كدسَيْ دفاتر الملاحظات السوداء الموشكَيْن على السقوط. يحدق بعينيه الزرقاوين الفولاذيتين، بهاتين العينين اللتين رأيت يوم أمس واحدة منهما عبر الشق الذي تحت الباب. لكني لا أدري أي عين منهما كانت تلك التي رأيتها.

أقول موضحة: «لم أرد إزعاجك. سمعت صوتًا. لم أدر أن غرفة مكتبك خلف هذا الجدار. كنت أجلس في المكتبة أقرأ كتابًا».

«تقرئين!؟ ماذا كنت تقرئين؟».

«كتابًا عن طفل ليس له أم ولا أب... مثلي».

«آه، نعم. فهمت. إنه كتاب *آمال عظيمة*. أنت مبكرة النضج».

أكرّر ذلك التعبير: «مبكرة النضج». أعرف معنى هذا لأنهم وصفوني به من قبل... «المعنى: ذكية، لامعة، متقدّمة على أقرانها».

يجيبني: «هذا واضح».

يعود إلى المشي خلف طاولة مكتبه. ومن حين إلى آخر، ينظر إليّ بعينيه الثاقبتين. يقول لي: «يعني هذا أنك تحبين القراءة».

أجيبه: «صحيح، أحبّها». ركبتاي ترتجفان، لكن من الواضح تمامًا

أنهما غير مرتبطتين بفمي. هذا لأنني لا أزال أستطيع الكلام على الرغم من شدة ذعري.

يسألني السيد غريمثورب: «لماذا تحبين القراءة؟».

إنه طويل جدًا، مفاصله بارزة كأنه مصنوع كله من زوايا حادة. مع ذلك، يتحرّك بخفة رشيقة. ينتظر سماع إجابتي عن سؤاله المستحيل.

أفتش في عقلي عما أستطيع قوله. أخيرًا، أهتدي إلى فكرة. أقول له: «تساعدني القراءة في فهم الأشياء والناس. أحب أيضًا أن أزور عوالم أخرى».

«ألا يعجبك العالم الذي أنت فيه؟».

«لا، ليس على الدوام».

«هممم...». يستند بمرفقه إلى واحد من كدسَيْ الدفاتر السوداء على مكتبه... «يعني هذا أن بين الميزانثروب والطفلة أمرًا مشتركًا».

على غير انتظار، يظلم وجهه مثلما تظلم السماء قبل مطر الصيف. يستغرق الأمر لحظة قبل أن أستطيع استجماع شجاعتي. أقول له: «قلت لك لماذا أقرأ. إذًا، لماذا تكتب؟».

يحك رأسه. يصمت لحظة، ثم يقول: «أكتب كي أثبت أنني قادر على الكتابة، كي أتخلّص من شياطيني. سوف يعيش اسمي في خزي مثلما تعيش أسماء أولئك الكتّاب الذين في مكتبتي كلهم... في الأبديةً».

«ما معنى هذه الكلمة؟».

يجيبني: «دائمًا».

«لكنك صرت كاتبًا واسع الشهرة. أليس هذا كافيًا؟».

يعقد ذراعيه على صدره النحيل. «هل قال لك أحد من قبل إن لديك قدرة كبيرة على رش الملح على الجرح، قدرة كبيرة إلى حد مقلق».

«تقول جدتي إن هذا ضروري من أجل تنظيف الجرح».

يجيب: «هممم! لقد قالت لي الأمر نفسه. هما لا تعلمان أنك هنا، أليس كذلك؟ أعني جدتك وزوجتي».

أهز رأسي نفيًا.

«لن يعجبهما هذا. لا يجوز إزعاج الكاتب العظيم. إنه شديد التقلب. لا يمكن توقع سلوكه. إنه شخص حانق في أواسط العمر، امتنع مؤخرًا عن تناول الكحول، طاغية مبدع، ميّال إلى تصرفات غريبة من غير سبب منطقي. فضلًا عن هذا، هو شديد الانشغال برسم معالم رواية الغموض في الزمن المعاصر».

«هل يعني هذا أنك تؤلف كتابًا جديدًا؟».

«بالطبع. بحق السماء، ما سبب وجود دفاتر الملاحظات هذه، في رأيك؟». يتناول دفتر ملاحظات من الكدس الموشك على السقوط، ثم يقترب مني ويضعه بين يدي.

بحذر شديد، أفتح الدفتر على صفحة من الصفحات. أراها تغصّ بكلمات متداخلة كثيرة عليها بقع من الحبر. أركز انتباهي على الكلمات، لكني لا أستطيع أن أفهم شيئًا من تلك الكتابة. إما أن تكون مكتوبة بلغة أخرى، أو بشيفرة لا أستطيع حل رموزها.

يختطف الدفتر من يدي قبل أفلح في سؤاله عما كتبه فيه. يغلقه بحركة عنيفة ويعيده إلى كدس الدفاتر.

يقول لي: «ليس الأمر سهلًا، إن كنت تعلمين هذا. ليس سهلًا تكوين تحفة أدبية، كتاب يستطيع الصمود أمام امتحان الزمن». فَقَد صوته كل ما كان فيه من خشونة وقسوة. وعلى غير انتظار، بدا لي أشبه بطفل كبير ذي طبع يصعب التعامل معه. تذكرت تلك اللحظة عندما وقعت عيناي أول مرة على بيضة فابرجيه في الردهة الكبيرة في الطابق السفلي... كنز مزين بالجواهر، لكنه مختفٍ تحت أوساخ تراكمت عبر قرون، ورغم ذلك استطعت رؤيته على حقيقته.

أقول له: «المسألة كلها مسألة تلميع. ففي معظم الأمور، الأعمال

العظيمة خاصة، يكون الأمر متوقفًا على إزالة التراكمات وجعل الألق ظاهرًا».

يضيّق عينيه وينظر إليَّ. يخطو صوبي خطوتين واسعتين، ثم يقرفص كي تصير عيناه على مستوى عينيَّ. ليس بعيدًا عني إلا ذراعًا واحدة، لكني لست خائفة منه. لم أعد خائفة منه. صرت أراه على حقيقته. هو ليس غولًا، وليس وحشًا. ليس إلا رجلًا، لا أكثر.

يسألني: «هل أنت فيلسوفة طفلة؟ مهرّجة في بلاط؟ أأنت التي تستطيع قول ما لا يجرؤ الآخرون على قوله؟».

«تقول جدتي إن لديّ حكمة تفوق سنوات عمري».

«الخادمة التي تعلم كل شيء. هي أيضًا لديها ألقٌ تحت ما تراكم عليها». ينهض واقفًا... «أرحب بزيارتك في أي وقت شريطة ألا تعطليني وتعرقلي قدميّ».

أجيبه: «قدماك ليستا ضخمتين وليس عليهما شعر مثلما تخيلتهما. سيد غريمثورب، هل لي أن أطرح عليك سؤالًا واحدًا؟».

«لكِ ذلك، يا آنسة بيب».

«أين هي المرأة ذات المنديل الأزرق والقفازين الأزرقين، أعني سكرتيرتك الخاصة؟».

يقول: «في مكتبها، تنفّذ ما طلبت منها تنفيذه».

«هل تقوم بطباعة ما تكتبه في دفاتر الملاحظات هذه؟ أسمع دائمًا صوت الآلة الكاتبة».

يجيبني: «بالطبع».

«وهل هذا كل ما تفعله سكرتيرتك؟».

عندها... يحدث ذلك! يربدّ وجهه من جديد وتصير عيناه شقَّين ضيقين. يزمجر قائلًا: «من تظنين نفسك على وجه التحديد؟ بالطبع، هذا كل ما تفعله! والآن، اخرجي!».

أجد نفسي مثبتة حيث أقف كأن صمغًا تحت قدميّ. أود أن أجري، لكني أحس بأنني صرت حجرًا.

يزمجر من جديد: «هل سمعت ما قلته لك، أم أنك لا تفهمين شيئًا؟ قلت لك اخرجي».

تنفكّ قدماي عن الأرض فأجري خارجة من الغرفة. يُغلق الباب السري من خلفي ويصير من جديد جدارًا عليه رفوف كتب. أقف في المكتبة متقطعة الأنفاس، أقف وحدي. ضربات قلبي صاخبة في أذني. لا فكرة عندي عما أخطأت فيه أو أية إساءة تسببت فيها.

أسمع صوتًا يناديني، «مولي!». إنه صوت جدتي الصدّاح تتردد أصداؤه عبر السلم... «آسفة لمقاطعة قراءتك. لكن، ألا تستطيعين النزول؟ حان وقت الشاي».

أصيح مجيبة: «أنا قادمة!».

آخذ الكتاب الذي تركته على الشيزلونغ وأعيده إلى مكانه على الرف البعيد. ألقي نظرة أخيرة على حزمة الضوء المنسكبة على الأرض من غرفة المكتب المخفية خلف الجدار. بعد ذلك، مع غثيان أحسّه في قاع معدتي، أندفع خارجة من غرفة المكتبة وأجري صوب أمان الشاي، صوب أمان جدتي.

الفصل العاشر

عدنا إلى ردهة الفندق - السيد سنو، وأنجيلا، وأنا. انتهى إنذار الحريق. استُعيد النظام.

نحدّق جميعًا في موضع خالٍ على مكتب الاستقبال. فراغ كان فيه، قبل أقل من ساعة، صندوقٌ يحتوي على نسخة من الطبعة الأولى من رواية السيد غريمثورب الأوسع شهرة ومعها قلمه ودفتر ملاحظات ذو غلاف قماشي أسود وبطاقة شكر موجهة إلى الآنسة شارب.

أقول: «الصندوق! كان هنا... هنا تمامًا... لقد اختفى الآن».

تقول أنجيلا: «ألا تريان هذا؟ مهما كان المرء حذرًا هذه الأيام، فهو لا يستطيع أن يكون حذرًا بما يكفي. ثمة مجرمون في كل مكان».

يقول السيد سنو: «ما من شيء إجرامي في هذا. الأمر واضح... كانت سيرينا في عجلة من أمرها. ذهبت وأخذت معها الصندوق الذي أتت من أجله. يا أنجيلا، لا حاجة إلى تحويل كل شيء إلى مؤامرة».

في تلك اللحظة تمامًا، تندفع شيريل وتدخل باب فندق ريجنسي غراند الدوار. تصطدم ممسحتها الرطبة بالنزلاء وهي مسرعة صوبنا.

تتوقّف عندما تصل إلينا، وتستند إلى عصا ممسحتها. تقول: «اللعنة على إنذارات الحريق! علينا أن نتخلّص منها».

ينزع السيد سنو نظارته عن وجهه ويدلّك أنفه. «شيريل! في فندق آمن، ينام النزلاء نومًا حسنًا». هذا مقتطف من «*دليل عمل الخادمة*». سماعه يكرر الكلمات التي كتبتُها يفعمني اعتزازًا بنفسي. لكن شيريل تفتح عينَيْها وترفع حاجبيها. عجيب كيف لا تخنقها هذه الحركة.

تسأله: «أين ذهبت آنسة غريمثورب الصغيرة؟».

يجيبها السيد سنو: «لا نخاطب النزلاء هكذا في فندقنا. وأيضًا، ألا ينبغي أن تكوني الآن في الأعلى من أجل تنظيف غرف النزلاء؟ لا فكرة لديّ أبدًا عما جعلك تأتين إلى ردهة الفندق».

أقول: «الأمر نفسه ينطبق على ليلي أيضًا. بما أنك رئيستها المؤقتة، فعليك أن تنتبهي إليها. لا أرى سببًا لوجودها هنا قبل قليل».

تقول شيريل: «لم تكن هنا».

«بل كانت هنا. كانت تقف تحت السلم». أشير إلى البقعة التي تحت السلم، البقعة التي صارت الآن خالية، لكن ليلي كانت تقف فيها وهي تحمل منفضة الريش.

تقول أنجيلا: «هممم... كانت تقف عند مقبض جهاز إنذار الحريق».

يصفّق السيد سنو بكفيه ويقول: «لا بأس! هذا كافٍ! أليس لدى أحد في هذا الفندق عمل يقوم به. اذهبوا الآن. مولي، عليك أن تساعدي أنجيلا في السوشال. ومثلما قلت لك، هذا أمر مؤقت... اليوم فقط».

تبتسم شيريل ابتسامة هازئة، ثم تجرّ ممسحتها الرطبة وتذهب صوب المصاعد، في حين أتجه مع أنجيلا صوب مطعم وبار سوشال.

بعد أن نصير بعيدتين عن مرمى السمع، تمسكني أنجيلا من كتفي وتدفعني دفعة مفاجئة، فنصير معًا تحت واحد من الأفاريز البارزة من الجدار.

أسألها: «لماذا فعلت هذا؟».

تقول وهي تزيح خصلات شعرها عن عينيها الواسعتين المدوَّرتين: «مولي، عليّ أن أقول لك شيئًا. نحن لا نعاني نقصًا في العاملين مثلما زعمتْ. كنت في حاجة إلى إبعادك، إلى تحذيرك. أنت واقعة في مشكلة، فهل تفهمين هذا؟ كلنا واقعون في مشكلة».

أسألها: «ما هذا الذي تقولينه؟».

«سمعت المحقّقة عندما كانت تكلم شرطيَّيْها يوم أمس. يعتقدون

بأن ثمة من تسبب في موت السيد غريمثورب. وقد استجوبوا الليلة الماضية العاملين في المطبخ والعاملين في سوشال أيضًا. وضعوا قائمة بأسماء المشتبه فيهم المحتملين حتى قبل أن تصلهم نتائج التشريح. كانوا يذكرون الأسماء».

أسألها: «هل ذكروا اسمي؟».

تجيبني: «ذكروا اسمك».

أسألها وأنا في خشية من سماع الإجابة: «هل ذكروا اسم أي شخص آخر؟».

«زهرتك الرقيقة، ليلي».

يغيم كل شيء في عينيّ. هذا ما يحدث لي دائمًا... كلما برهن لي العيش على صعوبة تدبّره، ينسحب فوقي حجاب قاتم يبعدني عن الزمن الحاضر.

تقول أنجيلا وهي تهزني من كتفيّ: «يا مولي! إياك أن تفقدي وعيك الآن. لا تقلقي، لدي خطة».

أقول مخاطبة ثلاث نسخ من أنجيلا تتمايل أمام عيني: «خطة!؟».

«استباق الأمور خطوة واحدة. أقول لك إنني أمضيت حياتي كلها أستعد لهذا».

الحقيقة أنني لا أفهم شيئًا مما تقوله لي. لكن، على الأقل، توقف العالم عن الدوران الآن. أسألها: «ما الذي كنت تستعدين له؟».

«القتل. الجريمة. المشتبه فيهم. الدوافع. إثبات الغياب عن مكان الجريمة». تهز رأسها وكأن ما قالته من أكثر الأمور وضوحًا في العالم كله... «يا مولي، بعض الأحيان، تقع أمور سيئة لأسباب وجيهة. ألا تدركين ما أعنيه؟».

أقول: «أدرك هذا. كانت جدتي تقول الأمر نفسه».

«يا مولي، أنا عاملة بار. يحكي لي الناس كل شيء. وما لا يحكونه

لي، تلتقطه أذناي. هل تعرفين سيدات القطط المجنونات، المعجبات اللواتي كنّ تتكلمن مع السيد غريمثورب؟».

أقول: «سيدات الجمعية. لسن سيدات القطط... لا بأس، لسن كذلك كلهن... إنهن سيدات الكتب المولعات بالغموض».

«كيفما يكن الأمر. في أية لحظة، سوف تأتي تلك النسوة إلى مطعم سوشال من أجل تناول وجبة الإفطار. إن كان هناك من يعلم حقيقة ما جرى للسيد غريمثورب، فهن اللواتي تعلمنها. ظللن يلاحقنه منذ وصوله إلى الفندق».

أجيبها: «وماذا؟ ما الذي يُنتظر منا فعله؟ هل نستجوبهن أثناء وجبة الإفطار؟».

«نعم. أعني، نوعًا ما. أنت التي ستستجوبينهن خلال وجبة الإفطار. لقد حضّرتُ كل شيء».

«يا أنجيلا، هل فقدت عقلك؟».

تتنهّد أنجيلا وتقول: «لم أفقد عقلي. اسمعي... عليك أن تثقي بي! يوم أمس، مات في فندقنا رجل، وكان موته غير متوقع. ثمة أشياء تختفي؛ وقبل لحظات فقط، كانت عينا سنو مفتونتين بسكرتيرة غريمثورب الشخصية... مع أنني لست واثقة من أنها سكرتيرة فعلًا، إن كنت تدركين ما أعنيه».

أقول: «الحقيقة أنني لا فكرة عندي أبدًا عما تعنيه بهذا الكلام».

«غير مهم. هل تتذكّرين يوم أمس عندما كنت واقفة أمام مدخل قاعة الشاي مع المحققة؟».

«أتذكر».

«مددت رأسي من باب مطعم سوشال ورأيتك. عندما أتت سيدات الجمعية لتناول شراب في وقت متأخر من تلك الليلة، قلتُ لهن شيئًا».

تصمت أنجيلا بعد قولها تلك الكلمات. الصمت ليس من طبيعتها. أستطيع اعتبار صمتها الآن أعجوبة صغيرة. أسألها: «ماذا قلتِ لهن؟».

«قلت لهن إنك تؤدين مهمة في هذا الفندق... مهمة سرية... بصفة خادمة. قلت ذلك كأنني ألمّح إلى أنك تعملين سرًا كي توفري حماية إضافية للسيد غريمثورب. وأظنني قلت أيضًا، إنك تعملين مع المحققة ستارك، وإنك محققة مثلها. محققة متخفية».

«لا يمكن أن تكوني قد قلت هذا! من فضلك، قولي لي إن ما سمعته الآن غير صحيح!».

تجيبني أنجيلا: «بل قلته لهن». يعلو طرفا فمها في ابتسامة غير منسجمة أبدًا مع الوضع الذي نحن فيه، ابتسامة تجعلني راغبة في الصراخ.

أقول لها: «لقد كذبتِ... قلت عني كلامًا كاذبًا».

«هذا من أجل مصلحتك، يا مولي. بهذه الطريقة، نستطيع أن نتعاون».

أقول: «أنا لا أريد هذا التعاون».

«لم لا؟ علينا أن نعثر على القاتل الحقيقي قبل أن تلصِق ستارك التهمة بشخص من بيننا، نحن العاملين. تعلمين أكثر من غيرك مدى ضعف أداء الشرطة. يقولون إنهم يريدون العدل. لكن، هل يريدون العدل حقًا؟ يقفزون إلى استنتاجات غير صحيحة ويلقون باللائمة على أشخاص مثلنا. يفعلون هذا طيلة الوقت».

أقول: «هذا سخف. هذه خطة غبية سوف تضر بي وبك».

ترفع أنجيلا إصبعها في وجهي وتجيبني: «مولي، قد لا أكون محترفة؛ لكن لا تخطئي في شأني: أنا محقّقة بارعة. أستطيع دائمًا أن أربط بين الأمور ربطًا صحيحًا حين لا يستطيع الآخرون فعل هذا. إذا عملنا معًا، فسوف نتفوق على المحققة ستارك المتكبرة وعلى فرقة الأغبياء التي معها. وأيضًا، بعد أن صارت سيدات جمعية المعجبات على علم بأنك

محققة تعمل في الخفاء، فسوف تخبرنك بكل شيء. ما عليك إلا أن تثقي بي. هل اتفقنا؟».

قبل أن أفلح في الإجابة، يسترعي انتباه أنجيلا أمرٌ في الناحية الأخرى من ردهة الفندق. تقول: «أوه... لقد وصلنَ باكرًا!».

سيدتان مألوفتا المظهر آتيتان من الناحية الأخرى من الردهة تتقدمهما زعيمة جمعية المعجبات ذات القامة الطويلة والشعر المتموّج والعلم الذي في يدها. يسير الثلاثي مباشرة في اتجاه مطعم سوشال. «يو- هو!». أسمع هذا قبل أن أفلح في نطق كلمة واحدة. رئيسة جمعية المعجَبات تلوّح لنا بعلمها الأحمر. تقول: «أيتها المحققة، انضمّي إلينا كي نتناول الإفطار معًا، من فضلك!».

أهمّ بأن أصحّح معلوماتها، بأن أقول لها بالضبط ما أنا وما ليس أنا. لكن أظافر أنجيلا تنغرس في ذراعي فأصير عاجزة حتى عن تكوين كلمة واحدة.

تقول أنجيلا عند اقترابهنّ منّا: «لطف كبير منكن أن تدعين مولي إلى الانضمام إليكن. سوف نسير معكن إلى المطعم».

تقول الزعيمة حاملة العلم: «أوه، يسرّنا أن نتعاون. هذا واجبنا إزاء ج. د.! نريد مساعدتك ومساعدة... المحققة». تهمس بهذا وتشير إليَّ.

أقول: «أنا لست إلا خادمة. لا شيء أكثر من هذا».

تقول الرئيسة: «بالطبع!»، وتومئ برأسها فتتراقص خصلات شعرها الملتفة، تتراقص صعودًا ونزولًا.

تقول سيدة أخرى من المجموعة، الأقصر بينهن جميعًا، تلك التي لها خصلات شعر ملونة بالبرتقالي: «بكل تأكيد. أنت تؤدّين عملًا رائعًا من حيث حرصك الشديد على عدم الظهور. منذ أيام فقط، رأيتك تنظفين غرفتي في الفندق. يدهشني ما يمكن أن يفعله المحققون كي يظلوا غير ظاهرين. أمر مدهش فعلًا!».

تقول الثالثة، السيدة ذات الشعر الرمادي، تلك التي لا تزال ترتدي -يا للهول- كنزة شعر القطط التي ارتدتها يوم أمس: «أنا متفقة معك». لا يزال شعر القطط يغطي كنزتها كلها.

هكذا، على الرغم من اعتراضاتي المتكرّرة ومن محاولات أخرى أبذلها بغية توضيح هويتي الحقيقية، أجد نفسي جالسة في مطعم سوشال أتناول وجبة الإفطار مع مجموعة من سيدات الجمعية المقتنعات تمامًا بأنني شخص غير الشخص الذي أنا هو فعلًا.

تقول أنجيلا عند دخولنا المطعم: «في وسعكن، أنتن الأربعة، أن تجلسن إلى تلك الطاولة إلى اليمين، هناك». تشير إلى طاولة خالية قريبة من البار... «وذلك كي أستطيع الاهتمام بكنّ جيدًا». تتناول من فوق البار عدة قوائم طعام وتضعها على الطاولة.

تسحب ذات الكنزة البنية كرسيًا وتدعوني إلى الجلوس. تقول لي: «اسمحي لي! بالمناسبة، اسمي بيولا». تقول هذا وهي تجلس على كرسي إلى جانبي... «أنا بيولا بارنز، مؤرخة حياة ج. د. غريمثورب».

تصحّح قولها الزعيمة حاملة العلم وهي تجلس على كرسيٍّ قبالتي: «مؤرخة من غير موافقته! وأنا غلاديس، المسؤولة الأدبية الأولى، رئيسة جمعية المعجبات. وهذه الصغيرة ذات الشعر الوردي هي بيردي، أمينة الصندوق في الجمعية. وأما بقية عضوات الجمعية فهن جالسات هناك... تستيقظن في وقت مبكر». في الناحية الأخرى من المطعم، ترمقني عيون كثيرة بنظرات الإعجاب.

تقول أنجيلا: «سوف أجلب القهوة لكنّ جميعًا».

أقول: «أريد شايًا».

تجيب أنجيلا: «خلال لحظات». ثم تهمس لي وحدي، «اطرحي أسئلة أثناء غيابي، يا مولي. أكثري من الأسئلة، وتذكري أن هذا هو سبب وجودك هنا». تغمز لي بعينها ثم تذهب منطلقة.

تنظر إليَّ النساء الثلاثة فتجعلنني في حيرة تامة من أمري؛ ماذا أقول لهن. يتبادر سؤال إلى ذهني. أقول: «أظنني أتساءل عن سبب بقائكن حتى الآن... أعني في الفندق. لم تعد هناك مناسبة، ولا توقيع كتب، بعد ما جرى يوم أمس».

تقول رئيسة جمعية المعجبات: «في الفرحة، نحتفل معًا. وفي الحزن نحزن معًا».

تومئ الثلاثة برؤوسهن تأكيدًا على هذه الكلمات.

تقول بيولا: «وأيضًا، نحن توّاقات مثلك تمامًا إلى معرفة إجابات في ما يتصل بـ ج. د. غريمشورب. سوف تكون نقطة مخيفة في سيرة حياته إذا اتضح أن تلك كانت...».

تزقزق بيردي منهية جملة بيولا: «إذا كانت جريمة قتل». هذه أول عبارة تقولها المرأة القصيرة منذ جلوسنا إلى الطاولة.

تأتي أنجيلا حاملة ثلاثة فناجين قهوة وفنجان شاي. تضعها كلها على الطاولة. تسألنا: «هل أنتن مستعدات لطلب الطعام؟».

تطلب الثلاثة الوجبة نفسها، وجبة «لو غراند أوف»، أكبر وجبة في قائمة الطعام.

تسألني أنجيلا: «ماذا ستأكلين، يا مولي؟».

«لا شيء».

توضح أنجيلا موقفي: «إنها في مهمة عمل».

تقول الرئيسة، غلاديس: «مسلك مهني جدًا! نود أن نطرح عليك سؤالًا، يا مولي. هل علمتم ما كان السيد غريمشورب يريد إعلانه يوم أمس خلال تلك المناسبة الكبيرة؟».

تجيب أنجيلا: «لم نعرف شيئًا. أعني أن السلطات لم تعرف شيئًا بعد». تشير إليّ عندما تقول هذا... «لكننا نحب أن نسمع ما لديكن».

تقول بيولا: «أوه، لا! ها قد بدأنا!».

تقول غلاديس وهي تضع في فنجانها ملعقة سكر كاملة وتحرك القهوة: «أنت تطرحين مسألة نختلف فيها كثيرًا».

تضيف بيولا وهي تلتقط عن صدرها الضخم شعرة من شعر القطط وتتركها تطير في الهواء فوق الطاولة: «نحن لسنا متفقات دائمًا».

تقول غلاديس: «أنا أعتقد أن ج. د. أراد الإعلان عن إصدار جزء ثانٍ من كتابه الذي حقّق أكبر معدل مبيعات».

تتدخل بيردي: «إنه رواية '*الخادمة في القصر*'. هل تعلمين أن سعر المزاد على الطبعة الأولى من ذلك الكتاب ارتفع يوم أمس حتى صار بمئات الآلاف؟».

تهمس بيولا عبر هالة الفراء المحيطة برقبتها: «هواة جمع المقتنيات!... أولئك الكواسر المرضى!».

تسأل أنجيلا: «ألستن جميعًا من هواة اقتناء الكتب؟».

تقول غلاديس: «نحن أكثر من ذلك. كي أكون أكثر وضوحًا، أقول إننا باحثات نعتزّ بما ندرسه. لا نريد الآن، ولم نرد يومًا، أن نحقق أرباحًا من خلال ج. د. غريمثورب».

تضيف بيولا: «هذا صحيح. على الدوام، كانت مهمتنا هي الترويج لأعماله».

تقول أنجيلا: «سأذهب الآن لإحضار طلباتكن».

تمضي نحو البار وتتركني وحيدة على نحو مخيف.

تميل بيردي ضئيلة الجسم صوبي كي تقول شيئًا. لشدة صغرها، يبدو رأسها كأنه ثمرة غريب فروت وردية عند حافة الطاولة. «نتساءل إن كنتم قد انتبهتم إلى أن روايات ج. د. يمكن أن تحتوي على أدلة ترشدكم. أهم كتبه يتحدث عن روائي منعزل في قصره كي ينجز أعظم كتبه. لكن شخصًا... لن أقول من يكون ذلك الشخص... يريد قتله».

تقول بيولا: «إنها الخادمة. قاتلة كانت تعمل في ذلك القصر، لكنها تبدو بريئة جدًا».

تقول بيردي: «ها هي تفعلها من جديد! تفسد المفاجأة!».

تهتز خصلات شعر غلاديس الرمادية غاضبة. «كم مرة ينبغي أن أقول لك هذا، يا بيولا، أنت تعرفين سياستنا».

ترفع بيردي إصبعها في الهواء كأنها تقود فرقة أوركسترا. تقول: «جمعية المعجبات لا تفسد على قارئ رواية الغموض متعة نهاية قصة عن جريمة قتل. هذه قاعدتنا الأولى».

تتنهّد بيولا، ثم تحدّق فيّ بعينَيْن ناطقتَيْن بقدر كبير من الاهتمام. «إن في الكتاب مفاجأتين. لم أفصح إلا عن واحدة منهما. أقسم أن مِن القراء مَن لا يقرأ الرواية إلا من أجل المفاجآت. لكن روايات ج. د. فيها ما هو أكثر من هذا. يستطيع أي غبي إدراك ما أقول». تقول هذا كأنها تبصق تلك الكلمات صوب زميلتيها. يتحول انتباهها إليَّ... «لا أظنك قرأت رواية '*الخادمة في القصر*' أليس كذلك؟».

أحسّ الكلمات عالقة في حلقي. أحس أنني سمكة أُخرجت من الماء. ألهث طالبة الهواء.

تسألني غلاديس: «مولي، هل أنت بخير؟».

أقول: «أنا... لم أقرأ الرواية. لكني أعرف حبكتها. أعرفها جيدًا». كاتب يعيش في قصر فارغ لا حياة فيه ويقتل زوجته. يظن أنه عثر على طريقة للإفلات بفعلته، لكنه مخطئ. لقد رأت الخادمة كل شيء، فتنتقم منه، وتقتله مثلما قتل زوجته ثم تخفي جثته.

تقول بيردي: «غلاديس واثقة من أن ج. د. قد رتّب مناسبة يوم أمس كي يعلن عن جزء ثانٍ من ذلك الكتاب».

تقول غلاديس: «وبيردي مقتنعة بأن زوجة ج. د. كانت السبب الذي

جعله يختار العزلة عن الناس. ماتت السيدة غريمثورب منذ بضع سنين؛ وتظن بيردي أن إعلان يوم أمس كان من أجل الإفصاح عن حبه الجديد».

أسأل: «هل السيدة غريمثورب ميتة؟».

تقول بيردي: «إنها ميتة. هذا يعني أن ما من شيء يمنع الرجل من البحث عن حب جديد». تقول هذا وفي عينيها نظرة ساهمة.

تقول بيولا: «هذه أغبى نظرية أسمعها في حياتي كلها! لا تستطيعين أن تكوني مخطئة أكثر من ذلك حتى إذا حاولت!».

تهز غلاديس رأسها ذا خصلات الشعر المتموّجة. تقول: «بيولا لا تعجبها هذه النظرية لأنها واقعة في هوى ج. د. منذ زمن بعيد».

تحتجّ بيولا: «هذا سخف! إن كانت واحدة منا واقعة في حبه، فهي بيردي. ثم إن أيًا منكما لا تعرف أهم ما في الدراسة الأدبية، أهم ما في ذلك الفن الرفيع، فن اكتشاف الأدلة. وبما أنني مؤرخة لحياة ج. د.، فأنا أعلم عنه أكثر مما قد تعلمان كلتاكما».

«تزعم بيولا أنها استطاعت اكتشاف أمور خفية تخصّ ج. د.، لكنها ترفض تنويرنا بما لديها من أدلة أو معلومات. هذا واحد من منابع...».

تقول بيردي وهي تربت على شعرها البرتقالي: «من منابع التوتر».

تضيف غلاديس: «والضيق أيضًا». تلوّح بعلمها مؤكدة على ما قالته.

تقول بيولا: «سوف يرتاح الجميع عندما أنشر تأريخي الرسمي لحياته».

تصحح غلاديس قولها: «تأريخك غير الرسمي».

تجيبها بيولا: «ليس المرء في حاجة إلى إذن من شخص ميت».

تدلي بيردي بملاحظة من عندها: «لكن، ليس لديك من يؤكد النتائج التي توصلت إليها، وهذا من واجبك المهني. كانت تتوسل إلى ج. د. من غير انقطاع كي يجعلها تعمل لديه رسميًا. كان هذا الأمر عملها الوحيد قرابة عشرين سنة».

تقول بيولا: «كان ج. د. يمتنع عن كشف بعض المعلومات الحساسة عن نفسه. هذا أمر مفهوم. لقد جرت بيننا مراسلات على مر السنين، كما تعلمان».

تسألها بيردي: «هل هذا صحيح؟ هل كانت بينكما مراسلات؟».

تجيبها بيولا: «سوف تظهر الحقيقة، ذات يوم».

أسألها: «لماذا لا تظهر اليوم؟ إن للأسرار طريقتها في معاقبة من يخفونها».

تجيب بيولا: «طرح نظريات من غير إثبات كافٍ ليس من المسؤولية في شيء».

تأتي أنجيلا إلى طاولتنا حاملة أطباق الطعام المتوازنة على ذراعيها توازنًا خطيرًا. «إفطاركم». تضع الأطباق على الطاولة. تنقضّ كل من بيولا وغلاديس على الطعام من غير أي تأخير. وتتناول بيردي لقمات صغيرة جدًا وهي تحدّق في الفراغ. أتساءل في سري إن كانت هذه النساء الثلاث مغرمات بالكاتب الشهير؟ لا أستطيع فهم كيف يكون هذا ممكنًا. لكن جدّتي كانت تقول دائمًا، *عندما يكون الحب أعمى، يصير الضفدع أميرًا*. مع ذلك، ومهما يكن مقدار التوتر الذي ظهر بين الثلاثة قبل لحظات، فقد اختفى كله مع وصول الطعام.

أستغل لحظة الهدوء كي أضيف بعض الحليب إلى فنجان الشاي الذي برد قليلًا. يتركز انتباهي على الصوت الكليل الصادر عن اصطدام ملعقة الستانلس ستيل بفنجان السيراميك العادي. لا نستخدم أدوات الطعام العادية هذه إلا في مطعم سوشال لأنها تفتقر إلى ذلك الرنين الجميل الذي يُسمع عند اصطدام ملاعق ريجنسي غراند الفضية بالبورسلان الأصلي.

تقف أنجيلا إلى جانبي واضعة يديها على خصرها، وتنتقل عيناها بين السيدات الثلاث وهن يتناولن إفطارهن من غير أي كلام.

تنحني أنجيلا وتهمس في أذني: «هل تسمعين هذا؟».
أهمس لها: «أسمع ماذا؟».
تقول: «الصمت... صمت الحملان»[1].

---

(1) صمت الحملان ـ The Silence of the LAMBS: فيلم أميركي شهير أُنتج سنة 1991 وفاز بجائزة الأوسكار. في الوقت نفسه «LAMBS» هي الأحرف الأولى من اسم جمعية السيدات المعجبات بروايات الغموض.

الفصل الحادي عشر

في ما مضى

أنا جالسة إلى طاولة الطعام العتيقة في شقتنا أتناول إفطاري وتتأرجح ساقاي إلى الأمام وإلى الخلف. أمضغ كل لقمة عشرين مرة لأن (أ) هذا مفيد في الهضم، (ب) هذا لذيذ، (ج) في العالم أطفال لا يستطيعون أن يأكلوا كل يوم، ومن الأفضل أن يكون الإنسان ممتنًا لكل لقمة يأكلها.

مر الآن أسبوع منذ لقائي السيد غريمثورب. من وقت إلى آخر، أسمع صوت خطواته منبئًا بوجوده خلف الجدار الرابع، لكني لم أره بلحمه ودمه. مع ذلك، لا أستطيع أن أكف عن التفكير فيه. رجل على هذا القدر من الثراء، لماذا تبدو عليه هذه التعاسة كلها؟ وأيضًا، ماذا فعلت كي أثير غضبه الشديد؟ هل سأراه مرة أخرى؟

إن علماء الفيزياء الكبار محقون: الكون يتمدّد فعلًا، أو على الأقل، كَوني يتمدّد دائمًا. دليلي على ذلك كثرة الأسئلة الجديدة التي أطرحها على جدتي مع كل يوم يأتي. الليلة الماضية، رقدت في فراشي صاحية وواصلت البحث عن الإجابات. لم يكن الأمر هكذا في ما مضى عندما كنت أذهب إلى المدرسة كل يوم. في ذلك الوقت، كان عقلي حبيسًا، كان نمرًا محتجَزًا في قفص، نمرًا مخدَّرًا لا يهدأ خلف القضبان. كنت غير قادرة على التفكير وغير قادرة على التساؤل. لكن مخيلتي انطلقت منذ ذهابي إلى قصر غريمثورب، وما عاد فضولي يعرف شبَعًا.

أصل إلى فكرة مهمة وأنا جالسة إلى الطاولة أأرجح ساقيّ: ليس التعلم أمرًا يجري في المدرسة فقط، فالتعلم حالة ذهنية. اندفع إلى طرح أسئلة كثيرة بحماسة شديدة لا بد أنها كانت ترهق جدتي. لكنها

لم تُظهر يومًا أي قدر من الضيق من تلك الأسئلة. كانت تعاملني دائمًا وتتكلّم معي كأنني شخص كبير. هل كانت تدرك أنه سيأتي يوم أتذكّر فيه أحاديثنا وأعيدها في ذهني مرة بعد مرة فأكتشف طبقة بعد طبقة من حكمة جدتي؟

أسألها وأنا أبتلع الشاي بالحليب وأستعد لتناول لقمة طعام جديدة: «جدّتي، هل يمكن أن يكون الإنسان ثريًا وفقيرًا في وقت واحد؟».

تجيبني: «هذا ممكن بكل تأكيد. قد يكون غنيًا بالحب ويفتقر إلى السلع الدنيوية».

أضيف من عندي: «أو قد يكون فقيرًا في الصحة، ثريًا في المال».

«صحيح تمامًا». تضع الزبدة على قطع الخبز بدقة فنية إلى أن تصير سكّينها نظيفة.

«جدّتي، كيف صار آل غريمثورب أثرياء هكذا؟».

تجيبني: «كسب السيد غريمثورب ثروة صغيرة بعد أن صار واحدًا من أصحاب الكتب الأكثر مبيعًا». ترفع قطعة الخبز إلى فمها، لكنها تتوقّف قبل أن تقضم منها قضمة... «إلا أنه كان ثريًا حتى قبل النجاح الكبير الذي حقّقته كتبه. كان جدّه مستثمرًا ثريًا، وكذلك كان والده».

يحاول عقلي تخيل صورة والد السيد غريمثورب، لكنه لا يستطيع استحضار شيء غير صورة الصيرفي ذي الشارب في لوحة لعبة مونوبولي.

أسألها: «هل تظنين أن أسرته كانت لطيفة معه؟».

«لا أدري، يا مولي. لكني أشك في هذا. ما أعلمه هو أن السيد غريمثورب كان طفل والديه الوحيد وأنهما كانا يعتبرانه فاشلًا».

«هل فشل في المدرسة مثلما فشلت أنا؟».

«كان ناجحًا جدًا في المدرسة. ولعلمك، يا مولي، أنا لا أعتبرك فاشلة أبدًا. لكن، لنعد إلى السيد غريمثورب. ما كان يريد شيئًا غير أن

يكتب، وما كان راغبًا في إدارة استثمارات عائلته. في تلك الأيام، كانوا يعتبرون الطبع الإبداعي لعنة حلّت على العائلة. ورث السيد غريمثورب هذا القصر عندما مات والداه، وورث معه مالًا كثيرًا. لكنه ورث أمورًا كثيرة أيضًا، ورث أمورًا انفعالية وعاطفية لا يزال يحملها حتى هذا اليوم. صحيح أنه شخص ثري أبًا عن جد، لكن ذلك لم يأته بقدر كبير من السعادة».

تتبادر إلى ذهني فكرة جديدة. أسألها: «جدتي، إن كان غريمثورب ثريًا أبًا عن جد، فهل يجعلنا هذا من الأثرياء الجدد؟».

تضحك جدتي بصوت عالٍ، لكنني أعلم أنها تضحك معي، لا مني. تقول لي: «يا عزيزتي، نحن لسنا من الأثرياء».

بطبيعة الحال، كنت أدرك هذا الأمر. كنت أدركه لأننا نقصّ الكوبونات ولأننا نرتق جواربنا. كنت أدركه لندرة الكريمة المخفوقة عندنا، ولأن مالك البيت يأتي ويطالبنا بدفع الإيجار... لأننا نذهب سيرًا على الأقدام إلى المكتبة بدلًا من أن تكون لدينا مكتبة خاصة في بيتنا. كنت أدرك ذلك لما لدينا من أدوات طعام نشتريها من المتاجر الرخيصة بدلًا من أن تكون عندنا أدوات طعام ورثناها عن أسلافنا.

حان وقت طرح السؤال الذي أود كثيرًا أن أطرحه، السؤال الذي يحرق عقلي منذ أيام. «جدتي، إذا كان السيد غريمثورب عبقريًا إلى هذا الحد، فلماذا يختبئ في قصره؟».

تميل برأسها وتنظر إليَّ بطريقة غريبة لم أفهمها تمامًا. تسألني: «لا تحكمي على إنسان قبل أن تسيري بحذائه مِيلًا كاملًا! هل سمعت هذا القول قبل الآن؟».

قلت: «سمعته من قبل. لكني لا أرى ما علاقته بالسؤال. السيد غريمثورب لا يستخدم حذاءً، بل شبشبٌ منزليٌّ».

«على الرغم من هذا، يظل ذلك القول صحيحًا. يسري عليه مثلما

يسري عليك، يا عزيزتي». تقول هذا وتداعب راحة يدها وجنتي... «ومعناه هو أنك لا تستطيعين أن تعرفي واحدًا من الناس معرفة حقيقية من غير أن تعيشي الأمور التي يعيشها. يجب أن تعلمي أن السيد غريمثورب عانى شياطين كثيرة. لقد شُفي الآن، لكن الظلمة تركت أثرها عليه».

«هل كان مريضًا؟».

تجيبني: «كان مريضًا، وكان مرضه مخيفًا. آثار مرضه حوّلته إلى وحش، حينًا من الزمن، لكننا تجاوزنا تلك المرحلة وانتهينا منها. السيدة غريمثورب وأنا ساعدناه في القصر، فتحسّن وضعه. لقد صار نظيفًا، يا مولي. هل تفهمين ما أعنيه بهذا؟».

تخيلت طيورًا متوحشة عجيبة ذات أجنحة حادة ترفرف محيطة بالسيد غريمثورب، وتخيلت جدتي والسيدة غريمثورب تطردانها عنه. سألتها: «كيف استطعتما إبعاد الشياطين عنه؟».

تجيب جدتي: «بالصبر والمثابرة. كانت السيدة غريمثورب تطالبني بأن أجلس ساعات طويلة كي أقرأ له. وكنت أفعل هذا. كنت ألهيه وأجعله ينسى أعراض مرضه. كنت أقدم له الشاي أيضًا يا مولي. بالتأكيد، لم يكن الشاي شرابه المفضل في ذلك الوقت. لكن الشاي شراب مدهش. أقول لك إن الشاي قادر على شفاء كل شيء تقريبًا».

أسألها: «لكن، ماذا يحدث إذا مرض السيد غريمثورب من جديد؟ ماذا يحدث إذا عاد إليه مرضه؟».

«لا حاجة إلى القلق. لقد شُفي. السيدة غريمثورب وأنا صفحنا عن كل الأخطاء التي وقع فيها في الماضي تحت تأثير المرض. لكن، ونتيجة لتلك الأوقات المظلمة، يفضل الآن أن يظل وحيدًا. لقد تركت فيه تلك الشياطين ندوبًا مؤسفة. تذكّري هذا، يا مولي».

أنظر إلى قطعة الخبز على الطاولة، القطعة التي أكلت قسمًا منها.

قبل لحظات، كانت تبدو لي شهية؛ لكنني أراها الآن منفّرة، أراها غريبة في طبقي.

تسألني جدّتي: «هل انتهيت من إفطارك؟».

أومئ برأسي.

«جيد، حان وقت ذهابنا إلى القصر». تقول جدتي هذا وتضع يدها الدافئة على يدي.

***

عملت طيلة فترة الصباح في خزانة الفضيات، في حين كانت جدتي تطهو وتنظف في المطبخ. إنها تغني على مقربة من باب غرفة المؤونة كأنها عصفور. السيدة غريمثورب ليست هنا، الآن على الأقل. لعل هذا هو سبب غناء جدتي.

مع كل يوم يمر، أصير أشد مهارة في استخدام محلول تنظيف وتلميع الفضيات وإزالة ما تراكم عليها. اخترت هذا اليوم أن أنظف الفضيات صباحًا، ثم أقرأ بعد الظهر. انتهيت من تلميع طقم شاي كامل، وبضع صوانٍ من صواني التقديم، وكذلك مجموعة كاملة من الملاعق والشوكات والسكاكين وصولًا إلى آخر ملعقة فضية، الملعقة التي أرفعها الآن أمام وجهي. أتأمل صورتي في تجويف الملعقة، صورة مقلوبة مشوّهة، عالم منقلب رأسًا على عقب مثله مثل كل شيء في قصر غريمثورب.

يظهر في تجويف الملعقة الفضية شخص آخر يقف خلفي، يقف مقلوبًا. إنها السيدة غريمثورب. يتحوّل عبوس وجهها إلى ابتسامة ليست من طبعها. ألتفت إليها فأراها تنظر إلى الفضيات التي لمّعتها ووضعتها على الطاولة.

ترفع ذقنها بحركة توحي باستحسان لا تريد إظهاره. تقول لي: «كفاك عملًا. في وسعك الآن أن تذهبي لقراءة كتابك في المكتبة».

أنحني لها وأخرج من الحجرة حيث أجد جدتي في المطبخ تُخرج من الفرن فطائر نضجت للتو.

تهمس لي جدتي: «أنت تؤدّين عملك جيدًا. السيدة لا تستطيع إنكار هذا. إذًا، اصعدي الآن! سوف أناديك في ما بعد كي تنزلي وقت تناول الشاي».

أتجه إلى مقدمة القصر، ثم أصعد درجات السلم بخطوات حذرة. أتوقّف لحظة عند فسحة السلم في الطابق الثاني وأنظر في الممر الطويل ذي الجدران المزخرفة، الممر الذي تقع المكتبة في آخره. السيد غريمثورب ليس غولًا... أعلم هذا الآن... لكني رأيته وجهًا لوجه قبل أسبوع من الآن فثار غاضبًا وزمجر في نهاية لقائنا. قال عني أمورًا فظيعة وأمرني بالانصراف. لا أزال غير قادرة على معرفة ما أخطأت فيه، لكن من عادتي ألّا أفهم ذلك إلا بعد فوات الأوان. أتذكر الآن تلك المرة في المدرسة عندما صحّحت كلمة أخطأت الآنسة كريبس في كتابتها على اللوح فعاقبتني بأن أمرتني بالوقوف في زاوية غرفة الصف والبقاء هناك زمنًا طويلًا إلى أن وجد إحساسي بالعار سبيلًا للتعبير عن نفسه فتدفّق حارًّا على ساقَيّ.

والآن، أسير في الممر على أطراف أصابعي إلى أن أبلغ المكتبة فأتوقّف لحظة. لا أدخل الغرفة... ليس بعد. بدلًا من ذلك، أنظر إلى الجدار الممنوع عليّ وإلى الشق عند الأرض: الشقّ مظلم وما من شيء من علامات الحياة خلف الجدار.

أذهب إلى الرف وأتناول كتاب *«آمال عظيمة»*، ثم أعود إلى مكاني على الشيزلونغ وأهمّ بفتح الكتاب. قرأت من الكتاب قدرًا لا يستهان به خلال الفترة الماضية. صحيح أنني لا أفهم تمام الفهم كل ما قيل عن بيب، لكن الآنسة هافيشام سحرتني، تلك الأرملة العجوز الذاوية التي لا هدف لها في حياتها غير تعذيب صبي طيب القلب. لست أدري ما

يجعل هذا مخيفًا لي أكثر من أي شيء آخر قرأته من قبل. إذًا، لماذا أتابع قراءة هذا الكتاب؟

صوت مفتاح النور. صوت خافت جدًا، لكن صداه يتردّد في صمت المكتبة ذات السقف المرتفع.

يسقط على أرض المكتبة شعاع ضوء آتٍ عبر الشقِّ أسفل الجدار.

وقع خطوات، وصوت الشِبشِب على الأرض.

لأول مرة منذ أيام، ثمة علامة على الحياة خلف الجدار الرابع المحظور.

عيناي متعلقتان بقاموس أكسفورد البارز قليلًا عن بقية الكتب في الرف. في تلك اللحظة، ينفتح جدار الكتب ويظهر السيد غريمثورب واقفًا بالباب. أراه غير مرتّب، أراه ضعيفًا متهدل الكتفين. أضم كتابي إلى صدري.

ثم يحدث أغرب شيء. يقول السيد غريمثورب: «آسف!».

لا أكاد أستطيع تصديق أذنيّ. هل هذا اعتذار من فم رجل كبير؟ الفكرة غريبة جدًا... كأنه يكلمني بلغة أجنبية. أجد نفسي مضطرة إلى هز رأسي كي أتأكد من صحة ما سمعت.

يقول لي: «كان سلوكي ذلك اليوم غير مقبول أبدًا. ثِرت غاضبًا مثلما يثور شخص غريب. قلت لك إنك غبية، لكني أعدت التفكير في ما قلت، فوجدت أن تلك الكلمة تصح عليَّ أكثر مما تصح عليك؛ وذلك لأنني أنا الغبي الحقيقي، الملك المزيّف غير الصالح لأي شيء. التفسير الوحيد الذي أستطيع تقديمه كي أبرر تصرفي المجنون غير المنطقي هو أنني كنت مريضًا. من بين أعراض المرض التي لم تفارقني مَيلي غير السوي إلى مهاجمة أشخاص أبرياء. أرجو أن تقبلي اعتذاري!».

لا أستطيع أن أتابع تمامًا كل ما يقوله لي، لكنني أرى وجهه ناطقًا

بالألم. في تلك اللحظة، أتوصل إلى اكتشاف مهم: ليس ضروريًا أن تفهم ألم الشخص الآخر لأن ألمه حقيقي سواء أفهمته أم لم تفهمه.

أقول: «إنني أسامحك، يا سيد غريمثورب. ولكن، هل تعرف معنى كلمة آسف؟».

يجيبني: «نوّريني!».

«تعني هذه الكلمة وعدًا منك بأنك لن تقع في الغلطة نفسها مرة ثانية».

يتنهّد ويسير إلى طاولة مكتبه. يتهاوى جالسًا على كرسيه. يقول لي: «لن أقع في تلك الغلطة من جديد! لن أقع فيها أبدًا. لكني لا أستطيع أن أكون واثقًا من عدم وقوعي في أغلاط أخرى. الحقيقة أنني، يا بيب، فقدت أي نوع من أنواع البهجة... هذا إن كان لديَّ شيء من ذلك أصلًا».

«البهجة!؟». أسأله وأنا واقفة بالباب.

يجيبني: «المعنى: الفرحة، الرضا، السرور. كنت أجد ذلك في زجاجة الشراب، لكني أقلعت عن الشراب. كنت أجده أيضًا في بضعة أمور أخرى. أين هي البهجة الآن؟ لست أدري! أكون في بعض الأحيان واثقًا من أنني سأعثر عليها عندما أصل إلى نهاية رواية أكتبها، لكني أجد نفسي واقعًا في معاناة جديدة أشد من تلك التي كانت قبلها».

«المعنى: مرض».

«صحيح. هذا مرض خاص بالكتّاب. يدعونه 'استعصاء الكاتب'. أجد نفسي غير قادر على إكمال العمل الذي بين يدي. يراوغني العمل ويتفلّت مني، لكني أكون واثقًا من أنه سيعطيني ما أريد إذا عرفت كيف أنهيه».

«وماذا تريد؟».

«مزيد من الشهرة. صيت واسع. مكان على رفوف الكتب يظل محفوظًا لي مئات السنين. نهاية قلقي. عودة بهجتي».

أخطو داخل غرفة مكتبه خطوات حذرة، ثم أتوقّف على مسافة آمنة من طاولته ومن كَدسَي دفاتر الملاحظات السوداء الموشكَين دائمًا على السقوط.

«هل أستطيع أن أسألك عن موضوع كتابك؟».

يميل صوبي ويقول: «رواية غموض. كاتب تحبسه زوجته في بيته. لديه خياران اثنان. يقتلها أو يقتل نفسه».

أسأله: «أيهما يختار؟».

«يقتل زوجته. لكن مشكلة جديدة تظهر له».

«أية مشكلة؟».

«عليه أن يخفي جثتها، وإلا سيوجَّه إليه الاتهام بقتلها ويتلقى عقوبة من نوع جديد. هذه المرة، عقوبة الحبس في السجن بدلًا من الراحة النفسية التي يحظى بها في بيته».

أنظر إلى الرجل النحيل الجالس أمامي، إلى شعره الأشعث وعينيه الشبيهتين بعيني حصان جامح. ماذا لو لم يكن هذا خيالًا؟ تجعل هذه الفكرة معدتي تنقبض على نفسها.

أسأله: «هل تنوي قتل السيدة غريمثورب؟».

يلقي برأسه إلى الخلف ويطلق ضحكة هادرة عندما يسمع سؤالي.

أسأله: «لماذا تضحك؟».

«أضحك لأن هذا سخف. لا نية عندي في قتل زوجتي. لن يكون لذلك أي معنى. منذ عشرين سنة، زوجتي الطيبة كأنها ميتة، وأنا الملوم في هذا. تلك المرأة التي عاشت معاناة طويلة جدًا أمضت حياتها كلّها، بعد أن كبرت، في حماية سمعتي والاهتمام بصحتي وراحتي. أؤكد لك بأنني لم أجعل أيًا من ذلك سهلًا عليها. سأكتفي بالقول إنني لم أكن أشد الأزواج في هذا العالم وفاء، لكن الزوجات الوفيات مثلها قليلات».

أقول: «لا أفهم هذا».

«غير مهم. الفكرة هي أنني في حاجة إلى قرار في شأن روايتي. لا بد لها من خاتمة مناسبة. لا بد لها من حيلة أو اثنتين. عليّ أيضًا أن أجعل تلك الجثة المتخيلة تختفي».

أقول: «القِلي!».

يسألني: «كذبة عن ماذا؟»[1].

أقول: «لا لم أعنِ كذبة. القلي مادة كيميائية. إنها حارقة. أظن أنك تستطيع التخلص من جثة وجعلها تختفي إذا استخدمت كمية كافية من القلي».

ينهض واقفًا ويذرع الغرفة جيئة وذهابًا. يتوقّف وينظر إليَّ بعينيه الزرقاوين الجليديتين. يسألني: «كيف تعلمين هذا؟».

أقول: «في يوم من الأيام، كانت هناك خادمة. كانت الخادمة غاضبة من سيدها فأذابت يديه بالقلي».

تتّسع عيناه دهشة. «من أخبرك بهذا؟».

«لقد اخترعته... نوعًا ما! حكت لي جدتي قصة حقيقية، لكني عدّلتها الآن، في هذه اللحظة. عندما تكون لدينا قصة فيها قدر من الحقيقة، لكنها لم تحدث في الواقع، فماذا نسميها؟».

يتغيّر وجهه. ترقّ خطوطه القاسية كلها. يختفي الألم كله. ولأول مرة، يبدو فرحًا، مسرورًا، خفيفًا.

يجيبني: «ندعوها رواية. تستطيعين اعتبارها رواية».

---

(1) هذا تلاعب بالكلام قائم على التشابه الكبير في نطق (وفي كتابة) كلمتي «Lye - قلي» و«Lie - كذبة».

الفصل الثاني عشر

أنسحب من إفطاري مع سيدات الجمعية. في طريقي إلى الخروج من مطعم سوشال تستوقفني أنجيلا عند بابه.

تقول: «مولي، أنت مدهشة! تلك السيدات مقتنعات تمامًا بأنك محقّقة. لقد صدقن القصة من أولها إلى آخرها».

أرد: «كان ذلك خداعًا مخجِلًا. لست واثقة من أنني استطعت اكتشاف أي شيء ذي قيمة».

«بعض الأحيان، ما يبدو أول الأمر عديم القيمة يصير مفتاحًا لفهم السر. ما عليك إلّا أن تعرفي كيف تجمعين الأجزاء كلها معًا».

أقول: «لست مهتمة بجمع الأجزاء معًا، يا أنجيلا. أنا مهتمة بأداء عملي... بأداء عمل خادمة في هذا الفندق».

تجيبني أنجيلا: «لا بأس! لا تفقدي أعصابك. اذهبي وكوني خادمة. تجاهلي هذه التفاهات الجارية من حولك! لكن، كوني حذرة، يا مولي! هل تسمعين؟ وإذا سمعتِ أو رأيت أي شيء مريب، فأرجو أن تخبريني به».

أقول: «لا بأس. أأستطيع الذهاب الآن؟».

لا أنتظر إجابتها. أكتفي بمتابعة السير خارجة من المطعم. أذهب إلى ردهة الفندق حيث يراني السيد سنو ويستدعيني إلى مكتب الاستقبال: «أين أنت ذاهبة، يا مولي؟».

أقول: «لم تعد أنجيلا في حاجة إليَّ، ولم أعد في حاجة إليها. أنا عائدة إلى عملي الحقيقي إن لم يكن لديك مانع من ذلك».

يقول السيد سنو: «حسنًا جدًا. ستكون الخادمات في الأعلى مسرورات بعودتك».

أتجه صوب السلم الخلفي وأصعد إلى الطابق الرابع. معدتي متشنجة. أعلم تمام العلم سبب كربي. فخلال الإفطار مع سيدات الجمعية، تظاهرت بأمر يخالف حقيقتي. أعلم أن عينَيْ جدتي غير قادرتَيْن على رؤيتي، لكني أعلم أيضًا أن سلوكي هذا لا يجعلها فخورة بي. أنا كاذبة، منافقة... أمران لم تعلّمني إياهما أبدًا. لماذا لم أنطق بالحقيقة؟ لماذا لم أؤكد لسيدات الجمعية أنني لست إلّا خادمة فندق عادية؟

أرى سونيثا خارجة من إحدى الغرف تجر خلفها كيسًا ملأته بملاءات متسخة. إنها متعرّقة كلها كأنها قطعة حلوى تذوب تحت الشمس.

أقول لها: «حلم العمل النظيف يتحقق عندما نكون ضمن فريق. ألا تتذكّرين هذا؟».

«الفريق غير موجود الآن، يا مولي. لا أدري ما أصاب ليلي! أعلم أن يوم أمس كان صدمة لها، لكن سلوكها صار أغرب من المعتاد؛ وهي ترفض أن تقول شيئًا عمّا بها. ثم إنها تختفي كثيرًا. كنا ننظف واحدة من الغرف، فالتفتُّ إليها كي أطلب منها مناديل ورقية. لم أرها! اختفت!».

أسألها: «أين هي الآن؟».

«إنها هناك». تقول سونيثا هذا وتشير برأسها إلى الممر.

أقول لها: «شكرًا!». أسير إلى آخر الممر فأجد بابًا مفتوحًا تسنده عربة خدمة. ليلي داخل الغرفة. أراها واقفة أمام النافذة في سكون تام. وفي إحدى يديها زجاجة محلول تنظيف الزجاج وفي اليد الأخرى قطعة قماش.

أقول: «ليلي». تجفل عندما تسمع صوتي، «هل أنت بخير؟».

تنظر إليَّ بطريقة غريبة لا أجد عبارة تماثلها في قاموس تعابير الوجوه والسلوك البشري الذي جمعته في عقلي. تسألني: «من الرئيسة؟». صوتها مرتعش، هامس.

أجيبها: «ماذا تعنين بهذا؟».

«أهي شيريل أم أنت؟».

«شيريل هي كبيرة الخادمات اليوم. وغدًا تعود الأمور إلى طبيعتها المعتادة. هل يناسبك هذا؟».

ترفع كتفيها.

«ليلي، إذا كانت لديك مشكلة، فأنت تستطيعين اللجوء إليَّ».

تسألني: «أأستطيع؟ أهكذا تسير الأمور؟».

أقول: «بالطبع! هكذا تسير الأمور».

«لكن كثرة الكلام توقع في المشكلات. لقد قلت لي هذا بنفسك عندما تم تعييني هنا. قلتِ لي: الكتمان أمر بالغ الأهمية في فندق ريجنسي غراند».

أقول لها: «يا ليلي، أنت آخر شخص أستطيع اتهامه يومًا بقلة الكتمان. أمضيت أسابيع حتى استطعت جعلك تنطقين كلمة واحدة. من فضلك، لا تصمتي الآن!».

«إنني أحاول. لكن... الأمر ليس سهلًا. أنا شديدة التمسك بهذه الوظيفة، يا مولي. طردوني من العمل ذات مرة، ولا أستطيع ترك هذا يحدث لي مرة أخرى».

هذه أول مرة تقول شيئًا عن خسارتها وظيفة سابقة. يفاجئني هذا النبأ. أبتلع المفاجأة وأسألها بنبرة لطيفة: «ماذا جرى؟».

تقول لي: «كنت عاملة صندوق في متجر بقالة قبل أن أعمل هنا».

«أتذكّر هذا، كان مكتوبًا في سيرتك الذاتية».

«لكن ما لم أقله لك هو أنهم لاموني عندما أبلغت عن سرقة قامت بها عاملة صندوق أخرى، ثم طردوني من العمل. توقّعت ألّا تقبلي أن أعمل هنا إن أخبرتك بهذا. والآن، أخاف أن أقول أي شيء. بمن أستطيع أن أثق، يا مولي؟».

أطمئنها: «ثقي بي! ينبغي أن تثقي بي!». أنظر إلى ليلي فأشعر أنني

أنظر إلى ذاتي القديمة في مرآة. لم أكن أثق بأحد عندما بدأت العمل في هذا الفندق. حتى هذا اليوم، لا يزال هذا الشعور المقلق يراودني بعض الأحيان.

تقول ليلي: «مولي... تكونين رئيسة في يوم من الأيام، وفي اليوم الذي يليه لا تكونين رئيستي. مات في تلك الصالة رجل قدّمت إليه الشاي». تشيح بوجهها عني كي تمسح بعض آثار الأصابع عن النافذة التي أمامها.

أقول: «ليلي، إن كان يقلقك احتمال أن تكون جريمة قتل قد وقعت في الفندق، فأنا أؤكد لك بكل إخلاص أن ما من سبب لاعتقادك بوجود جريمة».

تتشنّج معدتي لأن ما أقوله ليس حقيقة غير قابلة للدحض.

تلتفت ليلي وتنظر إليَّ. عيناها كابيتان لا تعبير فيهما. تقول: «الخادمة هي الملومة دائمًا». تتابع تنظيف النافذة من غير أن تنطق بأية كلمة أخرى.

يجعلني هذا الحديث في ضيق شديد. لا أستطيع تجنّب هذا الشعور. أتنهّد بصوتٍ عالٍ. بكل صدق، أحاول قدر استطاعتي لكني لا أعلم كيف أساعد هذه الفتاة. يتبادر إلى ذهني أن الطريقة الأفضل لمساعدتها قد تكون الامتناع عن قول أي شيء والاكتفاء بالعمل معها جنبًا إلى جنب.

أرتّب السرير صامتة. أنزع الملاءات المتسخة وأضع ملاءات جديدة. أقول في نفسي: *السرير المرتب يهدئ الرأس*. لكن هذا لا ينفعني في شيء. لا هدوء في رأسي أبدًا. واضح لي أيضًا أن ليلي مضطربة أكثر مني.

أحمل الملاءات المتّسخة إلى عربة الخدمة وأهمّ بوضعها في الكيس عندما ألاحظ شيئًا في سلة المهملات... أرى صندوقًا عليه اسم سيرينا مكتوبًا بقلم أسود على غطائه. إنه الصندوق الذي اختفى عندما انطلق جهاز إنذار الحريق يوم أمس.

أقول: «ليلي». تلتفت وتنظر إليَّ.

أسألها: «هل أنت من وضع هذا الصندوق في العربة؟».
تهز رأسها نفيًا.
«هل تعلمين من وضعه؟».
تهز رأسها من جديد، ثم تحدّق فيّ بتلك العينين الزجاجيتَيْن الداكنتَيْن.
«قولي لي، يا ليلي! أرجوك!».
ما من شيء لديها تقوله سوى: «شفاه منفلتة، سفن غارقة».
أعصابي مرهقة جدًا. أحسّ اضطرابًا شديدًا أثناء مساعدتي ليلي في تنظيف الغرفة رقم 429. أعلم المنبع الحقيقي لكَربي هذا. صحيح أنني قلقة على ليلي، لكن هذا ليس منبع الكرب. وليس منبعه موت السيد غريمثورب ولا تلك الأمور الغريبة التي تحدث في الفندق. منبعه هو أنني صرت متورطة في كذبة. هذه الفكرة تهزّني حتى أعماق وجودي. أسمع أصداء صوت جدّتي في رأسي، ولا أستطيع إيقاف ذلك الصوت: *اكذبي مرة واحدة، وسوف تصير حقيقتك موضع شك.*
أقول: «ليلي، حان وقت الغداء. حان وقت الاستراحة».
تومئ برأسها وتضع من يدها عبوة سائل تنظيف الزجاج، ثم تخرج من الغرفة مسرعة.
أدرك فجأة ما يتعيّن عليه فعله. لا أستطيع تضييع لحظة واحدة.
أترك الغرفة قبل أن تصير نظيفة، قبل أن تصير في حالة من الكمال. أنزل مسرعة إلى ردهة الفندق. أخرج من الفندق وأنزل الدرجات المفروشة بسجادة حمراء. يراني السيد بريستون ويستوقفني. يقول لي: «مولي، أين أنت ذاهبة بهذه السرعة كلها؟».
أقول: «لدي أمر أقوم به. أعود بعد قليل».
يقول لي: «وأنا لديّ مهمة أيضًا. مولي، مولي... من أجل عشائنا يوم الأحد، كنت أفكر في...».

أقاطعه: «يا سيد بريستون، من فضلك، ألا يستطيع عشاؤنا الانتظار إلى أن يعود خوان مانويل؟ لا أكاد أستطيع تدبّر ما بين يديّ من أمور. لا أظنني الآن قادرة على أي شيء آخر».

يهبط وجه السيد بريستون مثلما يهبط الكيك عندما نخرجه من الفرن قبل أوانه. لكن بضعة رجال أعمال معهم أمتعة يستدعونه قبل أن يفلح في قول أي شيء. يخفّ إلى خدمتهم في حين أتابع طريقي من غير توقّف.

أسير في اتجاه الشارع التالي. أسير بخطوات سريعة. أنعطف يسارًا، ثم يمينًا، ثم يسارًا مرة أخرى. أصل إلى مركز الشرطة بعد خمس عشرة دقيقة تمامًا. أتوقف لحظة كي أنظر إلى المبنى من الناحية الأخرى من الشارع... مبنى بشع رمادي اللون له نوافذ مظلّلة.

أجتاز الشارع المزدحم وأدخل باب مركز الشرطة الرئيسي وأصير في ردهة الاستقبال.

ترحب بي امرأة شقراء أظافرها طويلة مطلية بلون أرجواني. تسألني: «ماذا تريدين؟».

أجيبها محاولة إبقاء صوتي ثابتًا: «أنا هنا لرؤية واحد من المحققين».

تسألني المرأة: «أهي شكوى، أم بلاغ؟ أم إنك تريدين تسليم نفسك؟».

أقول: «الأخير».

تصمت لحظة، ثم تسألني: «تعلمين أن 'الأخير' يعني آخر شيء قلتُه لك. ألا تعلمين هذا؟».

أجيبها: «صحيح. لديَّ مشكلة مع المفردات».

تنظر إليّ صاحبة المخالب الأرجوانية بعينين غريبتين لا أستطيع قراءتهما.

أقول: «أريد أن أكلّم المحقّقة ستارك. هي تعرفني. أعمل خادمة في الفندق الذي سقط فيه السيد غريمثورب ميتًا».

عند ذلك تنهض المرأة بحركة بطيئة جدًا. لا تحوّل وجهها عني. تفتح بابًا خلفها وتصرخ في الممر بصوت مرتعش: «المحققة ستارك! تعالي سريعًا من فضلك!».

لا تعود إلى مكانها مثلما توقّعت، بل تظلّ واقفة هناك ملتصقة بالجدار تنظر إليَّ كأن من المتوقع أن أسرق شيئًا أو أن أُشهر عليها مسدسًا.

صوت خطوات ثقيلة في الممر. تظهر المحققة ستارك بملابسها السوداء المعتادة. تقف بعتبة الباب. تقول: «مولي! ماذا تفعلين هنا؟».

تهمس صاحبة المخالب القرمزية: «أتت كي تسلم نفسها».

يرتفع حاجبا المحقّقة ستارك. تقول لي: «تعالي معي!».

أشكر صاحبة المخالب، ثم أسير خلف المحقّقة، فنجتاز الممر ونصل إلى غرفة زرتها من قبل في ظل ظروف لا أحب أن أفكر فيها. الغرفة مثلما أذكرها تمامًا... مصابيح نيون ساطعة إلى حد مزعج، غرفة تكسوها طبقة من أوساخ المجرمين وقذارتهم.

تقول ستارك مشيرة إلى كرسي متسخ أسود اللون أمام طاولة بيضاء مبقّعة: «اجلسي!». أجلس على الكرسي المقزز. تجلس المحققة قبالتي.

لست أدري تمامًا كيف أبدأ الكلام، لأنني لم أعترف من قبل بأية جريمة ارتكبتها. لذا، أظل صامتة في انتظار عثوري على كلمات أقولها. يومض مصباح أحمر في زاوية النافذة خلف المحققة.

تسألني ستارك: «هل تريدين قهوة كي يصير الأمر أكثر سهولة؟».

أجيبها: «لا أريد قهوة». عندما كنت هنا آخر مرة، طلبت شايًا فجلبَتْ لي ماءً، جلبَتْه في فنجان من ستيروفوم ذي صرير يؤذي الأذن. إن حدث هذا مرة ثانية، فلا أظن أنني سأكون قادرة على إرغام الكلمات على الخروج من فمي.

تنظر المحقّقة إليّ مليًّا، ثم تقول: «لا بأس! ذكرت لنا سبب وجودك

هنا، وفي وسعك الآن أن تقولي كل شيء. سوف ترتاحين بعد أن تتكلمي. أعدك بهذا».

أستنشق نفَسًا عميقًا، ثم أزفر وأقول: «لم أستطع العيش في الكذب. كأنه يأكلني حيّة. إنني أفكر في جدتي وفي خيبة أملها الكبيرة إذا علمت ما فعلت. هي لا تعلم ما فعلت لأنها ميتة».

تجيبني المحقّقة ستارك: «أنت الآن تفعلين ما هو صائب، يا مولي! وأنا مستعدة لسماع اعترافك».

أقول: «لقد ارتكبت جريمة».

«نعم. أفهم هذا. لكن عليك أن تكوني أكثر تحديدًا. عليك أن تقولي بصوت عالٍ إنك قتلت السيد غريمثورب. إنك سمّمته».

أقول مستغربة كلامها: «ماذا؟».

لا أستطيع تصديق ما تسمعه أذناي... «أنا لم أفعل ذلك! ماذا تظنينني؟ قاتلة؟».

«أنت التي قلت إنك هنا لكي تعترفي».

«كي أعترف بالكذب، لا بالقتل. لقد انتحلت شخصية شرطية؛ وأنا نادمة على ذلك أشد الندم. حاولت الإفصاح عن حقيقتي، لكن محاولتي لم تلقَ أذنًا صاغية لدى الحِملان. ألا ترين هذا؟».

تقول ستارك: «لا، لا أرى هذا، يا مولي! لا أراه لأن كلامك لا معنى له، كعادتك. لا أدري لماذا لا أزال أجد ذلك مفاجئًا».

أصمت لحظة إلى أن أستطيع استجماع شتات نفسي. ثم أبدأ من البداية وأوضح للمحققة ستارك التفاصيل الدقيقة لما جعل تلك السيدات تصدقن أنني محقّقة أعمل في الخفاء، وكيف رفضن تصديق الحقيقة على الرغم من محاولاتي كلها... رفضن تصديق أنني مجرد خادمة في الفندق.

مع بلوغي ختام كلامي، أقول: «إذًا، أنت ترين الأمر الآن! لقد

ارتكبت جريمة انتحال شخصية. وربما أكون قد ارتكبت أيضًا جريمة عرقلة العدالة. في وسعك الآن أن توجهي إليّ الاتهام، فأنا أستحقه».

تقول المحققة: «أوجه إليك الاتهام!؟... لأن حفنة نساء في أواسط العمر مهووسات بالكتب اعتبرنك محقّقة في الشرطة؟».

في تلك اللحظة، يستوعب عقلي ما قالته المحققة ستارك قبل قليل. أقول لها: «انتظري! هل مات السيد غريمثورب مسمومًا؟».

تتنهد المحقّقة ستارك. «لقد وصلنا تقرير التشريح وتقرير السموم. وجدوا في الشاي مادة إيثيلين غليكول. لم نعلن عن الأمر بعد، لكنك ستسمعينه عما قريب لأننا سنعقد مؤتمرًا صحافيًا بعد ساعة واحدة من الآن. هل لديك أية فكرة عن وصول مادة إيثيلين غليكول إلى فنجان الشاي، يا مولي؟». تطرح المحققة ستارك هذا السؤال وتميل صوبي بطريقة أحسّها، بكل تأكيد، أشبه بغزوٍ فضائي.

أجيبها: «كيف لي أن أعلم كيف وصل مانع التجمّد إلى شايه؟».

تستند المحقّقة ستارك إلى الطاولة بمرفقيها. تقول: «أنا لم أقل شيئًا عن مانع التجمد».

أقول موضحة: «إيثيلين غليكول مادة تمنع التجمد. بصراحة، الحقيقة أنني في دهشة كبيرة من أن محقّقة شرطة في مثل مكانتك لا تعلم هذا الأمر».

ترفع المحقّقة ستارك يديها إلى جبهتها وتقول: «فليكن الرب في عوني! يا مولي، لم أقل لك أبدًا إن إيثيلين غليكول يمنع التجمد. ثم إن هذا ليس أمرًا يعرفه الناس جميعًا، أليس كذلك. ألا ترين كيف يجعلني هذا أظن أنك قاتلة غريمثورب؟». تضيق عيناها وتنظران إليَّ بطريقة غير لطيفة أبدًا.

أسألها: «هل تظنينني غبية؟ ينبغي أن تعلمي أن لي اطلاعًا واسعًا على المواد الكيميائية والمواد السامة. لا أعلم هذه الأمور من خلال مسلسل

كولومبو وحده. فقد حكت لي أنجيلا ذات مرة قصة حقيقية عن امرأة قتلت زوجها الأول ثم زوجها الثاني بأن وضعت مانع تجمد في الفطائر التي تخبزها. وكان هناك فيلم تلفزيوني عن هذا الأمر اسمه '*الأرامل السود*'. أظن أن اسمه كان هكذا. إنه واحد من الأفلام المفضّلة عند أنجيلا».

تسألني المحققة: «أنجيلا؟ من تكون أنجيلا؟».

أجيبها، «إنها عاملة البار في مطعم سوشال. اسم الفيلم موفّق جدًا، ألا تعتقدين هذا؟».

تشبك المحقّقة ستارك ذراعيها. «ما أظنه هو أنك إن كنت تعلمين هذا القدر كله عن السموم، فأنت تعلمين تمامًا سبب استخدام مانع التجمّد في قتل السيد غريمثورب».

أقول: «الحقيقة أنني أعلم هذا لأن مذاقه حلو، بل شديد الحلاوة. وتستطيعين إخفاءه في أي شيء تقريبًا».

تجيبني المحقّقة ستارك: «تمامًا. وكيف تناول السيد غريمثورب شايه، يا مولي».

«تناوله مع العسل، مع كمية كبيرة من العسل».

تقول المحقّقة ستارك بصوت غنائي مزعج: «هذا صحيح! ومن الذي وضع وعاء العسل على عربة الشاي، يا مولي؟».

أقول بجدية واثقة تمامًا: «أنا». لا أدرك إلا بعد أن تخرج الكلمة من فمي أن هذا يمكن أن يُساء فهمه كثيرًا. أقول لها: «لكني لم أسمّم السيد غريمثورب. ليس لديَّ ما يدفعني إلى تسميمه».

تجيبني المحقّقة ستارك: «وجدنا بصمات أصابعك في كل مكان من عربة الشاي».

«بالطبع، وجدتم بصمات أصابعي. وأنا واثقة أيضًا من أنكم وجدتم بصمات ليلي».

تنخر المحقّقة ستارك بأنفها، لكنها لا تجيب بشيء.

«أتيت كي أعترف بجريمة لن تعتقليني من أجلها، لكني أكتشف الآن أنك راغبة، من جديد، في اتهامي بجريمة قتل لا أعلم عنها شيئًا. أيتها المحقّقة ستارك، إذا كنت تعتزمين اعتقالي، فمن الأفضل أن يكون لديك دليل يربطني بالجريمة، دليل يربطني بها من غير أي ظلّ من الشك. لا تستطيعين اعتقالي من غير إثبات وجود الدافع، وبعض الأدلة، وسلاح الجريمة. ما أراه حتى الآن، هو أن لا شيء لديك في هذه اللحظة غير أن جريمة قد وقعت».

تسألني المحققة ستارك: «إذًا، أين هو، يا مولي؟ أين وعاء العسل؟ هل احتفظت به عندك تذكارًا؟ أم إنك رميته في سلة المهملات؟».

أسألها: «لماذا لا تتحقّقين من الأمر في الفندق؟ إذا كنتُ غبية إلى حد يجعلني أسمّم رجلًا شهيرًا وأترك بصمات أصابعي في كل مكان من عربة الشاي، فمن المنطقي أن أكون قد تركت وعاء العسل في خزانتي».

تضحك ستارك وتجيبني: «الليلة الماضية، سمح لي سنو بتفتيش خزانتك، لم أجد فيها الكثير».

أطلق زفرة عالية الصوت. «هل فتشت خزانتي من دون إذنٍ مني؟».

تسألني المحقّقة: «هل أنت جادة؟».

أقول: «كان قدومي إلى مركز الشرطة غلطة فظيعة. أنت لا تريدين رؤيتي على حقيقتي مهما كان الجهد الذي أبذله من أجل ذلك. هل انتهينا، أيتها المحقّقة؟ هل أستطيع الذهاب الآن؟».

تجيبني المحققة ستارك: «أنا لا أستطيع منعك. لكني سوف أراقب كل حركة من حركاتك يا مولي. إن لديَّ عيونًا في الفندق. لديَّ عيون في كل مكان».

جملتها سخيفة تمامًا... إلا إذا كانت عنكبوتًا أو حشرة طائرة. لكني أرى أن المحقّقة متوترة جدًا، فأقرر عدم التعليق على مبالغتها في شأن العيون.

بدلًا من ذلك، أقول لها: «إلى اللقاء، أيتها المحقّقة». ثم أنحني لها انحناءة كبيرة وأنصرف.

***

أبدأ بالتنفس من جديد بعد أن أصير خارج مركز الشرطة وأعبر الشارع إلى الناحية الأخرى. وعندما أتنفّس، أدرك مدى خطورة الوضع. لم تكن ميتة السيد غريمثورب ناتجة عن أسباب طبيعية. لقد قُتل بدم بارد. ثمة مَن سمَّمه. ومن المحتمل تمامًا أن يكون الذي سممه لا يزال موجودًا في الفندق. عليّ أن أعود وأخبر السيد سنو بهذا قبل أن يُعلن النبأ على الملأ.

تتسارع خطواتي وأندفع عائدة إلى الفندق بأقصى سرعة تستطيعها قدماي. قبل بضع مبانٍ من وصولي إلى الفندق أرى على الرصيف الآخر شيئًا يجعلني أتوقّف في مكاني. أسير بخطوات حذرة حتى أبلغ متجر الرهونات الذي في الشارع، المتجر ذا واجهة العرض الزجاجية الكبيرة واللافتة المنارة بالنيون المكتوب عليها (24/ 7).

السيد بريستون يقف أمام المتجر. أراه ينظر إلى شيء في واجهة العرض. يدخل المتجر وأسمع رنين الجرس المعلّق فوق الباب مع اختفائه في الداخل. الأمر في حد ذاته ليس مهمًا... صديقي السيد بريستون، بواب الفندق، يستعرض ما هو موجود لدى متجر الرهونات. ليس هذا أمرًا مقلقًا أبدًا.

المشكلة هي ما أراه بين يديه عند دخوله. ذلك الباب الخشبي ذو اللون الداكن، والعين الوحيدة التي تنظر عبر ثقب المفتاح - حتى من تلك المسافة، كنت قادرة على تمييز غلاف الكتاب بكل وضوح.

إنه نسخة من الطبعة الأولى النادرة من كتاب «*الخادمة في القصر*» بقلم ج. د. غريمثورب.

الفصل الثالث عشر

في ما مضى

على الدوام، كان الأمر هكذا بالنسبة إليّ، أنا صاحبة العين التي تلاحق التفاصيل. أرى أمرًا من الأمور، لكني أغفل عن أمر آخر. أراقب بكل انتباه، لكني أكون غير منتبهة إلى ما يلاحظه الآخرون من غير كبير مشقة.

بعين عقلي، أرى نفسي طفلة من جديد، طفلة تحمل بطاقة تقييم مدرسية تقول إن سلوكي الاجتماعي ضعيف جدًا، وتعلن رسميًا أنني فاشلة فتأمرني بإعادة العام الدراسي. مضى نحو أسبوعين على عملي مع جدتي في القصر. ومع كل يوم يمر، أكتسب ثقة متزايدة بقدراتي. أما الآن، فإن تقديري الذاتي يتبخر في لحظة واحدة عندما أحمل بطاقة التقييم بيدي.

لا أستطيع حتى أن أنظر إلى جدتي. ولشدة خجلي من نفسي، تحمرّ وجنتاي حتى تكادان تحترقان. أود أن أمزّق الورقة إلى مليون ندفة، أن أضرم بها نارًا، أن أجعلها رمادًا. لكن جزءًا مني يستبد به الفضول إلى معرفة المزيد في شأن ما يجعلني مختلفة عن بقية أقراني.

أسألها: «جدتي، كيف يمكن فهم أنماط السلوك الاجتماعي كلها؟».

تضحك جدتي وتقول: «أوه، يا مولي! ما من أحد، حتى أنا، قادر على فهمها كلها. التفاعلات الاجتماعية معقدة. كلما ازددْت خبرةً في التعامل مع الآخرين، كلما صرت أكثر قدرة على رؤية كيف تجري الأمور».

أقول: «اشرحي لي هذا».

تصمت جدتي قليلًا كي تفكر في الأمر، ثم تقول: «بعض الأحيان، يكون ما لا تستطيعين رؤيته هو ما يمنح الأمر شكله ومعناه. على نحو مفاجئ، تصيرين مدركة لما لم يُقل أبدًا بصوتٍ عالٍ، لكنك تعرفين أنه جزء جوهري من المعادلة -الجزء المجهول الذي لا نراه- تعرفينه حتى إن كان غير مرئي، بل حتى إذا لم يكن موجودًا فعلًا».

أحاول بكل ما أستطيع أن أفهم ما تقوله جدتي، لكني أعجز عن ذلك. إن كان أمر من الأمور غير موجود، فهو ليس هناك. وإن لم يكن هناك، فما من شيء تُمكن رؤيته. أقرر في تلك اللحظة أن الأمر ميؤوس منه، وأنه ميؤوس مني. لن أتعلم أبدًا!

تنحني جدّتي وتنظر في عينيَّ: «لا تصدقي بطاقة التقييم هذه، يا مولي. أنت لست فاشلة. إن كان ثمة ما هو فاشل، فهو نظام التعليم. هذه ليست أكثر من قطعة ورق سخيفة ترفض الاعتراف بنقاط القوة الموجودة عندك».

أقول: «نقاط القوة!؟».

«نعم! نقاط القوة. لديك نقاط قوة كثيرة. قد تغفلين عن بعض الأمور اللطيفة من وقت إلى آخر، لكن قلبك وروحك في المكان الصحيح».

قلبي في الناحية اليسرى من صدري. أعلم هذا لأنني أستطيع الإحساس به عندما أضع يدي على صدري. وبحسب بحثي في المكتبة، أنا سليمة من الناحية التشريحية. أما عن روحي، فلست أدري أين هي. لعلها شبيهة بذلك العنصر المجهول في معادلة جدتي... شيء له شكل لا يُفصح عنه إلا ما هو موجود من حوله.

تقول جدتي: «بما أنك تطرحين مسألة القدرات الاجتماعية، أود القول لك إنك لست مضطرة إلى الإكثار من تكرار عبارة 'نعم، يا سيدتي' في حضور السيدة غريمثورب، أو في حضور أي شخص غيرها. إبداء الاحترام أمر حسن، لكن الإفراط فيه قد يجعل الناس يظنونك خانعة.

«خ-ا-ن-ع-ة. المعنى: مفرطة في الطاعة».

«صحيح. وهي تعني أيضًا 'خاضعة'. شخص ليس لديه احترام لنفسه. وبما أننا نتكلم في هذا الأمر، أقول لك إنك لست مضطرة إلى تهجئة الكلمات عندما تودّين معرفة معانيها. أنا معجبة بتهجئتك، لكن هذا لا يعني أنها تعجب الجميع. من الأفضل أن تقللي من تهجئة الكلمات على مسمع من الناس».

تقترب جدتي مني وتطوّقني بذراعيها، تعانقني وتقبّل أعلى رأسي: «وأيضًا، تذكّري يا مولي: كيفما يكن الأمر، فسوف أظل دائمًا فخورة بك. من حقكِ أن تُبقي رأسك مرفوعة مثلما هو من حق أي إنسان».

أرفع رأسي وأنظر إلى جدتي: «ذقن مرفوعة!».

تجيبني: «هذه هي فتاتي. مولي، سوف أنزل إلى الأسفل كي أجمع الملابس المغسولة. سأطويها وأعود سريعًا قبل أن تتمكني من قول 'جيميني كريكيت'».

لديها اليوم، ثلاث دفعات من الغسيل. حتى لو لم تكن لديها غير دفعة واحدة، فأنا قادرة على قول 'جيميني كريكيت' ألف مرة قبل أن تنجز طيّها كلّها. لكني أدرك أن جدتي تستخدم تعبيرًا مجازيًا. هي لا تعني حرفيًا تلك العبارة التي قالتها - المعنى: لا تعنيها تمامًا أو على نحو دقيق.

تفتح باب البيت كي تخرج، لكنها لا تلبث أن تلتفت إليّ وتقول: «إذا أتى السيد روسو في غيابي، فأرجو أن تسلميه المغلف الذي تركته على طاولة المطبخ. ومن فضلك، اطلبي منه وصل استلام. من جديد، أتى ذلك اليوم من الشهر». تقول الجملة الأخيرة ويبدو عليها مظهر الإرهاق.

أدرك تمامًا ما تعنيه بعبارة «ذلك اليوم من الشهر». تعني اليوم الأول من الشهر الذي هو موعد استحقاق دفع إيجار الشقة. سوف يكون السيد روسو هنا في أية لحظة. سيأتي بأنفه المتفخ، ورأسه المنتفخ مثله، ويطرق بابنا مطالبًا بما هو من حقه.

أسأل جدتي: «لماذا يُدعى لاند لورد[1]. مسلكه لا يشبه مسلك اللوردات».

تجيبني جدتي: «ألا يبدو لوردًا؟ يطلب المال من أجل بيت رديء، ويريد أن نتغاضى عن ضعف الخدمات، ويتعامل مع ما يملكه كأن العالم كله ملك له. لكن، أعطه الإيجار، على أية حال. ففي آخر المطاف، نحن نريد البقاء هنا. لذا، كوني مهذّبة».

«أنا مهذّبة دائمًا».

تقول لي جدتي: «صحيح، أنت مهذبة دائمًا». تبتسم لي وتخرج من الشقة. تغلق الباب من خلفها. أستطيع سماعها تدندن بشيء لنفسها وهي تسير في الممر متجهة صوب السلم. بعد ذهابها، أجعّد بطاقة التقييم حتى تصير كرة صغيرة، ثم أرميها في سلة القمامة في المطبخ.

لا يطول الوقت قبل سماعي أحدًا يدق الباب: «آتية!». أقولها وأنا أحمل كرسي المطبخ وأسير به صوب المدخل. تقول لي جدتي دائمًا أن أنظر من ثقب الباب قبل أن أفتحه. أضع الكرسي عند الباب، وأصعد عليه، وأنظر إلى الخارج. إنه ليس السيد روسو. أرى امرأة شابة لا أعرفها، امرأة شعرها أسود فاحمًا وعينيها مرحتين.

أخاطبها عبر الباب المغلق: «طاب يومك! هل لي بسؤالك من تكونين؟».

تقول الشابة من خلف الباب: «سأقول لك اسمي إذا قلت لي اسمك». أصمت لحظة وأفكّر في هذا الأمر. لا تبتعد عيني عن ثقب الباب.

«تقول جدتي إن عليَّ ألا أقول اسمي لأشخاص غرباء. وأيضًا، عليّ ألا أفتح الباب لشخص غريب».

تتململ المرأة في مكانها كأنها في حاجة ملحة إلى استخدام المرحاض. تقول لي: «أنا لست غريبة. جدتك تعرفني جيدًا. وأنا

---

(1) landlord ـ لاند لورد: تعبير يعني مالك العقار.

أعرفك. اسم جدتك فلورا، واسمك مولي. لقد كنتُ هنا من قبل، لكنك لا تتذكرين هذا لأنك كنت صغيرة جدًا لا تبلغين ركبة جرادة. هذا ما كانت تقوله جدتك».

يبدو كلامها باعثًا على الاطمئنان، لكنني قرأت «علي بابا» وأعلم أن عليَّ ألا أفتح الباب قبل سماع الكلمة السحرية. أقول لها: «أثبتي لي أنك كنت هنا من قبل».

تحكّ المرأة رأسها وتقول: «أممم، لا بأس!... فنجان الشاي المفضل عند جدتك مرسوم عليه كوخ صغير. وهي تضع ذلك الفنجان على رف عند الموقد في المطبخ».

هذا صحيح مئة بالمئة. هذا أمر لا يستطيع معرفته إلا من كان في شقتنا فعلًا.

مع ذلك، أقرر مطالبتها ببرهان ثانٍ. أسألها: «كيف تعرفين جدتي؟».

تقول وهي تحاول النظر عبر ثقب الباب: «أوه، كنا نعمل معًا».

«أين؟».

«في... مممم... في ذلك القصر. في قصر غريمثورب».

«ماذا كنت تعملين هناك؟».

«ماذا تظنين؟ كنت... كنت خادمة».

صرت الآن مقتنعة بكلامها. أقفز عن الكرسي وأدير المفتاح في القفل، ثم أفتح الباب.

الشابة تقف أمامي خافضة رأسها تنظر إليّ بعينين متسعتين. يبدو لي وجهها متعبًا، شاحبًا. كأنها في حاجة إلى ضياء الشمس. أراها ترتجف كأنها تحس بالبرد مع أن هذا اليوم ليس باردًا أبدًا. أنتبه إلى آثار حمراء على ذراعيها. أعلم سبب هذه الآثار. نحن أيضًا، لدينا بقّ الفراش. ساقاي مثل ذراعيها... عليهما علامات حمراء كثيرة تثير الحكة.

تحدّق الشابة فيّ من غير أن تقول شيئًا.

أسألها: «هل قلت لي إنك صديقة جدتي؟».

تومئ برأسها بشدة وتقول: «صحيح».

لا تبدو لي شبيهة بأية واحدة من صديقات جدتي اللواتي رأيتهن من قبل. عادة ما يكون لصديقات جدتي شعر رمادي ونظارات... أي مثل جدتي. تأتين حاملات ملابس صوفية اشترينها بأسعار بخسة، أو فطائر طازجة صنعتها أيديهن. أفتح الخزانة الصغيرة عند الباب وأتناول قطعة القماش كي أنظّف حذاء السيدة الشابة، لكنها تأخذها من يدي وتعلم تمامًا ما ينبغي أن تفعل بها. هذا برهان إضافي على أن ما قالته لي حقيقي. بكل تأكيد، كانت هنا من قبل.

تمسح أسفل حذائها الرياضي القديم المتسخ، ثم تخلع الحذاء من قدميها وتضع الفردتَيْن على الحصير الذي عند الباب من الداخل. تجول عيناها في الشقة.

«واو! كأن الزمن قد عاد بي إلى ذلك اليوم. لم يتغير أي شيء، ولو قليلًا». تنتبه إلى الكرسي عند الباب. على ذلك الكرسي، الوسادة التي فرغت جدتي من تطريزها منذ فترة وجيزة.

تقول: «لا تزال تمارس هواياتها اليدوية». تحمل الوسادة وتقرأ بصوت عالٍ ما كتبته جدتي عليها: *«اللهم امنحني سكينة لأتقبل ما لا أستطيع تغييره، وامنحني شجاعة لأغير ما أستطيع تغييره، وامنحني حكمة التمييز بين هذا وذاك»*.

تقول المرأة: «واو! يبدو هذا شبيهًا بكلام من كانت ترعاني».

أقول: «يرعى. المعنى: يشجع ويساند».

«نعم، شيء من هذا القبيل».

أنتبه عند ذلك إلى أن سلوكي غير مهذب. لا يحدث كثيرًا أن أكون مسؤولة عن استقبال الضيوف. الحقيقة، أن هذا لم يحدث قبل الآن

أبدًا. أسألها: «ألا تحبين أن تدخلي؟». أقول في نفسي إن جدتي ستكون شديدة الفخر بحسن سلوكي.

تسألني المرأة الشابة: «أين هي؟ أين جدتك؟».

أجيبها: «تطوي الملابس المغسولة في الأسفل. لديها اليوم ثلاث دفعات. لقد صار لدينا عدد كبير من قطع النقود المعدنية في حصالة التوفير الخاصة». أقول هذا وأرافق ضيفتي إلى المطبخ. تقف أمام الطاولة وتمد يدها كي تمسها برفق كأنها تداعب قطة تحبها، لا قطعة أثاث خشبية عتيقة.

أسألها: «ألا تتناولين فنجان شاي؟».

تجيبني: «لا. لست في حاجة إلى شيء».

«اجلسي، من فضلك!». أشير إلى مكان جدتي المعتاد عند الطاولة.

تقول وهي تسحب الكرسي وتجلس عليه باحتراس، «شكرًا. أنت... مهذبة فعلًا. أنت مختلفة كثيرًا عمّا تخيلت. اقتربي ودعيني أنظر إليك جيدًا».

أقف أمامها، فتمسك يدي بين يديها. تنحني صوبي. وجهها قريب من وجهي. وفي تلك اللحظة، تبدأ بالبكاء.

أقول لها: «أنا آسفة جدًا! علمتُ في الآونة الأخيرة أنني فاشلة اجتماعيًا وأنني لا أستطيع بلوغ مستوى أقراني مهما حاولت. لا أدري ماذا فعلت كي أجعلك تحزنين هكذا. لكنني أؤكد لك أنني لم أتعمد فعله».

تُفلت يدي وتمسح عينيها. تقول لي: «لم تفعلي شيئًا خاطئًا».

أقول: «ربما لم أعجبك. هناك أشخاص كثيرون لا أعجبهم».

«لا... أنت تعجبينني. لا فكرة لديك أبدًا. لكن الأمر... فقط... كأنني أنظر في مرآة».

عندها، يصير كل شيء واضحًا. أعلم تمام العلم ما يتعيّن عليّ فعله.

أتناول منديلًا من علبة المناديل على طاولة المطبخ. أقول لها: «منديل من أجل مشكلتك».

تأخذ المنديل من يدي. تجيبني: «شكرًا! يا مولي، كنتِ غير قادرة على الكلام عندما رأيتك آخر مرة. كانت جدتك قلقة عليك. كانت قلقة من احتمال أن تكبري وتكوني...». تصمت لحظة كأنها لا تستطيع العثور على الكلمة التي تريد قولها.

أحاول مساعدتها: «مختلفة؟».

«صحيح. مختلفة».

أقول: «أنا مختلفة. لكني أستطيع الكلام من دون أية مشكلة. والحقيقة أنني أجد صعوبة في الالتزام بقاعدة 'ينبغي أن يكون الأطفال مرئيين، غير مسموعين'، أو قاعدة 'لا مرئيين ولا مسموعين'... أو، مهما تكن تلك القاعدة. إنني أستمتع باستخدام الكلمات. هل تستمتعين بهذا مثلي؟ تعجبني كلمة 'ثرثار'. أية كلمة تحبين؟».

تتمخط في المنديل. «أحب كلمات أكثر بساطة. في هذه اللحظة، أحب كلمة 'بيت'». تبدأ بالبكاء من جديد، لكن عينيها تقعان في تلك اللحظة على المغلف الموضوع على الطاولة. تتوقّف دموعها على الفور مثلما يتوقّف انصباب الماء من حنفية الحمام عندما أدير مقبضها يمينًا بعد أن أغسل يدي. تهز رأسها وتقول: «يا ربي! إنه اليوم الأول من الشهر. ألا يزال ذلك الرجل مالكًا لهذا المكان؟ كان اسمه...».

أقول: «اسمه السيد روسو. وهو لا يزال مالك هذه الشقة. توقّعت أن يكون هو الذي يدق الباب، لا أنتِ».

يتزايد تنفّسها سرعة. تدعك رأسها، تدعكه دعكًا شديدًا يجعلني متوترة الأعصاب.

تقول لي: «مولي، هل لديكم لصاقات طبية؟».

أقول: «أوه، لا ينبغي أن تخجلي من مظهر ذراعيك. بقّ الفراش

ليس غلطتك. تقول جدتي إنه ينتقل من شقة إلى شقة لأن مالكي الشقق يقتّرون في الإنفاق على النظافة. هذا لا يعني أنك غير نظيفة».

تقول لي: «أنا غير نظيفة، يا مولي. هذه هي مشكلتي بالضبط».

أسير في الممر، وأذهب إلى الحمام، أفتح الخزانة الصغيرة تحت المغسلة. حقيبة الإسعافات الأولية في آخر الخزانة. أخرجها من الخزانة وآخذ منها ثلاث لصاقات من أكبر مقاس كي أقدمها إلى صديقة جدتي. أخرج من الحمام فأراها تقف عند باب الشقة، أراها تضع قدميها في حذائها القديم القذر. أراها تمسح عينيها بالمنديل الورقي.

أسألها: «هل أنت ذاهبة؟».

تقول: «أنا في عجلة من أمري».

«ألن تنتظري جدتي؟ أنا واثقة من أنها ستكون مسرورة برؤيتك».

«لا. كانت هذه غلطة. لا أريد أن تراني على هذه الحال».

«ها هي اللصاقات من أجلك».

تقول: «احتفظي بها. من الذي أحاول خداعه؟ لا أستطيع إخفاء حقيقتي». تدير مقبض الباب وتفتحه.

أقول: «انتظري! ماذا أقول لجدتي؟».

تتوقف لحظة ثم تقول: «قولي لها... قولي لها إنها توفر لك رعاية جيدة حقًا. وقولي لها إنني اشتقت إليها». تبدأ البكاء من جديد، فأحس ألمًا في قلبي وفي بطني. أحس ألمًا لا أفهمه.

أقول: «انتظري! أنا لا أعرف اسمك».

تقول: «اسمي؟». تصمت لحظة وتنظر إليَّ... «اسمي ماغي».

أقول: «سرّني لقاؤك، يا ماغي!». أمد إليها يدي، لكنها لا تصافحها بل تضمها بين يديها ثم تقبّلها قبل أن تفلتها.

أقول لها: «عودي لزيارتنا في أي وقت!».

تضع يدها على شعري، ثم تبعدها. تقول: «وداعًا، يا مولي!». تستدير

مبتعدة عني، ثم تغلق الباب من خلفها. أقفل الباب على الفور. *اقفلي الباب جيدًا، في الليل وفي النهار!*

استند إلى الباب لحظة. أحس نفسي مضطربة، وأحس دوارًا، لكني مستثارة أيضًا. أحس أنني قد كبرت فعلًا. لقد استقبلت زائرة، استقبلتها بنفسي، استقبلتها وحدي! إن كانت هذه هي العلاقات بين الكبار، فقد تكون شيئًا في مستطاعي. الأمر ليس هكذا مع الأطفال؛ فهم فظيعون، وهم وضيعون، فظّون، يهينونني. مع أن صديقة جدتي كانت حزينة، فقد كنت قادرة على تدبّر الأمر. عرفت أيضًا كيف أجعلها في حالٍ أحسن قليلًا.

أذهب إلى الحمّام كي أعيد اللصاقات الطبية إلى مكانها في علبة الإسعافات الأولية. وأثناء إعادتها إلى مكانها، أسمع صوت المفتاح يدور في القفل. أخرج من الحمام لحظة تدخل جدتي الشقة حاملة سلة مترعة بالملابس المغسولة المطوية طيًا أنيقًا. تضع السلة على الأرض وتطلق تنهيدة طويلة. تقول وهي تغلق الباب وتقفله، «يا للسماء، يا مولي! غرفة الغسيل حارة كالجحيم». تخلع حذاءها، وتمسحه، ثم تذهب إلى المطبخ مباشرة وتملأ كأس ماء كبيرة. أتبعها إلى المطبخ.

أقول لها: «جدّتي، كانت لدينا ضيفة. لكن، لا تقلقي! علمت أنها ليست غريبة لأنني طرحت عليها أسئلة فكانت إجاباتها صحيحة كلها. علمت أنها تعرفك. وهي تعرفني أيضًا. تعرفني عندما كنت صغيرة لا يتجاوز طول قامتي ركبة جرادة. وهي خادمة، يا جدتي. كنتما تعملان معًا. سرّني لقاء خادمة أخرى مع أن على ذراعيها آثار لسعات بقّ الفراش. الأمر مثلما تقولين لي: لا نستطيع لوم الناس على ظروفهم. أوه... قالت أيضًا إنك ترعينني جيدًا؛ وقالت إنها مشتاقة إليك. ينبغي أن أخبرك بهذا كله».

تضع جدتي الكأس من يدها. فمها مفتوح، مفتوح واسعًا، واسعًا

جدًا. لو كان بقّ الفراش لا يزال موجودًا عندنا، لاستطاع أن يدخل فمها من غير صعوبة. تتجه نظراتها إلى طاولة المطبخ.

تقول لي: «هل أتى السيد روسو؟ أرجوك، قولي لي إنه أتى وأخذ المغلف».

أنظر إلى طاولة المطبخ.

عندها، أفهم الأمر، أفهم ما قالته لي جدتي في وقت سابق عن الأمور غير المرئية.

يتبادر إلى ذهني أمران اثنان... يتبادران إليه معًا: الضيفة التي كانت عندنا، والمغلف الذي فيه نقود الإيجار. أرى المعادلة تتشكل في ذهني؛ لكن الأوان قد فات.

اختفت زائرتنا، واختفى مغلف النقود.

الفصل الرابع عشر

لم أنم جيّدًا. ظللت أتقلب طيلة الليل. مددت يدي إلى خوان مانويل فلم أعثر عليه، ليس موجودًا. لم أجد غير مساحة شاغرة على الفراش. فكّرت في الاتصال به في آخر الليل. فكّرت في إخباره بكل ما جرى خلال اليومين الماضيين. لكنه لا يستطيع فعل شيء لمساعدتي، لا يستطيع فعل شيء عندما يكون بعيدًا ذلك البعد كله. وأيضًا، ماذا أقول له؟ خوان، *لم أخبرك أن رجلًا قد سقط ميتًا في صالة الشاي في الفندق منذ يومين. وقد اعتُبر موته جريمة قتل. من المحتمل جدًا أن يكون القاتل لا يزال طليقًا في الفندق. أوه... ثمة أمر آخر، صديقنا العزيز جدًا، السيد بريستون، إنه لص. أجد نفسي الآن أتساءل إن كان ممكنًا أن يُقدِم على ما هو أسوأ من ذلك.*

لا عجب في أنني لم أستطع النوم لحظة واحدة.

لا أستطيع أن أبعد هذه الأفكار السيئة عن ذهني. ماذا لو كان السيد بريستون، زميلي وصديقي العزيز، الرجل الذي أعتبره أنقى تجسيد للإنسان الطيب... ماذا لو كان لصًا؟ إن كان قادرًا على السرقة، فما الذي يقدر عليه أيضًا؟

هذا سخف! هذا لا معنى له! أسمع في رأسي صوت جدتي يؤنبني... *الغبي وحده يتسرّع للوصول إلى استنتاجات.* وهي محقة طبعًا. مع ذلك، لا سبيل إلى إنكار ما رأيته عند متجر الرهونات: رأيت السيد بريستون يبيع نسخة نادرة من الطبعة الأولى من رواية ج. د. غريمثورب «*الخادمة في الفندق*» بعد يوم واحد من موت الكاتب، وبحسب قولهم إن قيمة ذلك الكتاب شهدت زيادة صاروخية. هل يمكن أن يكون السيد

غريمثورب قد قُتل بدافع من الجشع وحده؟ وهل يمكن أن يكون للسيد بريستون علاقة بالأمر؟ هذه هي الفكرة الغريبة، غير المعقولة، الفكرة التي قلبتني رأسًا على عقب.

أزيح البطانية عني وأضع قدميَّ الحارّتين في شبشبي. أسير متثاقلة وأدخل المطبخ. الساعة الآن الخامسة صباحًا. لا يزال الوقت مبكرًا على النهوض من الفراش. لكني لم أعد قادرة على الرقود مستيقظة. أتناول من تحت المجلى دلوًا وأملأه ماء. أبحث في الدرج عن قطعة قماش نظيفة. أسير إلى غرفة المعيشة وأضع الدلو وقطعة القماش إلى جانب خزانة جدتي العتيقة المزخرفة.

أشغّل التلفزيون كي يلهيني عن أفكاري، لكن قناة الأخبار تعيد بث المؤتمر الصحافي الذي عُقد يوم أمس. إنها تعيد بث المؤتمر الصحافي الذي أعلنت فيه المحقّقة ستارك أن السيد غريمثورب مات مقتولًا. أنظر إلى المراسلين الصحافيين الذين يمطرون المحقّقة ستارك بأسئلتهم.

«أيتها المحقّقة، هل لديكم أية أدلة؟».

تجيب المحقّقة: «نحن نتابع كل دليل لدينا».

«أيتها المحقّقة: «هل القاتل واحد من النزلاء أم هو من العاملين في الفندق؟».

«لو كنت أعلم هذا، لما رأيتني هنا؟».

«أيتها المحقّقة: قلت إن الشاي قد سُمم بمانع تجمّد. هل تعلمين كيف يمكن أن يكون ذلك قد حدث؟».

«نحن نحاول معرفة هذا. إننا نتتبّع أدلة مهمة متوفّرة لدينا».

«أيتها المحقّقة، هل لديك رسالة توجهينها إلى القاتل؟».

تصمت ستارك لحظة. أحس بأنها تنظر إليَّ مباشرة من شاشة التلفزيون. تقول: «في وسعك إخفاء الحقيقة حينًا من الزمن، لكنها لن

تظل مدفونة إلى الأبد. عليك أن تتذكر هذا». بعد ذلك، تسير المحقّقة مبتعدة عن حشد المراسلين.

أغلق جهاز التلفزيون. أحمل قطعة القماش. أفتح باب خزانة جدتي العتيقة الزجاجي بكل حذر... *التنظيف العميق يمنح الحياة معنى. ما عليك إلا أن تحملي ممسحتك، يا فتاة!*

أقول في نفسي: *صحيح، يا جدتي.*

أبدأ بإخراج كنوزها الثمينة... قطع من كريستال شواروفسكي على هيئة حيوانات، قطع كانت منبع فرحتها واعتزازها. ملاعق تذكارية من بلدان بعيدة لم تستطع أبدًا أن تراها بعينيها.

أنكبّ بهمّة ونشاط على تلميع كل قطعة من تلك القطع، ثم أنتقل إلى الصوَر المؤطّرة المصطفة فوق الخزانة. هناك صورة جديدة لي ولعزيزي خوان مانويل... على وجهينا شاربان متماثلان من الآيس كريم. هناك صور قديمة أيضًا، صور لي ولجدتي. لكني أنظر مليًّا في صورة لأمي عندما كانت صغيرة. شعر داكن مثل شعري، وبشرة بيضاء كالبورسلان، ووجنتان تفّاحيّتان مرتفعتان... ليستا ذابلتين ولا منخمصتين مثل وجنتَي تلك المرأة الغريبة التي سرقت الإيجار في أول يوم من الشهر منذ زمن بعيد جدًا. كنت طفلة، ولم أعلم من تكون تلك المرأة. لم أدرك إلا بعد أن صرت أكبر من ذلك كثيرًا أن ماغي... الغريبة التي دقت بابنا تلك المرة... كانت أمي، وأن رؤيتي كانت من بين الأسباب التي دفعتها إلى المجيء. لا أدري كيف لم أستطع يومها استنتاج هذه الحقيقة. لماذا يحدث لي هذا دائمًا؟ لماذا أفهم كل شيء بعد فوات الأوان؟

والآن، أعيد كنوز جدتي كلها إلى الخزانة. أستحم وأنظف الحمام وأدعك جدرانه، إلى أن تتورم أصابعي وتصير مثل خوخات مجفّفة. أجلس إلى الطاولة العتيقة في المطبخ وآكل قطعة خبز. أمضغ كل لقمة

عشرين مرة، عشرين مرة تمامًا. عندما أغادر الشقة متجهة إلى العمل، يسوق القلق خطواتي كأنه محرك نفّاث.

لن يكون يوم العمل هذا في فندق ريجنسي غراند عاديًا على الإطلاق بعد أن عَلِم الجميع أن السيد غريمثورب مات مسمومًا. لا فكرة عندي عما أستطيع توقّعه اليوم.

أصل فأجد السيد بريستون واقفًا في مكانه عند الباب، أراه يوجّه جماعات النزلاء السائرين على السجادة الحمراء. أشق طريقي بينهم إلى أن أقف أمامه تمامًا.

يقول لي: «مولي، هل سمعت النبأ؟... النبأ عن سبب موت السيد غريمثورب؟».

أقول: «سمعت. أنا حزينة جدًا. من يمكن أن يكون قادرًا على فعل ذلك الأمر، في رأيك؟».

«أشخاص كثيرون. ذلك الرجل لم يكن مثلما يبدو عليه».

أنظر في وجه السيد بريستون، في وجهه الكالح المتوتر إلى حد جعل شفتيه مختفيتين في فمه. «وماذا عنك، يا سيد بريستون؟ هل أنت مثلما تبدو؟».

يسألني وهو يضع يده على ذراعي: «مولي، هل أنت بخير؟ هل تحسّين ضعفًا؟».

أبعد ذراعي. أقول له: «علينا أن نتكلّم، لكن ليس هنا. ليس الآن».

«يا عزيزتي، هذا ما أقوله لك منذ زمن».

أقول: «مقهى حديقة الزيتون عند الخامسة والربع بعد الظهر. أتوقّع وصولك من غير تأخير».

«بالطبع! مولي... هل أنت واثقة من أنك بخير؟».

لا أستطيع تصديق أنه يكرر هذا السؤال. أجيبه: «عليك أن تطرح هذا السؤال على نفسك، لا عليَّ!».

يحدق السيد بريستون في وجهي كأنه يحاول التعرف على ملامح شخص غريب عنه تمامًا.

أقول له: «أتمنى لك يومًا طيبًا!»، ثم أصعد درجات السلم الحمراء وأعبر الباب الدوار الأنيق، باب فندق ريجنسي غراند.

ردهة الفندق أكثر ازدحامًا مما كانت يوم أمس. نزلاء تبدو الدهشة على وجوههم ومتفرجون فضوليون يتهامسون في جماعات صغيرة. لكن المكان أشد هدوءًا مما هو متوقع بالنظر إلى كثرة الناس فيه... هدوء جنائزي في الجو، لا عجب في هذا.

ألمح السيد سنو واقفًا عند مكتب الاستقبال. أراه يهمس بالتعليمات في أذن واحد من عمال الفندق. يبدو لي ذلك العامل متحفزًا، متوترًا. أسير صوب السيد سنو لحظة ينهي كلامه مع ذلك الرجل الذي ينطلق مسرعًا. تتجه عينا السيد سنو البوميّتان صوبي. يقول لي: «مولي، لا أستطيع تصديق هذا. رجل مات مسمومًا. مات هنا، في فندقنا. كيف يمكن أن يحدث هذا؟».

أجيبه: «لا أدري، يا سيد سنو! قضينا السنوات الماضية في محاولة تنظيف سمعتنا التي تلطخت، لكننا نجد أنفسنا الآن أمام لطخة جديدة أشد خطورة. لا أدري إن كنا نستطيع إزالة هذه الوصمة!».

«لا أطيق التفكير في هذا، يا مولي. الشرطة تطرح أسئلة وتثير شكوكًا».

أنظر في أرجاء الردهة فأرى عددًا من الرجال في ملابس سوداء يقفون على مبعدة من الآخرين، في آذانهم سماعات. أسأله: «من هؤلاء؟ لا يبدو لي أنهم نزلاء عندنا».

يجيبني السيد سنو: «إنهم عناصر شرطة متخفّون. وهم منتشرون في كل مكان يراقبون كل حركة من حركاتنا. بدلًا من إغلاق الفندق، طلبت المحقّقة ستارك أن نواصل عملنا ونحاول أن يكون مسلكنا طبيعيًا. هي

ورفاقها من المحقّقين مقتنعون بأن هذه هي الطريقة الأفضل لاكتشاف القاتل».

«ألا يكون القاتل قد فرّ الآن؟».

«يبدو أن الطريقة التي مات بها الرجل توحي باحتمال بقاء القاتل هنا. ذكرت المحقّقة ستارك شيئًا عن الغنائم وعن نتائج تقرير الشرطة عن فنجان الشاي المسموم. الظاهر أن من القتلة من يستمتع كثيرًا بالاختباء تحت أنظار الناس».

تسري رعشة في جسدي. أنظر في الردهة فأرى ظلًا من الشك يكتنف كل شخص فيها.

ينظر السيد سنو إلى الناحية الأخرى من الردهة، عبر الباب الزجاجي الدوار حيث يعمل السيد بريستون من موقع في أعلى السلم على توجيه حركة الناس. يقول السيد سنو: «يصعب تخيّل هذا، لكن المحققين مقتنعون بأن القاتل...». يصمت قليلًا.

أسأله: «قلها، يا سيد سنو! هل يظنون بأن القاتل واحدٌ من العاملين؟ واحدٌ منا؟».

يومئ السيد سنو برأسه بكل جدية.

مَلزَمة غير مرئية تُطبق على قلبي. أتساءل لحظة كيف سأكون قادرة على المتابعة. *نظّفي، يا فتاة!*

أقول له: «من الأفضل أن أذهب. لن ينظف هذا الفندق نفسه بنفسه». ما لا أقوله هو أن طبقة إجرامية من الأوساخ موجودة في كل مكان في هذا الفندق... لكننا غير قادرين على تنظيف ما لا نستطيع رؤيته.

يقول السيد سنو: «كوني يقظة، يا مولي!».

أجيبه: «أنا يقظة دائمًا».

أتركه وأتجه إلى المصعد. لكن أسمع من خلفي صوتًا مألوفًا.

«يو – هو!».

ألتفت فأرى اثنتين من سيدات جمعية المعجبات جالستَيْن على كنبة زمردية اللون عند السلم الكبير. رئيسة الجمعية ذات الشعر المتموج، غلاديس، تلوّح لي بعلمها الصغير الأحمر؛ وبيولا منصرفة إلى التقاط شعر القطط عن كنزتها الفظيعة التي ترتديها دائمًا. هما آخر من أتمنى الحديث معه الآن. لكن السيد سنو يذكّر العاملين دائمًا بقاعدة تقول: «أنت تحت تصرف كل نزيل».

أقترب منهما وأقول: «أيتها السيدتان، آمل أن تكونا بخير؟».

تقول غلاديس: «بخير؟ كيف يمكن أن نكون بخير؟ لقد قُتل ج. د. غريمثورب بدم بارد».

«نحن في حزن شديد». تضيف بيولا هذا وتطوّق نفسها بذراعيها.

تسألني غلاديس: «هل تعلمين إن كان مطعم سوشال سيفتح أبوابه في الوقت المعتاد من أجل وجبة الإفطار لهذا اليوم؟».

أجيبها: «سوف يفتح أبوابه في الوقت المعتاد. في فندق ريجنسي غراند، نفخر بتوفير الخدمات في الأوقات المحددة لها».

تقول بيولا: «جيد! سوف تهدأ معدتي إذا وضعت فيها شيئًا».

صحيح أنني لا أستطيع دائمًا قراءة مشاعر البشر قراءة صحيحة، لكني أعجز الآن عن منع نفسي من الانتباه إلى غرابة الأمر. يبدو لي قلق المرأتين من احتمال خسارة وجبة الإفطار أكبر من قلقهما من احتمال وجود قاتل طليق بيننا. وأيضًا، لماذا هما باقيتان هنا في حين صار احتمال لقائهما بالرجل الذي جاءتا لرؤيته صفرًا؟ يدهشني أيضًا أن ثالثتهما، المرأة قصيرة القامة ذات خصلات الشعر البرتقالية، منفصلة اليوم عن سربها.

أسألهما: «أين المعجبة الأخرى التي أراها معكما دائمًا؟ الآنسة بيردي. هل طارت عائدة إلى موطنها؟».

تقول بيولا: «موطنها! هل هذا مزاح؟ هل تتوقّعين منها أن تفوّت

على نفسها هذه الإثارة كلها؟ إنها تتجول في الفندق، وتجمع معلومات. تتحدّث مع جماعتك فتقترح النظريات والدوافع المحتملة».

أقول: «جماعتي».

«نعم، المحققون السريون، الرجال ذوو الملابس السوداء المنتشرون اليوم في كل مكان في هذا الفندق. نعلم أنهم يعملون معك». تقول غلاديس هذا وتشير إلى واحد من الرجال ذوي السماعات في آذانهم، الرجال الذين يعبرون الردهة من وقت إلى آخر».

أجيبها: «إنهم لا يعملون معي. لست إلا خادمة. هذا كل ما في الأمر».

تقول غلاديس: «بالطبع. نحن نفهم هذا. إيماءة بالرأس، وإيماءة. غمزة بالعين، وغمزة. لن ننطق كلمة واحدة. لكنْ لدينا أمرٌ مهمٌ نحب أن نقوله لك... باعتبارك خادمة، بالطبع».

أقول: «إن كنت تريدين قول هذا لي باعتباري خادمة، فسوف أستمع إليك».

تقول غلاديس: «إنها بيردي».

تحك بيولا جسدها من فوق كنزتها وتقول: «أظنك لاحظت أننا، بيردي وأنا، لا نكون منسجمتَين دائمًا. يجمعنا حب كل ما له صلة بغريمثورب؛ لكني سأقول فقط إن الحب ينتهي هنا. فمنذ سنين كثيرة، نشأت بيني وبينها منافسة مهنية».

تقول غلاديس: «غيرة مهنية. أفضل أن أسميها هكذا».

«كما ترين، أنا مختلفة عن بيردي لأنني... مؤرخة حياة السيد غريمثورب».

تضيف غلاديس: «مؤرخة حياته غير الرسمية».

«ثمة أمر تعلّمته على مر السنين: لا تقللي أبدًا من شأن امرأة صغيرة الحجم. قد تكون بيردي قصيرة القامة، لكنها قوية، صاحبة إرادة، و...».

تقول غلاديس: «ولها تاريخ مع السموم».

تتبادل المرأتان نظرة سريعة.
أسألها: «ماذا تقولين؟».
«منذ عامين، خلال ندوتنا التي تناقش عبقرية ج. د. غريمثورب، الندوة التي نقيمها كل سنتين، كانت بين الحضور أكاديمية تعمل في جامعة محلية. ألقت بيردي محاضرة طويلة بعض الشيء تحدثت فيها عن الجريمة والعقاب في روايات الغموض التي أنتجها ج. د. فرفعت تلك الأكاديمية يدها وقالت إنها لم تفهم يومًا السبب الذي جعل أعماله تحظى بتلك الشعبية الواسعة. قالت إن كتابته متيبسة».
قالت بيولا: «كانت التعبير الذي استخدمته هو أن كتابته مصابة بالإمساك. كان غضب بيردي شديدًا».
تقول غلاديس: «وفي اليوم التالي، عندما عادت تلك المرأة إلى صالوننا، قدمت إليها بيردي قطعة من البراوني صنعتها بنفسها».
تضيف بيولا: «كانت قطعة بنية اللون مثل كنزتي المفضلة هذه؛ وكانت مشبعة بمادة مسهلة. فلنكتف بالقول إن تلك الأكاديمية لم تحضر بعد ذلك أي لقاء من لقاءاتنا».
تهز غلاديس شعرها المتموّج وتقول: «هذه هي بيردي: عقوبة متناسبة مع الجريمة».
تومئ المرأتان معًا برأسيهما.
تقول بيولا: «عندما قالت المحققة في المؤتمر الصحافي إن السيد غريمثورب مات مسمومًا، تبادرت الفكرة نفسها إلى ذهنينا: بيردي».
تميل غلاديس صوبي وتقول: «إذا كانت بيردي قادرة على دس السم في قطعة براوني، فما الذي تستطيع فعله أيضًا؟».
أسألها: «لكن، لماذا تقدم على تسميم معبودها؟».
تقول بيولا: «لأنها غاضبة... غاضبة منه وغاضبة مني. قَتْل ج. د. فيه عقوبة لي وله». تقترب بيولا مني وتخفض صوتها، تهمس بطريقة تآمرية:

«في الآونة الأخيرة، كنت أزداد قربًا من السيد غريمثورب وأُطلعه على أبحاث لا تعلم بيردي عنها شيئًا. وقد ناقشنا، أنا وهو، إمكانية أن أصير مؤرخة حياته الرسمية. لم تكن بيردي مسرورة بهذا. إن بها رغبة دائمة في أن تكون أكثر من مجرد واحدة من كبار المعجبين به. فلنقل فقط إن غيرة شديدة أصابتها عندما قلت لها إنني غلبتها».

تضيف غلاديس: «ومثلما قلنا، كانت غلاديس، على الدوام، شديدة المَيْل إلى *'سم وعقاب'*... أعني الرواية التي تحمل هذا العنوان».

تقول بيولا: «هذا كتابها المفضل من بين كتب ج. د. غريمثورب لأن الوغد ينال جزاءه عن طريق شراب مسموم. أشك في أن يكون الأمر مصادفة».

تضيف غلاديس: «تحدّثنا في هذا الأمر الليلة الماضية، أنا وبيولا. مع أن من الصعب تصوّر أن تنحدر بيردي إلى هذا الدرك، فقد قررنا أن من الحصافة أن نبلغ شخصًا ذا صفة رسمية بالأمر. أنت تفهمين هذا... من باب التحسّب!».

أقول لها: «أنا لست ذات صفة رسمية، إلا إذا كنت تعنين عملي هنا بصفتي كبيرة الخادمات».

تقول غلاديس بصوت عالٍ: «بالطبع! نحن نفهم هذا».

تضع بيولا يدها على ذراعي. تهمس لي: «سوف تتحرّين هذا الأمر، أليس كذلك؟».

أقول: «لن أفعل شيئًا من هذا القبيل. اذهبا وتكلما مع السلطات. والآن، اعذراني لأن عليَّ أن أذهب! غرف الفندق لن تصير نظيفة من تلقاء ذاتها».

تقول غلاديس: «غرفة بيولا خاصة. غرفتها في الفندق تبدو كأنها مرتع للجرذان».

تجيبها بيولا: «ليس الأمر سيئًا إلى هذه الدرجة»، وتمر بيدها على كتف كنزتها فتطلق في الهواء موجة جديدة من شعر القطط.

أستدير وأذهب من غير أية كلمة أخرى. لا بد لي من قول هذا: أحس ارتياحًا لحظة أصير بعيدة عن أعينهما. كل ما في هاتين المرأتين يثير أعصابي إلى أقصى حد.

أندفع نازلة السلم في اتجاه قسم خدمة الغرف حيث أخلع ملابسي وأرتدي ملابس العمل، ثم أضع بطاقة «كبيرة الخادمات» في مكانها الصحيح فوق قلبي تمامًا. لقد وصلت ليلي قبلي. أرى حذاءها على الأرض أمام خزانتها.

بعد ارتدائي ملابس العمل، أتفقد مظهري مرة أخيرة أمام المرآة، ثم أتجه إلى الطابق الثاني. ينفتح باب المصعد فأرى عربة ليلي في نهاية الممر. وعندما أنظر في الاتجاه الآخر، أرى شيريل خارجة من إحدى الغرف. أرى في يديها السمينتين بضع أوراق نقدية صغيرة.

لا! ليس من جديد! هذه ثاني مرة في أقل من أربع وعشرين ساعة أمسك باللصة متلبسة، أراها لحظة ارتكابها جريمتها. لقد عادت شيريل إلى عادتها القديمة. تسرق البخشيش من غرف لم تقم بتنظيفها، تسرق المال الذي يتركه النزلاء من أجل ليلي ومن أجلي.

أصيح: «شيريل!»... أصيح لأنني غاضبة كأنني مرجل يغلي. أسير في الممر إلى أن أقف قبالتها. أقول لها: «كيف تجروئين على هذا؟ تسرقين البخشيش من بقية الخادمات! تعلمين أنه ممنوع عليك تمامًا أن تمدي يدك على المال المتروك من أجل غيرك من العاملين الآخرين هنا. ألا تدركين أن هذا قد يكون سببًا لفصلك من العمل».

ترفع شيريل يدها وتقول: «واو! يا مولي. لا حاجة إلى كل هذا الغضب. مثلما قلت لليلي في وقت سابق، أظن أن من الأفضل لنا جميعًا، نحن خادمات الغرف، أن نجمع البخشيش كله ثم نقتسمه بالتساوي بيننا. ألست أنت التي تقولين دائمًا: تتقاسم الخادمات كل شيء بالعدل والتساوي؟».

أقول: «يعني هذا تقاسم العمل. أنت تخطئين تفسير معناه».

تطل ليلي برأسها من إحدى الغرف. الدوائر السوداء تحت عينيها شديدة الوضوح.

تقول شيريل: «قولي لها، يا ليلي! اتفقنا على تجميع البخشيش كله، أليس هذا صحيحًا؟».

تهم ليلي بأن تقول شيئًا، لكن الكلمات لا تخرج من فمها. لا تفلح في قول شيء سوى: «أنا... أظن!؟»، ثم تهزّ رأسها وتصمت من جديد.

لا يفلح هذا في تهدئة غضبي، بل يجعلني راغبة في أن أغمر يدَيْ شيريل الجشعتين في دلو من القِلي المركّز. لكني أقسر نفسي على الابتسام وأقول لها: «أنا كبيرة الخادمات هنا. أنا من تقرّر كيف يجري توزيع البخشيش بين الخادمات. لا بد لي أيضًا من القول إنني اكتفيت هذا اليوم من رؤية اللصوص القذرين».

تطلق شيريل ضحكة صغيرة ساخرة وتكرّر عبارتي: «لصوص قذرون!؟ أنت تطلقين عليّ صفة سيئة جدًا. من التي نراها الآن تخرق القواعد التي وضعتها بنفسها؟ أتساءل ما قد يقوله السيد سنو إذا قررت أن أبلغه بما سمعت منك، يا مولي! عليَّ الآن أن أذهب. واحرصي على أن تصيح أية واحدة منا بصوت عالٍ إذا رأت قاتلًا يلوّح ببلطته خلف باب إحدى الغرف! أو... من الأفضل أيضًا ألّا تصرخي. من الأفضل أن تظلّي صامتة». تقول هذا وتحدّق بليلي، ثم تنصرّف مجرجرة خطواتها في الممر.

بعد ذهابها، تظهر ليلي من الغرفة التي تنظفها وتقف أمامي. عيناها مسبلتان، نديّتان.

أسألها: «هل اتفقت حقًا معها على تجميع البخشيش؟».

ليلي لا تقول شيئًا، بل لا تتحرك أيضًا.

أسألها: «ألن تكون هناك نهاية لهذا السلوك الصامت؟ أعلم أن هذا

المكان منقلب الآن رأسًا على عقب. وأعلم أنه مخيف، لكن كل شيء سيغدو على ما يرام. سيكون كل شيء بخير آخر المطاف».

يظل وجه ليلي من غير تعبير، يظل قناعًا من همٍّ وقلقٍ. تهمس لي: «هذا الفندق... أشد قذارة مما تخيّلت. لا أعلم ما ينبغي فعله».

«يا ليلي، ثمة أمر واحد ينبغي فعله عند وجود قذارة في المكان. ما ينبغي فعله هو التنظيف».

تنظر ليلي إليَّ لحظةً، ثم تمسك بعربتها فتدفعها وتسير في الممر مبتعدة.

الفصل الخامس عشر

في ما مضى

أنا أقف مع جدتي في المطبخ. إنها توجّه إليّ سؤالًا، لكني أحسّ الأرض تميد تحت قدمي. مع أن جدتي تقف أمامي مباشرة، ومع أن يديها على كتفي، أحس بأنها تكلمني من داخل زجاجة مغلقة تتهادى عائمة على أمواج البحر.

تكرر سؤالها: «من فضلك، قولي لي إن السيد روسو قد أتى وأخذ المغلف».

أقول: «لم يأت السيد روسو. لم يأت السيد روسو لأخذ المغلف». عيناي متعلقتان بطاولة المطبخ. أريد أن يظهر مغلف الإيجار من جديد، لكنه لا يظهر. أعلم أنه لن يظهر.

«تلك المرأة تعرفك. قالت لي إن اسمها ماغي».

تنزلق يدا جدتي عن كتفي. تضعهما على وجهها، تغطي وجهها بهما. يصدر عنها صوت غريب، صوت سمعته قبل الآن مرة واحدة في برنامج وثائقي عن الطبيعة... صوت صدر عن نعجة بعد أن اختطف أسد حمَلها وجرى مبتعدًا به.

«جدّتي... من هي؟ ربما لم يفت الأوان بعد!».

تتدحرج دمعات على وجه جدتي. تقول لي: «أوه، يا فتاتي الغالية! فات الأوان منذ سنين».

أسألها: «لكن، من هي؟».

جدتي صامتة. غضون عميقة على جبهتها. «ألا تعلمين؟ هل صحيح أنك لا تعلمين؟».

أهز رأسي نفيًا.

تقول لي: «ولماذا تعلمين؟ ففي آخر المطاف، هي غريبة بالنسبة إليك».

أقول: «إنها لصة! علينا أن نبلغ الشرطة. يستطيعون إلقاء القبض عليها واستعادة المال منها».

«لا فائدة من هذا يا مولي، لقد ذهبت منذ زمن طويل، وذهبت النقود معها».

تجلس جدتي متكومة على أرض المطبخ. أجلس قبالتها مصالبة ساقيّ تحتي. أحس بأضلاعي تشد على قلبي، وأبدأ استيعاب فداحة مصيبتنا.

«لا تبكِ، يا جدتي! من فضلك! أنا آسفة جدًا».

في تلك اللحظة، ثمة من يدق بابنا. نجفل معًا. أقول في نفسي: إنها هي! إنها ماغي! لقد غيّرت رأيها، وها هي آتية كي تعيد المال. سيتضح آخر الأمر أنها ليست بيضة فاسدة!

أقفز واقفة على قدميّ وأساعد جدتي في الوقوف. أتناول منديلًا ورقيًا من علبة المناديل على طاولة المطبخ وأناولها إياه. ثم آخذ كرسيًا من كراسي المطبخ وأذهب إلى الباب. أقف على الكرسي وأنظر من ثقب الباب.

على الفور، تخيب آمالي عندما أراه. أقول: «إنه السيد روسو!».

تجيبني جدتي: «اتركيه لي!». تتمخّط في منديلها ثم تمسح أنفها. تقترب من الباب فأبعد كرسي المطبخ من أمامه.

تفتح الباب لمالك الشقة صاحب الأنف الضخم الواقف عند الباب شابكًا ذراعيه فوق بطنه المكوّرة.

تقول له جدتي: «يومك جميل، يا سيد روسو! أتمنى أن تكون مستمتعًا به». يتعثر صوتها المرح في حنجرتها.

يجيبها: «لا يكون يوم جمع الإيجار سارًا إلا عندما يدفع الجميع».

تضم جدتي يديها معًا، ثم تدعك بهما فخذيها. تقول: «يا سيد روسو، يؤسفني إخبارك أننا نواجه اليوم وضعًا غير متوقّع يؤدي إلى التأخّر في دفع الإيجار».

يجيبها السيد روسو: «قولي لي هذا مرة أخرى بلغة واضحة!».

«ليس لدينا مبلغ الإيجار. لكني سأدفع لك المال قريبًا».

يتحوّل وجه السيد روسو من لونه الأحمر المعتاد إلى لون يقع بين لون الشمندر الناضج والورد الأحمر بلون الدم. «هذا المبنى مزدحم بمتشردين غير صالحين لشيء؛ لكني كنت أظنك أفضل منهم، يا فلورا. فعلًا، كنت أظنك أفضل منهم».

تجيبه جدّتي: «يؤسفني جدًا أن يخيب أملك. ثمة قول سائر عن الليمون الحامض والليمونادة[1]؛ أما في حالتنا هذه، فالليمون الحامض نفسه ليس موجودًا. لذا، لا أستطيع فعل شيء. بعض الأحيان، يا سيد روسو، تعترض الحياة أفضل نوايا الإنسان».

يجيبها السيد روسو: «ليس من غير عواقب. إنها الطريقة الوحيدة الصالحة لجعل أمثالكم يتعلّمون درسًا». يستدير ويسير في الممر مبتعدًا.

تناديه جدتي من خلفه: «عفوًا! هل يمكن أن توضح لي ما تعنيه بكلمة 'أمثالكم'؟».

نطلّ برأسينا، أنا وجدتي، بانتظار إجابة عن السؤال، لكن السيد روسو لا يجيب بشيء. يظل سائرًا في طريقه من غير أن يلتفت.

ندخل شقتنا. بكل هدوء، تغلق جدتي الباب، ثم تقفله.

---

(1) القول السائر هو «عندما تفاجئك الحياة بالليمون الحامض، اصنع منه ليمونادة». وهو قول يشجع على التفاؤل والروح الإيجابية في مواجهة الصعوبات أو الحظ العاثر. حموضة الليمون تشير إلى مشقات الحياة، وصنع الليمونادة يحول تلك الحموضة إلى طعم حلو سائغ.

أسألها: «ماذا يعني كلامه، يا جدتي؟ ماذا سيحدث لنا الآن؟».

«تهديدات فارغة، يا عزيزتي. لا مبرر لأي قلق». تستنشق نفسًا عميقًا، ثم تطلقه، ثم تصفق بيديها وتقول: «لماذا لا نفعل ما نجيد فعله أكثر من أي شيء آخر؟ لماذا لا ننظف شقتنا تنظيفًا عميقًا؟».

أقول بصوت مرح: «التنظيف العميق يضفي على الحياة معنى».

تجيبني جدتي: «نرتّب كل شيء كي تنتعش نفسَيْنا».

أقول: «وماذا تنتظرين؟ احملي الممسحة، يا فتاة!». أجري إلى المطبخ وآتي بالدلو والمماسح من أجل مغامرة التنظيف العميق التي تبدأ الآن.

نمضي فترة بعد ظهر ذلك اليوم في التنظيف والدعك وإزالة الغبار والتلميع والمسح. صحيح أن جدتي تبدو مرهقة وأنها لا تدندن بألحانها مثلما تفعل عادة، لكني أحسّ سرورًا كبيرًا وأحسّ نشاطًا نتيجة روائح الليمون النفاذة الفواحة في الهواء... روائح البيت المهدئة المريحة.

مع حلول وقت الغسق وتحول ضوء النهار إلى ظلمة، يصير كل شيء في شقتنا المتواضعة نظيفًا نظافة لا شائبة فيها، من المطبخ إلى الحمام ومن المدخل إلى غرفتَيْ النوم.

أنا وجدتي، نهتم دائمًا بالاحتفاظ حتى النهاية بما هو أفضل جزء من الأمر كله. نحن الآن في غرفة المعيشة ننظف محتويات خزانة التحف. نحن جالستان على الأرض ومن حولنا حيوانات شواروفسكي الكريستالية، والملاعق التذكارية، والصور ذات الإطارات. أرى جدتي تحمل صورة أمي بين يديها. غضون عميقة تظهر في جبهتها وهي تمسح الإطار الذهبي محاولة تلميعه.

أسمع صوتًا غريبًا... هسيسًا كهربائيًا. ثم ينطفئ النور على نحو مفاجئ.

صمت.

أناديها: «يا جدتي!».

أنا غير قادرة على رؤية أي شيء. ظلمة دامسة في غرفة المعيشة حيث أنا جالسة على الأرض، لكني أكتشف أنِ سمعي قد صار أكثر حدة في الظلام.

أسمع بعد ذلك صوتًا شاكيًا، صوتًا لا يشبه صوتًا غيره... صوت نعجة تنادي حمَلها الذي لن تراه مرة أخرى، لن تراه أبدًا.



الفصل السادس عشر

أعمل جنبًا إلى جنب مع ليلي طيلة ما بقي من النهار آملة أن يساعدها حضوري في أن تنفتح عليّ. لكن، لا فائدة من هذا! تفشل جهودي في الإتيان بأية نتيجة. يقتصر كل ما تقوله خلال بقية ذلك اليوم على جملتين اثنتين فقط: «ناوليني منشفة نظيفة، من فضلك!»، و«هل أستطيع أن آخذ استراحة قصيرة كي أذهب إلى الحمام؟». مهما يكن ما يشغل بال ليلي، فمن الأفضل ألا أحاول إرغامها على قوله... *الأمور الحسنة تأتي إلى من يعرف كيف ينتظر!*

النبأ الحسن الوحيد هو أننا نتمكن معًا من تنظيف عدد من غرف النزلاء يتجاوز ما ينبغي أن ننظفه. نعمل معًا فنترك تلك الغرف نظيفة لا شائبة فيها كأن الحياة لم تلوّثها بشيء أبدًا، كأن ما من وجود لأي نوع من أنواع الأوساخ والقذارة. لكن... ليت هذا يكون صحيحًا! تعلم كل واحدة منا أنه غير صحيح. هذا لأننا نبذل الجهد في تنظيف هذه الغرف لكننا لا نعرف شيئًا عن النزلاء القاطنين فيها، عن النزلاء الذين قد يكون واحد منهم قاتل السيد غريمشورب. إذا لم يكن مرتكب تلك الجريمة واحدًا من النزلاء، فمن عساه يكون؟

الآن، بلغت الساعة الخامسة تمامًا بعد الظهر. انتهت نوبة عملنا. أقول لليلي: «انتهى هذا اليوم. أشكرك لعملك الدؤوب، وإن يكن صامتًا!».

لا تجيبني بشيء، ولا تنظر في عيني. تقف خلف عربتها وتدفعها صوب المصعد كي تنزل إلى قسم خدمة الغرف حيث ستخلع ملابس الخادمة وترتدي ملابسها العادية من جديد... حتى يوم غد.

اقترب وقت لقائي بالسيد بريستون في مقهى حديقة الزيتون. الحقيقة

أنني كنت أفكر فيه طيلة هذا اليوم... أفكر في السيد بريستون الذي كان صديقًا موثوقًا على امتداد سنوات طويلة. السيد بريستون الذي يأتي كل يوم أحد كي يتناول وجبة العشاء مع خوان ومعي. السيد بريستون الذي أعتبره دائمًا واحدًا من أقاربي. السيد بريستون الذي رهن كتابًا مسروقًا. السيد بريستون الذي يبدو لي -في أحسن الأحوال- لصًا؛ وفي أسوأ الأحوال...

جرذان وأنذال وذبابات ليلية وذئاب في أثواب حملان! كيف يمكن أن يكون السيد بريستون شبيهًا بأي شيء من هذا كلّه؟ لكني رأيته بعيني الاثنتين، رأيت كيف دخل كي يرهن نسخة من الطبعة الأولى من هذا الكتاب. لقد دخل المتجر حاملًا الكتاب تحت إبطه.

أصل إلى قسم خدمة الغرف. أخلع ملابس العمل وأرتدي ملابسي العادية. لقد انصرفت ليلي قبل وصولي. انصرفَت أيضًا بقية العاملات في خدمة الغرف. ومن جديد، أنا الآن وحدي. أنظر إلى وجهي في المرآة. أرى تحت عيني انتفاخين داكنين متماثلين. لو كان خوان مانويل هنا لكتب لي شيئًا على ورقة مثلما فعل آخر مرة عملت فيها إلى أن استنفدت قواي كلها.

سألته عندما ناولني تلك الورقة: «ما هذا؟».

أجابني: «وصفة طبية».

قرأت في الورقة: «راحة واسترخاء من أجل دولي غراي. مرة كل يوم. ينفّذ ذلك خوان مانويل من خلال حمّام حار وتدليك للقدمين وطبق سباغيتي مع كرات اللحم من أجل العشاء - غير مسموح للآنسة مولي أن تقوم بأية أعمال تنظيف». رسم قلبًا إلى جانب اسمي.

لقد اشتقت إليه كثيرًا. لو كان هنا لعلم تمامًا ما ينبغي فعله الآن. أما في غيابه، فبمن أستطيع أن أستعين؟

في تلك اللحظة، تظهر أنجيلا بباب غرفة تبديل الملابس. أجفل

عندما أراها. أقول لها: «أفزعتني كثيرًا. أكاد أموت لشدة الفزع؟ ماذا تفعلين هنا؟ ألا ينبغي أن تكوني في الأعلى، في مطعم سوشال».

تقول أنجيلا: «نعم، أفهم هذا. لكني أقوم ببعض التحريات الخاصة. مضيت مع العاملين في المطبخ كي أرى إن كانت الشرطة قد اختبرت كل ما في الخزائن من سوائل بحثًا عن السموم».

ها هي تفعلها من جديد! أقول هذا في نفسي. ثم أخاطبها: «يا أنجيلا، لماذا تُدخلين نفسك في هذا الأمر؟ ابق خارجه!».

«هل تريدين أن أفوّت على نفسي فرصة حل لغز جريمة؟ غير ممكن أبدًا! على أية حال، فقط كي تعلمي، اختبرت الشرطة كل شيء في المطبخ. لم يعثروا على أي شيء غير طبيعي. على الرغم من ذلك، أجريت اختباراتي الخاصة».

أسألها: «ماذا تقولين إنك فعلت؟».

«تذوّقت نقطة واحدة من كل سائل في المطبخ كي أرى إن كان أي منها يجعلني متوعّكة».

«وماذا اكتشفت بعد ذلك؟».

تقول أنجيلا: «اكتشفت أن تناول عصير البرتقال والخل، وبعدهما صلصة الصويا والعسل يسبب عسر هضم شديدًا. فما النبأ الحسن؟ أنني لم أمت بعد!».

«لا أستطيع تصديق أنك فعلت هذا، يا أنجيلا. أنت تبالغين في الأمر كثيرًا جدًا».

تجيبني: «أنا لا أبالغ». تخرج من الباب لحظة وتنظر في الممر الخالي، تنظر في الاتجاهين، ثم تعود فتدخل غرفة تبديل الملابس وهي تسير على أطراف أصابعها... «انظري، يا مولي. الأمور تتخذ اتجاهًا غريبًا حقًا في هذا الفندق. العملاء السريون المتخفون يضيّقون الخناق

على شخص يشتبهون فيه. سمِعتهم يقولون هذا. ثمة أمور ينبغي أن تكوني على علم بها».

أقول: «ثمة أمور ينبغي أن تكوني على علم بها، أنت يا أنجيلا! الأمر الأول هو أنني لست محقّقة في الشرطة، ولا أريد أن يعتبرني أحد كذلك. لقد أبلغت المحقّقة ستارك بأنني ارتكبت غلطة فظيعة وانتحلت شخصية شخص يعمل في خدمة القانون. أبلغت الشرطة بما أقدمت عليه من احتيال. لكني لم أذكر لهم شيئًا عن الشخص الذي كانت تلك الفكرة الفظيعة من ابتكاره».

تنظر إليَّ أنجيلا غير مصدّقة ما أقول. يدها على وركها. تقول لي: «هذا، بالفعل، أغبى ما سمعته في حياتي كلها».

أجيبها وأنا أفتح خزانتي كي أخرج منها محفظتي: «تبدين كأنك المحقّقة ستارك. لا أنقطع عن القول لسيدات الجمعية إنني لست أكثر من خادمة غرف عادية، لكنهن لا تصغين إلى ما أقول. نتيجة خدعتك، تواصل تلك السيدات تزويدي بالمعلومات».

«جيد جدًا! هذا أمر مفيد تمامًا».

أجد نفسي أزداد ضيقًا وانزعاجًا. إنني أحب أنجيلا، لكني أجدها أحيانًا أشد الناس على وجه الأرض عنادًا. أغلق خزانتي وأسير صوب الباب.

تقول أنجيلا: «انتظري، يا مولي! علينا أن نتحدّث! هل أنت ذاهبة إلى البيت؟».

أستدير وأواجهها: «لا. سوف ألتقي السيد بريستون. أنجيلا، سأقول لك هذا كي يظل سرًّا بيننا لأنني لا أريد أن تخبري أحدًا به قبل أن أكلمه. يوم أمس، ضبطت السيد بريستون يبيع نسخة الطبعة الأولى النادرة التي اختفت من ذلك الصندوق في ردهة الفندق. كان يرهنها في ذلك المتجر القريب من الفندق. رأيته بعيني هاتين».

تجيبني أنجيلا: «مولي، ما أهمية هذا؟ هو ليس أكثر من كتاب».
أسألها: «لكن، ماذا لو كان ثمة ترابط بين الأمور كلها؟ ماذا لو كان غريمثورب قد قُتل بهدف زيادة سعر تلك الطبعة النادرة من كتابه».

تصمت أنجيلا لحظة. تعبث بعقدة مريلتها وهي تفكر في إمكانية ذلك. «لا. هذا غير ممكن. لا يستطيع السيد بريستون أن يؤذي ذبابة. لا يجوز أن تقفزي إلى الاستنتاجات».

أقول: «تقولين ما كانت جدتي تقوله لي. اسمعي... عليَّ أن أذهب! إلى اللقاء، يا أنجيلا».

أستدير من غير أن أضيف كلمة أخرى، ثم أصعد درجات السلّم المفضية إلى ردهة الفندق. أحس أنني مضطربة، غير مستقرة. أعبر باب الفندق الدوار وأنزل الدرجات، ثم أتجه صوب مقهى حديقة الزيتون الذي لا يبعد عن الفندق إلّا مسافة كتلة سكنية واحدة.

أصل إلى المقهى. يستقبلني نادل ذو وجه مألوف بابتسامة عريضة ويأخذني إلى واحدة من المقصورات. يضع على الطاولة قائمتَيْ طعام، ثم يسير مبتعدًا.

في تلك اللحظة تمامًا، أرى السيد بريستون عند مدخل المقهى فأُلوّح له بيدي. أخرج هاتفي من محفظتي - الخامسة وأربع عشرة دقيقة. على الأقل، هذا أمر لا أستطيع أن ألومه عليه، لا أستطيع لومه على وصوله متأخرًا.

يقول وهو يجلس على المقعد المقابل لي: «مولي!». إنه يرتدي ملابس رسمية إلى حد ما: كنزة بحرية من تحتها قميص منشّى وربطة عنق. نادرًا ما يرتدي هذه الملابس، حتى وقت العشاء أيام الأحد.

يقول بعد أن يتخذ مجلسه: «ما أجمل أن أراك بعيدًا عن قيود العمل! أريد منذ فترة أن أتكلّم معك على انفراد». يبتسم فتظهر غضون متشعبة عند زاويتي عينيه.

صرت غير قادرة على الثقة حتى بهذا، حتى بوجهه المألوف العامر بما كنت أظنه طيبة لا تشوبها شائبة. أقول له: «سيد بريستون، لقد طلبت منك اليوم أن تأتي إلى هذا المكان لأنك كاذب». على الفور، تتسع عيناه دهشة.

يقول لي: «ماذا؟».

«كاذب. مخاتل. لص. أنت الذي تقول لي دائمًا إن المظاهر أمر لا نستطيع الثقة به. تقول لي إن الضفادع ليست كلها أمراء. سيد بريستون، أقول لك بقلب مثقل إنني رأيتك على حقيقتك... رأيت كل شيء».

«يا فتاتي العزيزة، لا أعلم ما تتحدّثين عنه. لا بد أن في الأمر شيء خاطئ، شيء غير صحيح».

أقول: «لا شيء غير صحيح. يوم أمس، كنت عائدة من مركز الشرطة فرأيتك أمام متجر الرهونات حاملًا بيدك كتابًا بعينه. لقد بعت ذلك الكتاب، بعت نسخة من الطبعة الأولى من كتاب *'الخادمة في القصر'*!».

يرفع السيد بريستون كتفيه ويقول: «أنا لا أنكر هذا. لقد ارتفع سعره كثيرًا. أستطيع رؤية أنك قد تفسّرين هذا بأنه استفادة من الظرف الذي نتج عن موت كاتبه. لكن الحقيقة، يا مولي، أنني في حاجة إلى بعض المال الإضافي. إن السنّ تتقدم بي؛ وهذا واحد من الأمور التي أردت أن أتكلّم معك فيها، لكنني خشيت أن يحزنك كلامي. حمل الحقائب عمل يصلح لشخص لا يزال شابًا. ولست أدري إلى متى سأظلّ قادرًا عليه. إنني أفكر في التقاعد. وأنا في حاجة إلى قدر من البحبوحة المالية كي ينجح الأمر».

«ليست السرقة وسيلة مناسبة لجمع الثروة!». تخرج الكلمات من فمي هادرة ولا أدرك ذلك إلا بعد أن أرى رؤوس عدد من الجالسين حولنا تلتفت صوبي.

يهمس السيد بريستون وهو يميل في اتجاهي من فوق الطاولة:

«السرقة! لم أسرق شيئًا في حياتي كلها!». أتمعَّن في وجهه باحثة عما يشير إلى الخداع، عما يشير إلى الكذب، لكني لا أجد شيئًا من ذلك كله.

أجرّب أسلوبًا مختلفًا. أقول له: «في يوم من الأيام، كان هناك صندوق. وفي ذلك الصندوق كانت هناك نسخة نادرة من كتاب *'الخادمة في القصر'*، نسخة تخص الآنسة سيرينا شارب. في تلك اللحظة كانت تلك النسخة على مكتب الاستقبال. انطلق صفير إنذار الحريق... فاختفى الصندوق. عندما رأيت ذلك الكتاب مرة ثانية، كان في يدك».

«أوه، يا مولي!». يقول السيد بريستون هذا ويضع مرفقيه على الطاولة ويخفي وجهه بين راحتَيْ يديه.

أذكّره: «لا يجوز وضع المرفقين على الطاولة، لا الآن، ولا في أي وقت». يتنهّد السيد بريستون، يتنهّد لكنه يُبعد مرفقيه المخالفين عن الطاولة.

يقترب النادل منا. يقول لنا: «مرحبًا! هل قررتما ما تريدان طلبه؟».

يقول السيد بريستون: «نبيذ شاردونيه، كأسان».

أقول: «أنا لن أشرب نبيذًا. أريد ماء فقط. هذا ليس احتفالًا». تنتقل نظرات النادل بيني وبين السيد بريستون. إنه ينتظر منا توضيحًا إضافيًا. لا يظفر بتوضيح إضافي فيسير مبتعدًا.

يقول السيد بريستون: «يا مولي، لديَّ اعتراف».

ها هو الأمر! اللحظة التي تتجسّد فيها مخاوفي كلها وتصير واقعًا قبيحًا. اللحظة التي تطيح في ثانية واحدة بكل ما لدي من ثقة في رجل كان كأنه واحد من أفراد عائلتي. لكني لن أتراجع الآن. «إذًا، أنت تعترف بالأمر. لقد سمَّمت السيد غريمثورب».

يجيب السيد بريستون: «ماذا؟! لم أفعل شيئًا من هذا القبيل! كيف يمكن حتى أن تتبادر هذه الفكرة إلى ذهنك؟».

أنظر إليه مليًّا، وأدرس وجهه. أرى أنه موشك على البكاء.

يقول لي: «مولي، الأمر الوحيد الذي أذنبت فيه ليس أكثر من كذبة صغيرة بيضاء».

يتناول منديلًا من حامل المناديل الذي على الطاولة. يمسح به جبهته قبل أن يتابع كلامه: «منذ بضعة أيام، عندما سألتني عن السيد غريمثورب قلت لك إنني لا أعرفه. لكن الحقيقة أنني أعرفه. أو كنت على معرفة به منذ زمن بعيد». يصمت لحظة وينظر إليَّ كمن يتوقّع مني أن أدرك شيئًا.

أقول له: «تابع!».

«ذلك الكتاب الذي ذهبت كي أرهنه كتاب أعطاني إياه غريمثورب بنفسه، أعطاني إياه منذ سنين عندما كنت أعمل لديه، عندما كنتِ، أنت... كنتِ لا يتجاوز طول قامتك ركبة جرادة».

لا معنى لهذا كله. يبدو كلامه أشبه بقصة خيالية يريد منها أن يحرف انتباهي عن الحقيقة المفزعة. أشبك ذراعيَّ فوق صدري وأقول له: «لم يكن لدى آل غريمثورب أي بوّاب. أنا واثقة من هذا».

يجيبني السيد بريستون: «صحيح. لكن، كان لديهم من يحرس البوابة».

أحس دوارًا في رأسي. المقعد من تحتي يتمايل ويهتز. تتقاطر عليّ الذكريات والمشاعر كأن إعصارًا يجتاحني.

«مولي، أنا لست قاتلًا. لست حتى لصًا. وأما أن تستطيعي التفكير في أن أنحدر إلى هذا الدرك، فالحقيقة... الحقيقة أن هذا يفطر قلبي». يمد السيد بريستون يده من فوق الطاولة ويمسك يدي... «الأمر الوحيد الذي أذنبت فيه هو أنني لم أقل لك من قبل إنني كنت على معرفة بالسيد غريمثورب. في اليوم الذي تلا مقتله، مررت بمتجر الرهونات في طريق عودتي من العمل إلى البيت فرأيت نسخة من تلك الطبعة الأولى معروضة في واجهة ذلك المتجر. كان الثمن المكتوب عليها خياليًا. هذا ما جعلني أفكر في بيع نسختي. فضلًا عن ذلك، كنت على الدوام أمقت

السيد غريمثورب، فلماذا أحتفظ بكتابه عندي؟ كانت جدتك توصي بالصبر، لكنها بذلت قدرًا كبيرًا جدًا من العمل والجهد في ذلك المكان ذي القلب البارد، وخاصة عندما يسكر غريمثورب. كانت ترى أن كل شيء سيتغير إذا استطاع أن يصحو من سكره؛ لكنها كانت مخطئة. لم تكن السيدة غريمثورب تأمن أن يبقى أحد على مقربة من زوجها غير جدتك وسكرتيرته الشخصية. كانت تقول إنهما المرأتان الوحيدتان، إضافة إليها هي نفسها، اللتان لديهما من القوة ما يكفي للتعامل مع جنونه. وعلى امتداد زمن طويل، ظلت جدتك تقف إلى جانب الزوجين غريمثورب. لكنها، حتى هي، استطاعت رؤية الحقيقة آخر المطاف. كان غريمثورب رجلًا فظيعًا منفّرًا غير جدير بأن تكون مخلصة له. ثم إن السيدة غريمثورب خذلت جدتك أيضًا. لقد خذلها الاثنان بطرق مختلفة».

«لم تقل لي جدتي شيئًا عن هذا كله».

«أعلم أنها لم تقل لك شيئًا. ما كان ممكنًا أن تقول لك شيئًا. لقد أحست بالخجل، وأحست بالإهانة. أرادت أن تضع ذلك كله خلف ظهرها وأن تبدأ من جديد».

«لماذا تقول لي هذا الكلام؟».

«لأن له صلة بما كنت أحاول قوله لك منذ حين من الزمن».

أقول: «هل كنت تريد أن تقول لي إنك تعرفني من قبل، تعرفني عندما كنت طفلة في قصر غريمثورب؟ لقد فهمت هذا».

«هذا ليس إلا جزءًا من الأمر. إنني أتذكّرك، أتذكّر الفتاة الصغيرة الجريئة التي تمسك بيد جدتها وتسير معها في الممر بين الورود. تلك الفتاة الصغيرة نفسها، أتت في الممر ذات يوم ووقفت أمام الكاميرات عند البوابة وقدّمت إلى حارس البوابة هدية. هل تتذكرين هذا؟».

بالطبع، أتذكّر. كيف يمكن أن أنسى لطف ذلك الشخص الغريب؟

لكنني لم أعلم شيئًا عن هوية الشخص الذي تحدّثتُ إليه. لم تكن عندي أية فكرة في ذلك الوقت.

تنقبض معدتي وتتخبط مضطربة. أقول له: «يا سيد بريستون، لقد ارتكبتُ غلطة فظيعة!». إحساسي بالخجل يحرق حلقي فأجد صعوبة في العثور على الكلمات... «لقد جعلت من نفسي أضحوكة. لا أعلم من سرق الكتاب الذي كان على مكتب الاستقبال، لكني أدرك الآن أنه ليس أنت. وأنا أرى الآن ما هو أكثر من ذلك، أكثر منه كثيرًا. أنا في غاية الأسف. هل ستسامحني يومًا؟».

«أسامحك؟ مولي، هذا أمر مفروغ منه... الآن وفي كل وقت».

أتنفس الصعداء. أقول له: «كان لديك أمر آخر تود أن تقوله لي».

يربت السيد بريستون على يدي. ويجيبني: «يكفيك ما قلته لك الآن. لعل من الأفضل أن نترك البقية إلى وقت آخر».

«ألن تنسى؟».

ينظر إليّ بعينيه الدافئتين النديتين. يقول لي: «لا يمكن أبدًا أن أنسى، يا مولي... أبدًا».

الفصل السابع عشر

في ما مضى

أنا طفلة صغيرة جالسة في الظلمة، خائفة لأن أمامي جدتي التي أراها الآن تبكي جالسة على أرض المطبخ. دموع جدتي ليست ما أثار خوفي، والظلمة ليست ما أثار خوفي. كنت خائفة من نفسي، من أنني لا أفهم الأمور إلا في وقت متأخر جدًا، إلا بعد فوات الأوان.

يتوقف بكاء جدتي. لا أستطيع رؤيتها، لكني أسمعها تتحرك في الظلمة. أسمع وقع قدميها وأسمع ذلك الصرير المألوف عندما تفتح باب خزانة الحمّام. أسمعها تبحث في الخزانة.

أناديها: «جدتي!».

«سأعود سريعًا. ابقي حيث أنت».

مزيد من البحث في الخزانة، ثم صوت الخطوات. ثم احتكاك خشن.

تقول جدتي وهي تضع شمعة مضاءة على طاولة جانبية وتبدأ بإشعال شمعات أخرى: «فليكن لدينا نور!». توزّع الشمعات في المطبخ. النتيجة رائعة: ألق ساحر يغمر المكان كله.

تسألني جدتي: «عندما تتوفر الإرادة، تتوفر الوسيلة. فقدت إرادتي لحظة، يا مولي. لكني استعدتها الآن. ما رأيك في كأس من الشاي؟».

«التيار الكهربائي مقطوع. لن تعمل غلاية الماء».

«لا يزال لدينا جليد في الفريزر. على الأقل، سيظل لدينا جليد حينًا من الزمن. أستطيع إعداد الشاي المثلج».

تحمل شمعة وتذهب إلى المطبخ. أسمع حركاتها هناك لكني أظل جالسة على الأرض من غير حركة. أسمعها تدندن لنفسها بلحن وكأن كل

شيء في العالم على أحسن ما يرام. تأتي بعد بضع دقائق تحمل الشمعة وكأسين طويلتين ودورقًا وبعض البسكويت. ذلك كله في صينية فضية.

«شاي لاثنتين!». تضع الصينية على الطاولة في غرفة المعيشة، ثم تجلس على الأريكة. تربت بيدها على الأريكة إلى جوارها. أتخذ مكاني إلى جانب جدتي.

نشرب الشاي المثلج ونأكل البسكويت خلال ما بقي من تلك الأمسية. لا نستطيع متابعة برنامج ديفيد آتنبورو، ولا مسلسل كولومبو... لذا تمتعني جدتي بقصص الجنيات والأميرات واللوردات والليديات، وكذلك بقصص الخدم والخادمات الذين يعملون في الطوابق السفلية. ثم تأتي لحظة أحس فيها أنني لم أعد قادرة على فتح عيني. تضمني ذراع جدتي وتقودني إلى فراشي. جدتي، كانت هكذا دائمًا؛ دائمًا تعثر على سبيل لإذكاء الأمل. وما الأمل؟ ما الأمل إن لم يكن قرارًا ببث النور في الظلمة؟

تشرق الشمس صباح اليوم التالي فلا نعود في حاجة إلى الشموع مع أن التيار الكهربائي لا يزال مقطوعًا. لا مياه حارة في شقتنا اليوم. أغتسل بماء بارد - هذا ما تدعوه جدتي حمّام القطة مع أن ما من قطط في شقتنا!

أطرح أسئلة على جدتي في طريقنا إلى قصر غريمثورب. «ماذا سنفعل في شأن مبلغ الإيجار؟ ماذا لو امتنع السيد روسو عن إعادة التيار الكهربائي إلى شقتنا؟ ماذا لو اضطررنا إلى العيش في الظلمة طيلة ما بقي من حياتنا؟».

«لا تقلقي، يا مولي! صارت لدى جدتك خطة».

نصل إلى القصر ونتوقف عند البوابة مثلما نتوقف دائمًا.

تضغط على المفتاح، لكنها لا تلقي التحية ولا تطلب فتح البوابة كي ندخل. تقول: «أنا آتية إلى برج المراقبة». هذا أمر غير مألوف أبدًا. لم تذهب إلى برج المراقبة من قبل. لم تذهب إلى تلك القلعة الحصينة التي تحرس قصر غريمثورب منتصبة على مرمى حجر من البوابة.

أسمع صوت أزيز البوابة عندما تنفتح.
تقول لي جدتي: «انتظريني هنا لحظة».
أومئ برأسي حائرة، لكني واثقة من أن جدتي تعرف كيف تتصرف. تسير بمحاذاة السور الحديدي إلى أن تبلغ برج المراقبة. تدخل البرج عبر بابٍ من الجهة الأخرى لم أعرف أبدًا أنه موجود هناك. ما السبب؟ لماذا تدخل؟ ماذا تفعل هناك؟
أظلّ واقفة عند البوابة وأمضي الوقت في إحصاء عدد القضبان المدبَّبة في أعلى السور. وعندما يصيبني إحصاؤها بالدوار وأحس الأرض تميد تحت قدمي، تخرج جدتي من البرج وتسير عائدة في اتجاهي. تتوقّف عندما تبلغني. تقولها بصوتها الغنائي المرح. «لقد تلقيت موافقة. سيكون مبلغ الإيجار عندي بعد ظهر هذا اليوم. يعني هذا أن التيار الكهربائي سيعود. فليكن لدينا نور!». تضع يدها الحانية على ظهري وتقودني في الممر الذي تحيط به الورود، تقودني في اتجاه القصر.
وخلال سيرنا، أحاول استيعاب النبأ، لكني أجد صعوبة في فهم الأمر كله. أسأل جدتي: «من أعطاك نقود الإيجار، يا جدتي؟».
تجيبني: «حارس البوابة».
إنه الشخص الذي لا نراه، الرجل الغامض في ذلك البرج. «لماذا يقرضنا حارس البوابة مالًا؟».
«لأنه لا يزال في هذا العالم أشخاص طيبون، يا مولي. ثمة واحد منهم في ذلك البرج. إنه يحرسنا طيلة الوقت».
ألتفت خلفي وأنظر إلى البرج الحجري البارد المرتفع ثلاثة طوابق، إلى نوافذه المظلّلة التي تسمح برؤية ما في الخارج، لكنها لا تدع أحدًا يرى ما في الداخل. في تلك اللحظة، وفي ذلك المكان، أقرر ما يتعين عليَّ فعله.

***

أمضي فترة الصباح في تلميع أدوات الطعام الفضية في الأسفل. تدخل السيدة غريمثورب قرابة الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة كي تعاين عملي.

تقولي لي: «سيكون هذا كافيًا. في وسعك الآن أن تصعدي إلى الطابق الثاني كي تقرئي بهدوء».

أتركها وأصعد إلى غرفة المكتبة. أتناول كتاب «*آمال عظيمة*» وأجلس على الشيزلونغ. بعد وقت قصير من جلوسي، أسمع صوت المفتاح وأرى النور ينساب على أرض الغرفة عبر الشق الذي في الجدار. وقع خطوات في شبشب منزلي. يتحرك قاموس أكسفورد. وبعد لحظة من ذلك، ينفتح جدار الكتب. السيد غريمثورب يقف بالعتبة. أراه مبتسمًا من الأذن إلى الأذن.

يقول لي: «بيب، أين كنتِ طيلة هذا الوقت؟ لم أرك هنا منذ أيام. كنت في انتظار ظهورك. أنت طفلة نبيّة حقًا، عرّافة صغيرة. أنت التي تعلم كل شيء».

أجيبه: «أنا لا أعلم شيئًا. مع كل يوم يمر، يصير ما أعلمه أقل من ذي قبل».

يقول: «لكنكِ أعطيتني الإجابة. أعاني مشقة منذ زمن بعيد جدًا، ثم قدمت لي الحل... حل استخدام القِلي. صارت خاتمة الكتاب جاهزة، يا بيب. أكاد أفرغ من تأليف روايتي الأخيرة».

أنظر إلى الرجل النحيل الواقف أمامي. وجهه مشرق مثل بيضة فابرجيه على قاعدتها في الطابق السفلي.

أسأله: «أحقًا ما تقول؟ هل أنهيت تأليف كتابك؟».

يجيبني: «تقريبًا. الخادمة والقِلي. الفكرتان كلتاهما من عندك. أنت التي عثرت على الحل... كيف تكون الجثة موجودة في لحظة، ثم تختفي بعد ذلك. تذوب. تتفكّك. تختفي. الاختفاء والغياب. سوف

تلزمني بضعة أيام إضافية كي أكتب الكلمات الأخيرة، لكني كدت أنتهي من الكتابة. أظن أنني نجحت. أظن أنني فزت بموقع جديد على رف الأعمال الأدبية... إلى الأبد».

يبدأ السير في الغرفة. يلتقط واحدًا من دفاتره السود الصغيرة، ويتناول قلم الحبر. يكتب في الدفتر شيئًا، يكتب بحركات متداخلة. جسده ذو التقاطيع الحادة مختلف اليوم، متحول. عدم التناسب فيه، وتقاطيعه الحادة... كل شيء مختلف، مكثف، رشيق، مصمم كأنه فهد منطلق إلى الصيد.

رات- تات- تات- تات.

ها هو الصوت من جديد. صوت الضرب على الآلة الكاتبة، صوت واضح تتردد أصداؤه في المكان. لا بد أن السيدة صاحبة الفستان الأزرق في مكتبها. لا أعلم أين يقع مكتبها، لكنها منهمكة الآن في عملها، منهمكة في طباعة نهاية الرواية الجديدة التي يؤلفها الكاتب العظيم.

أقرر أن أستغل الفرصة بما أن السيد غريمثورب في مزاج جيد جدًا. «سيد غريمثورب، أين مكتب سكرتيرتك؟ أراها كل يوم تدخل عبر الباب الجانبي الذي في السور، وأسمعها تضرب على الآلة الكاتبة، لكني لم أر أبدًا مكان عملها».

يقول السيد غريمثورب: «يعني هذا أنك لم تنظري جيدًا». يغلق الدفتر الصغير ويبتسم لي ابتسامة كبيرة.

أقول: «إنها لا تتجول في القصر. أتساءل أحيانًا إن كانت حقيقية».

يطلق السيد غريمثورب ضحكة عالية الصوت: «أوه، إنها حقيقية. إنها حقيقية بالتأكيد».

لا أفهم ما يجعله يضحك، لكني شاكرة لأن مزاجه لا يزال حسنًا. يسير إلى حيث أقف عند عتبة باب المكتبة. يقول لي: «ما من شيء يستطيع اليوم أن يمسني، يا بيب. أستطيع اليوم السير على الماء. أشعر الآن مثلما كنت أشعر قبل أن أترك الشرب، مثلما كنت أشعر عندما صار

أول كتاب لي من بين الكتب الأكثر مبيعًا، عندما صرت على قمة العالم. اليوم، أنا قادر على كل شيء». في تلك اللحظة، أسمع صوت جدتي تناديني من أسفل السلم: «عشر دقائق حتى موعد الشاي».

يسمعها السيد غريمثورب بدوره. «كانت جدتك تصعد إلى هذا المكان وتجلس معي كل يوم. هل تعلمين هذا؟ كانت تصغي إليَّ إذا أحببت أن أتكلم. خلال أسوأ الأوقات -نوبات الارتعاش ونوبات التعرق- كانت تمتعني بقصصها. كانت تلهيني عن معاناتي خلال أشد أيامي ظلمة. والآن، لا تكاد تأتي أبدًا». يلعق السيد غريمثورب شفتيه. يخرج لسانه من بين أسنانه البيضاء ثم يختفي من جديد في كهف فمه.

أسأله: «إذا كنت في حاجة إلى جدّتي، فلماذا لا تنزل إلى الطابق السفلي؟».

يومئ برأسه ويبتسم ابتسامته الكبيرة المشرقة. «فكرة حسنة، يا بيب! قد أفعل ذلك».

أقول له: «عليَّ الآن أن أذهب».

«آه، صحيح... المسح والتلميع. إعادة كل شيء إلى حالة الكمال. محاولة زوجتي التي لا طائل منها للإبقاء على زواج مثالي وعلى زوج مثالي... الأمران اللذان لم تحصل عليهما أبدًا. سأقول لك سرًا، يا بيب: فترة الإزهار لا تدوم أبدًا. ولا بقاء لكل ما هو ذهبي».

أقول له: «عليّ أن أذهب الآن. ثمة أمر ينبغي أن أفعله. إلى اللقاء، يا سيد غريمثورب». أمد يدي وأدفع قاموس أكسفورد. يُغلق جدار الكتب ويختفي السيد غريمثورب خلفه.

الوقت الذي لدي ليس طويلًا. لا شك في أن جدتي ستناديني من جديد. أخرج إلى الممر مسرعة وأنزل درجات السلم على أطراف أصابعي. أتناول حذائي من الخزانة عند الباب، وأضع قدمي فيه، ثم أدير مقبض الباب وأتسلل خارجة منه. أغلقه خلفي من غير صوت.

أسير في الممر الذي تحيط به الورود التي تجاوزت أوج إزهارها. صارت أعناقها ثقيلة وبدأت بتلاتها تتساقط على بلاطات الممر. أثناء سيري، أبحث عن نوع من الورود لم يذبل بعد. يستغرق الأمر بعض الوقت، لكني أرى آخر الأمر وردة قرمزية داكنة مختبئة عميقًا في واحدة من الأجمات. بتلاتها متفتّحة في قمة روعتها. أمد يدي عبر الأغصان الشائكة متجاهلة لسع الأشواك إلى أن تعثر أصابعي على ساق الوردة، الساق التي تغذي آخر وردة جميلة. ألوي ساق الوردة حتى تنكسر، ثم أخرج الوردة من قلب تلك الأجمة الكثيفة. امتلأت ذراعاي خدوشًا، آثارًا من خطوط حمراء. لكن هذا لا أهمية له لأن ما أحمله الآن بيدي يستحق ذلك كله... كنز حقيقي. آخر وردة رائعة من موسم هذه السنة.

أجتاز ما بقي من الممر حاملة الوردة بيديَّ الاثنتين. أبلغ البوابة الحديدية. أضغط على المفتاح مثلما تفعل جدتي دائمًا. أتكلم في تلك الفتحة الصغيرة في الجدار. أسأله: «هل تستطيع سماعي؟ هل تستطيع رؤيتي؟ أنا مولي، خادمة تحت التمرين. حوّل!».

أنتظر إجابة. لا شيء. أرفع رأسي وأنظر إلى برج المراقبة، ثم أضغط على المفتاح من جديد. أقول: «كائنًا من تكون، أعلم أنك ساعدت جدتي وساعدتني. لقد أقرضتنا نقودًا من أجل دفع الإيجار. أرى أن هذا كرم كبير. أردت أن أقدم إليك هدية، وأن أقول لك بنفسي: شكرًا!».

أسمع تكّة، ثم يأتي صوت يقول: «يا فتاتي العزيزة، أنت مرحّبٌ بك كثيرًا!».

من جديد، أنظر إلى برج المراقبة. لا تكشف النوافذ المموّهة ما هو خلفها، لكن ذلك لا يمنعني من رفع الوردة صوب الرجل الجالس في البرج قبل أن أتركها على مصطبة عند البوابة.

أنحني انحناءة كبيرة أعبّر بها عن خالص شكري. ثم أعود مسرعة في الممر الذي بين الورود، أعود إلى القصر.

الفصل الثامن عشر

يقال لي منذ كنت طفلة إنني فاشلة. يقال لي هذا على نحو مباشر وعلى نحو غير مباشر. يقال لي إنني لست جيدة بما فيه الكفاية. يقال لي إنني لا أحقق المعايير المطلوبة، إنني أفشل في فهم ما يستطيع الآخرون فهمه من غير كبير مشقة. مولي الروبوت. مولي المختلفة عن الآخرين. مولي غريبة الأطوار.

قبل هذه اللحظة تحديدًا، لم أصدق أي شيء من هذه الصفات التي يطلقونها عليّ. كنت أقاوم الافتراض القائل إن اختلافاتي تجعلني أقل شأنًا من غيري. كنت أرفض قبول هذا. أما الآن، عندما تضرب قدماي بلاط الرصيف وأذهب مسرعة إلى عملي، حيث سيكون عليّ أن أواجه السيد بريستون أول مرة بعد أن أخطأت وظننته قاتلًا، فقد بدأت أقتنع بكل ما يقال عني، بدأت أقتنع بأنه قد يكون صحيحًا. لعلي أقل من غيري! من المؤكد أنني غبية، أنني بلهاء. كيف استطعت أن أخطئ فأظن السيد بريستون شخصًا فاسدًا؟ كيف استطعت أن أقع في هذا الخلط الفظيع؟ إذا كنت غبية بالقدر الكافي لارتكاب تلك الغلطة، فما هي الأغلاط الجسيمة التي يمكن أن أقع فيها أيضًا؟ اتصل بي خوان مانويل هذا الصباح عندما كنت موشكة على الانتهاء من مضغ اللقمة الرابعة عشرة من فطيرتي الإنكليزية. ابتلعت اللقمة، ثم سألته: «هل أنا شخص جيد؟».

صمت لحظة، ثم قال لي: «يا حبيبتي، ما هذا الذي تقولين؟ أنت شخص جيد جدًا. مولي، أنت في نظري مثل بيضة فابرجيه».

ابتلعت رشفة شاي، ثم غيّرت اتجاه الحديث كله. سألت خوان عن

رحلته وعن أمه وعن أشقائه وشقيقاته، وظللت أسأله إلى أن نجحت في جعله ينسى أسئلتي الغريبة.

أصل الآن إلى مدخل فندق ريجنسي غراند ذي الواجهة الأنيقة. عمال الفندق يتحرّكون في كل اتجاه ويساعدون النزلاء في حمل حقائبهم. السيد بريستون يرتدي معطف بواب الفندق وقبعته. أراه يقف عند منصته على بسطة السلم. صورة ناطقة بالجلال والاحترام. يراني أتوقّف لحظة عند أسفل السلم. ترفض قدماي أن تتحركا. أنا لا أستحق هذه السجادة الحمراء. أنا لم أستحق يومًا هذه السجادة الحمراء.

ينزل الدرجات مسرعًا ويمسك ذراعي. «مولي، هل أنت بخير؟».

«أنا لست بخير. لم أكن بخير يومًا من الأيام».

يقول لي: «مهلًا، مهلًا!». يقودني فنصعد درجات السلم... «قدَم تلو أخرى. هذه هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى أي مكان في الحياة».

أقول له وأنا مستندة إلى ذراعه: «كانت جدتي تقول هذا».

يجيبني: «أعلم».

يتوقّف عند فسحة السلم أمام الباب الدوار. «اتهمتكَ بأمور مخيفة. لا ينبغي أن تصفح عني، يا سيد بريستون. أنا لا أستحق لطفك».

«نحن نخطئ جميعًا. المهم، هو ما نفعله بعد ذلك».

«كانت جدتي تقول لي هذا».

يبتسم ويضغط على ذراعي. لم أكن قبل الآن منتبهة جيدًا إلى أنه كبر كثيرًا خلال وقت قصير، إلى أن شعره قد شاب كثيرًا... لم تعُد فيه شعرات سوداء. صار ناصع البياض. حتى هذا الأمر، لم أره واضحًا قبل الآن. سوف يتقاعد السيد بريستون في لحظة من اللحظات، عمّا قريب. يعني هذا أنني لن أراه كل يوم. مجرد التفكير في هذا يجعلني أحس ثقلًا في قلبي.

يقول السيد بريستون: «يا مولي، تحدّثت مع أنجيلا الليلة الماضية. تريد أن تقول لنا شيئًا. الآن».

«أنتَ تكلمت مع أنجيلا!؟»، أقول هذا من غير تفكير وأنا أتساءل في نفسي عما يجعل السيد بريستون يكلمها بعد انتهاء وقت عملها.

«ذلك الحديث الذي جرى بيننا يوم أمس جعلني أفكر. اتصلت بأنجيلا لأنني أردت أن أسمع رأيها في شأن ذلك الصندوق المفقود الذي كان في الردهة، وكانت فيه نسخة الطبعة الأولى التي رأيتها في واجهة متجر الرهونات. لقد كنتِ محقة في أمر واحد يا مولي: ثمة أمر مريب فعلًا. الليلة الماضية، لم يكن لدى أنجيلا الكثير مما يلقي الضوء على هذا الأمر. وهذا الصباح، صار لديها ما تقوله وصارت راغبة في رؤيتنا معًا في المطعم».

أقول: «حسنًا جدًا. لا تزال لديَّ بضع دقائق قبل بداية وقت عملي».

يقول السيد بريستون لعمال الفندق عند الباب إنه سيستريح قليلًا ثم يشير إليَّ بأن أعبر باب الفندق الدوار ويسير خلفي.

نجد أنجيلا واقفة خلف البار في مطعم سوشال. شعرها الأحمر في حالة مضطربة، وتعابير وجهها مقطّبة لشدة تركيزها على شاشة اللابتوب المفتوح على طاولة البار أمامها. إنها غارقة جدًا في ما تنظر إليه. لا تلتفت في اتجاهنا. أخيرًا، تنتبه إلى وجودنا فتلوّح لنا بيدها. أجلس والسيد بريستون قبالتها، نجلس على كرسيين متجاورين من كراسي البار.

أسألها: «هل سيكون الأمر سريعًا؟ عليَّ أن أذهب إلى عملي».

تقول أنجيلا: «يا مولي، أنت تأتين دائمًا قبل موعد عملك بنصف ساعة. وأيضًا، صدقيني عندما أقول لك إنك ستفقدين عقلك عندما ترين ما هو موجود لديّ. أنت أيضًا، يا سيد بريستون... من الأفضل أن تظل متماسكًا».

يخلع السيد بريستون قبعته ويضعها أمامه على البار.

بحركة سريعة، تدير أنجيلا اللابتوب بحيث تصير شاشته في

مواجهتنا. على الشاشة موقع إنترنت اسمه «كواسر الثقافة». شعاره طائر كاسر ذو مظهر مخيف وكتاب قديم بين مخالبه.

يسألها السيد بريستون: «ما هذا؟».

تجيب أنجيلا: «موقع للتسوّق عبر الإنترنت يبيع أشياء تذكارية. يزايد الناس على كتب مستعملة وعلى أوتوغرافات المشاهير ومواد من أجل هواة جمع المقتنيات، وكل شيء آخر يعتقدون بأنه قد يكون هناك من يريد شراءه. بل إنهم يعرضون أيضًا ملابس داخلية متسخة كانت لواحد من نجوم الروك. فما الجزء الأسوأ من ذلك كله؟ لقد باعوا... انظرا إلى هذه الصفحة...»، تقول أنجيلا هذا وهي تنقر على صفحة أخرى... «يدعو هذا البائع نفسه 'حاصد الظلام'!».

يقرأ السيد بريستون وصف البائع: «أبيع سلعًا أصلية كانت ملكًا لأثرياء وموتى ومشاهير. حقيقية مئة بالمئة! مصادرها داخلية مكتومة الهوية!».

«انظرا إلى هذا أيضًا». تقول أنجيلا هذا وهي تنزل إلى أسفل الصفحة حيث أرى عدة مواد مكتوب عليها أنها قد بيعت. لا أستطيع تصديق عينيَّ. أطلق زفرة عالية الصوت.

يسألها السيد بريستون قبل أن أستطيع قول كلمة واحدة: «هل هذه الأشياء كلّها على صلة بالسيد غريمثورب».

تقول أنجيلا: «أكثرها. هناك مادة واحدة لا علاقة له بها». تتابع نزولها إلى صورة تظهر فيها زجاجات ميني بار صغيرة، زجاجات ويسكي. يقول الوصف تحت الصور: «آخر ما تناول السيد تشارلز بلاك -السيد بلاك نفسه- يوم سقط ميتًا في فندق ريجنسي غراند».

دوار في رأسي. نبضات قلبي تتسارع.

تقول أنجيلا: «انظرا إلى هذا». تشير إلى صورة قلم حبر وبطاقة ملاحظات. مكتوب على الصورة كلمة «بيعت». تقول الكتابة تحت

الصورة: «قد يكون هذا العرض من أجلك!». ومن تحت ذلك شرح يقول: «قلم الحبر الخاص بالسيد ج. د. غريمثورب ورسالة الحب الفضائحية التي كتبها لسكرتيرته الخاصة».

يقول السيد بريستون: «يا لطف السماء! انقري على الصورة!».

تنقر أنجيلا على الصورة كي تكبّرها.

أنظر إلى قلم الحبر ذي اللونين الأسود والذهبي، إلى نهايته المدبّبة.

أقول: «إنه قلم السيد غريمثورب. كان في الصندوق الذي اختفى».

يقول السيد بريستون: «أهما عينايَ العجوزتان تخونانني أم إن رسالة الحب هذه غير مقروءة؟».

تقول أنجيلا موضحة: «لقد تعمد البائع تشويش الكتابة. لا يستطيع رؤية محتوى النص إلّا من يشتريه».

يقول السيد بريستون مشيرًا إلى الشعار المألوف على الرغم من تشوشه: «هذه ورقة من أوراق فندق ريجنسي غراند».

تقول أنجيلا: «أنت محق. أمر غريب فعلًا!».

أقول: «لكنهم مخطئون في شأن هذه الرسالة. لم يكتبها السيد غريمثورب. كاتبها هو السيد سنو. لقد أقر بهذا».

ترد أنجيلا: «المال! الأمر واضح من الاسم الذي اتخذوه لأنفسهم. هؤلاء البائعون كواسر حقيقيون. إنهم مستعدون لأن يكذبوا في أي شيء كي يجنوا مزيدًا من المال».

يسأل السيد بريستون: «بكم بيع هذا القلم وهذه الرسالة؟».

تجيب أنجيلا: «خمسمئة دولار إضافة إلى تكاليف الشحن السريع والتسليم».

يسألها: «من ذا الذي يمكن أن ينفق هذا المال كله على هذا الهراء؟».

تشرح أنجيلا: «بشر كثيرون. الأمر غير مقتصر على هواة جمع المقتنيات. المراسلون الصحافيون ومن يبثون عبر الإنترنت أيضًا.

انظروا إلى هذا!». تنقر على صورة دفتر ملاحظات صغير أسود اللون عليه ثلاثة أحرف ج. د. ج.، ثم تنقر صورة أخرى للدفتر نفسه مفتوحًا. الصفحات ممتلئة كتابة غير مقروءة، منحنيات وحروف متداخلة... «يقولون إنه يخص السيد ج. د. غريمثورب. لكني أشك في أن هذا صحيح».

أجيبها: «أوه، إنه صحيح. صحيح بكل تأكيد».

يلفت نظري شيء آخر معروض للبيع. أقول لها: «اصعدي قليلًا، من فضلك!».

تنقر أنجيلا على صورة شيء مباع. مكتوب إلى جانب الصورة: «آخر كلمات ج. د. غريمثورب. كن أول من يقرأ الكلمة التي لم يلقها أبدًا!».

تزداد نبضات قلبي سرعة مع إدراكي حقيقة الأمر. أقول: «هذه هي البطاقات التي كانت على المنبر أمامه ثم اختفت. صورتها مشوشة، لكني واثقة من أنها تلك البطاقات نفسها».

يضيف السيد بريستون: «هذا تأكيد على الأمر. لا شك في أنه من عمل شخص موجود هنا. إما أن يكون هذا البائع واحدًا من العاملين هنا، أو أن يكون في تعاون وثيق مع شخص يعمل هنا».

تومئ أنجيلا برأسها. وجهها متوتر. تسألني: «هل تدركين الوضع الآن، يا مولي؟». لقد تأكد أسوأ مخاوفنا.

أقول: «ثمة لص يعمل هنا. وقد يكون أيضًا...». أكف عن الكلام. لا أريد قولها بصوت مسموع.

تكمل أنجيلا جملتي: «قاتلًا ذا قلب بارد. ثمة أمر آخر أيضًا. لا بد لي الآن من تحذيرك، يا مولي. سوف يكون هذا الجزء صدمة لك».

تتكور يداي فوق طاولة البار، تصير قبضتاي مشدودتين. لا أدري كم أستطيع احتمال المزيد. كرسي البار الذي جلست عليه يتمايل يمينًا وشمالًا.

تنتقل أنجيلا إلى المادة الأخيرة المعروضة للبيع، إلى المادة الوحيدة التي لم تُبع بعد من بين المواد الخاصة بغريمثورب. أرى صورة نسخة من كتابه الأخير «واحدة من آخر النسخ التي وقّعها!». معروضة للبيع بسعر «منخفض، منخفض، مئة دولار!».

تقول أنجيلا: «استعدي!». تنقر على الصورة فيظهر الكتاب مفتوحًا على الصفحة الأولى حيث كتب ج. د. غريمثورب الإهداء التالي:

العزيزة ليلي

إقرارًا مني بحلاوتك، إليك شكري. أتمنّى أن تقرئي هذا الكتاب!

في أسفل الإهداء توقيع. إنه التوقيع نفسه الموجود على الكتاب الذي وقّعه من أجلي، وعلى كل كتاب رأيته من الكتب التي وقّعها... الحروف متداخلة، متمايلة، مضطربة اضطرابًا شديدًا مثل صاحبها. لا شك أبدًا في أنه توقيع غريمثورب الحقيقي.

لم تعد أنجيلا إلى الشاشة. إنها تنظر إليَّ وعلى وجهها تعبير أعرفه من قاموسي الذهني الخاص بالسلوك البشري. تعبير وجه السيد بريستون نسخة طبق الأصل عن تعبير وجهها. كنت في ما مضى أخلط بين هذا التعبير وبين التعبير عن الألم، لكني أعلم الآن اسم هذا الحرَج المؤلم، حرَج لا يحسّه المرء من أجل نفسه، بل من أجل شخص آخر: حرج اسمه «الشفقة».

أقول: «من فضلكم... من فضلكم، قولوا لي إن هذا البائع ليس ليلي. لا أستطيع تصديق هذا. غير ممكن!».

يقول السيد بريستون: «مولي، علينا ألا نقفز إلى الاستنتاجات قفزًا. قد يكون هناك تفسير منطقي».

تضيف أنجيلا: «إنه محق. يظل المرء بريئًا إلى أن تثبُت إدانته. نحن لسنا متأكدين من أي شيء... ليس بعد».

يقول السيد بريستون: «فضلًا عن هذا، لم تكن ليلي عاملة هنا عندما

حدثت قصة السيد بلاك. يستحيل أن تعلم أن الويسكي كان آخر ما شربه ذلك الرجل قبل موته».

أقول: «إنها تعلم. تعلم لأنني قلت لها ذلك. عندما كنت أدرّبها، أمضينا ساعات طويلة ننظف الغرف معًا. قصصت عليها ما جرى في ذلك اليوم عندما شرب السيد بلاك كل ما كان في الميني بار من زجاجات ويسكي ولم يبق شيء غير زجاجات فارغة. قلت لها إنني ظننته فقد وعيه في سريره لكثرة الشرب في حين كان ميتًا في واقع الأمر. قلت لها إن الأصابع كلها أشارت إليّ بعد ذلك. قلت لها إن على الخادمة أن تتوخّى الحذر الشديد. كانت تلك حكاية تحذيرية لها».

يتبادل السيد بريستون وأنجيلا نظرات قلقة متفهمة. لكن تفهّمهما لم يفدني شيئًا في التخفيف عني.

لا أقول لهما ما أسمع مرة بعد مرة في رأسي: صوت ليلي الهامس يكرر ما أعلمه أصلًا: «الخادمة ملومة دائمًا».

الفصل التاسع عشر

في ما مضى

نعم، لقد فعلتها! لقد تركت هدية صغيرة للرجل الغامض في برج المراقبة لأنه ساعدني وساعد جدتي. أحس ارتياحًا لأنني فعلت هذا مع أن شيئًا في داخلي يظل في توق إلى معرفة المزيد عمّا يجعل هذا الرجل كريمًا معنا إلى هذا الحد. قد أسأل جدتي غدًا، وقت الإفطار؛ وقد تقول لي ما تعلمه عنه.

أعود إلى باب القصر. أفتح الباب الأمامي الثقيل وأنزلق داخلة، ثم أغلقه من خلفي بكل هدوء. لقد نجحت في الخروج والدخول خفية من غير أن تلاحظ جدتي شيئًا ومن غير أن تلاحظ السيدة غريمثورب شيئًا.

أمسح أسفل حذائي وأعيده إلى الخزانة. أسمع أصواتًا آتية من الردهة. تمر لحظة أظن خلالها أنني واهمة لأن بين الأصوات التي أسمعها صوت رجل.

أسير على أطراف أصابع قدميَّ المجوربتين وأجتاز الممر حتى أبلغ باب الردهة الكبير المفتوح. في الداخل، أرى جدتي واقفة خلف عربة الشاي التي أعدَّتها من أجلي. وإلى الناحية الأخرى من العربة، أرى السيد غريمثورب. هذه أول مرة أراه خارج مكتبه. أمر مفاجئ في حدّ ذاته: هو في الطابق الأرضي يتكلّم مع جدتي في الردهة، يخاطبها بصوت منخفض. يبدو أنه عمل بنصيحتي ونزل كي يراها بنفسه. لكن ثمة أمرًا غريبًا في ما أراه أمامي. أقرّر أن أتابع المراقبة وأن أظل صامتة مختفية عن الأنظار.

ألتصق بالجدار في الممر الظليل. أنظر إلى جدتي بمزيد من التدقيق.

وقفتها غريبة، غير مألوفة، متيبّسة خلف عربة الشاي. يداها على مقبض العربة، ووجهها شديد الشحوب.

يسألها السيد غريمثورب: «لقد هجرتِني عندما كنت في حاجة إليك. أية امرأة سيئة يمكن أن تفعل أمرًا كهذا؟». صوته متوازن، محسوب؛ لكن فيه نبرة غريبة تجعل معدتي تنقبض.

تقول جدتي: «يا سيد غريمثورب، أنا لم أفعل شيئًا مما تقول. كانت مهمتي أن أرعاك خلال المرحلة الصعبة بعد امتناعك عن الكحول. وأما عندما... بعد أن...».

يسألها السيد غريمثورب: «بعد أن ماذا؟». تخرج الكلمة الأخيرة من فمه عالية الصوت أكثر من غيرها.

«لديَّ اليوم مشاغل كثيرة، يا سيدي! لدي أعمال كثيرة أقوم بها من أجل السيدة غريمثورب. ينبغي أن أذهب... فعلًا».

«لأنك تخدمين زوجتي ولا تخدمينني؟ أهكذا هو الأمر؟ هل أمرتك زوجتي بأن تظلي بعيدة عني؟ هل شكوتِ لها أمري؟».

«يا سيدي، اتفقت مع زوجتك على أن يكون عملي بعد تعافيك منحصرًا هنا، منحصرًا في تنظيف القصر، وفي إعداد الطعام. لا شيء أكثر من ذلك».

يتقدّم السيد غريمثورب خطوة في اتجاه عربة الشاي. يقول: «عملك أن تنفذي ما يُطلب منك. هذا ما أدفع لك المال من أجله».

تقول جدتي: «كانت صحتك في تحسّن. كنت قد تجاوزت المرحلة الصعبة. هذا سبب توقفي عن الصعود إلى الطابق العلوي. حتى أكون واضحة، أقول إني لا ألومك على... على ما كنت تفعله قبل ذلك. لقد كنت مريضًا. كانت الشياطين مسيطرة عليك. دعنا نترك الأمر عند هذه النقطة».

يقول السيد غريمثورب: «أنا رجل مختلف، يا فلورا!». تبتسم شفتاه ابتسامة معوجّة.

تفلت يدا جدتي مقبض عربة الشاي بعد أن كانتا مطبقتين عليه. تقول له: «أنا سعيدة حقًا لأنك صرت نظيفًا».

يقول السيد غريمثورب: «نظيف. المعنى: صاحٍ لا عيب فيه، طاهر. ألا يذكرك هذا بإحداهن؟».

ترفع جدتي كتفيها.

يلتف السيد غريمثورب من حول عربة الشاي منسلًا بحركة مفاجئة ويمسك بجدتي. يحدث الأمر سريعًا فلا أستطيع فهم ما أراه. كان ذلك كأنه تحول في لحظة واحدة من رجل إلى ذئب. يداه على وسط جدتي. تلمع أسنانه البيضاء ويطبق فمه على رقبتها. ماذا يفعل؟ هل يحاول أن يأكلها؟ تلوّح جدتي بيديها وتحاول دفعه بعيدًا عنها.

أخرج من مكان اختبائي وأندفع داخلة الردهة. أصيح: «جدتي!».

يتجمد السيد غريمثورب في مكانه. يفلتها على الفور. شعره مشعث. واحدة من فردتَيْ شبشبه انزلقت من قدمه. أراها تشير إليَّ كأنها سهم قاتل.

يقول السيد غريمثورب: «بيب، لقد كنتُ، فقط... كنت أدعو جدتك إلى تناول الشاي». يعيد إدخال قدمه في فردة شبشبه.

فم جدتي مطبق. تنظر إليَّ، فأرى دموعًا متجمّعة في عينيها. تريد أن تقول شيئًا -أرى هذا- لكن الكلمات لا تخرج من فمها.

يقول السيد غريمثورب: «الشاي شراب جيد جدًا، ألا تعتقدين هذا؟ لقد ساعدني في تجاوز أسوأ فترات الظلمة. شاي حلو مع العسل. أليس هذا صحيحًا، يا فلورا؟ إن كان الرجل مرًا، فهو في توق دائم إلى الحلاوة. أتحبين أن تشربي فنجان شاي معنا، يا بيب؟». عيناه زرقاوان فولاذيتان مثلما هما دائمًا. ليستا مضرجتين بالدم. وهو طويل القامة، نحيل، حسَن الملبس. ليس محدودب الظهر ولا يكسو جسمه شعر. إنه

نظيف، يبدو محترمًا... لا يبدو ذئبًا في جلد حمَل. ما من أكوام عظام في زوايا مكتبه، ولا يعيش على جسر ويخيف من يحاولون عبوره.

لكني أرى الأمر الآن. أرى الأمر مثلما لم أره من قبل: أرى كيف يمكن أن يكون رجل إنسانًا ووحشًا في وقت واحد.

الفصل العشرون

«مولي، مولي!».

إنه السيد بريستون جالس إلى جانبي على كرسي البار. يدان تسندان ظهري، تمنعانني من السقوط.

أنجيلا تنظر إليّ. القلق بائن في وجهها. أراها تغلق اللابتوب.

أقول لهما: «أنا بخير».

تقول أنجيلا: «لا، لست بخير. لقد أغمي عليك، يا مولي. لو لم يمسك بك السيد بريستون، لسقطت عن كرسيك، لسقطت على الأرض».

أحس رأسي خفيفًا، مشوشًا. دبابيس ضوء تتلامع في محيط رؤيتي.

يقول السيد بريستون: «هيا، هيا! تنفّسي بعمق، يا مولي!».

أتنفس مثلما يقول لي.

يبعد السيد بريستون ذراعيه اللتين تسندانني ويقول لأنجيلا: «لقد عادت إلى أرض الأحياء، لا حاجة إلى الخوف».

أقول: «انظرا إلى هذا الذي تسببتُ فيه! لقد أتيتُ بالقذارة إلى الفندق. لقد وظّفت جرذًا، جرذًا اسمه ليلي».

يستدير السيد بريستون على كرسيه ويواجهني. «الآن، استمعي إليَّ جيدًا، أيتها الشابة! لا ترتكبي الغلطة نفسها مرتين».

أسأله: «أية غلطة؟».

يجيبني: «الافتراضات. تعلمين تمامًا ما يؤدي إليه ذلك. هناك طريقة واحدة فقط لتلافي افتراض أي شيء».

أسأله: «ما هي؟».

يجيبني السيد بريستون: «نجعل ليلي توضح موقفها».

تقول أنجيلا: «لكنها لا تكاد تستطيع أن تنطق بجملة كاملة».

أقول: «إنها تتكلّم، تتكلّم معي. تتكلّم عندما تكون مرتاحة. الأمر يستلزم وقتًا».

نقرّر بعد ذلك أن نحاول، على الأقل، أن نجعل ليلي تتكلّم، أن نسمع دفاعها بكلماتها. وعلى الفور، نضع خطة من أجل ذلك.

يسألني السيد بريستون: «هل تحسين أنك صرت في حالٍ تسمح لك أن تذهبي كي تأتي بها؟».

أجيبه: «نعم».

أقف لحظة إلى جانب الكرسي كي أختبر ذاتي. أقول لهما: «أحس الآن أنني صرت أحسن». هذا صحيح في معظمه. على الأقل، لم يعد العالم يدور من حولي.

تقول أنجيلا: «انطلقي، يا مولي! تابعي التنفس!».

أومئ لهما برأسي، ثم أخرج من مطعم سوشال مسرعة. أتجه إلى الطابق السفلي حيث أجد ليلي في غرفة تبديل الملابس في قسم خدمة الغرف، أجدها ترتدي ملابس العمل وتستعد لبدء يومها. تتغير معالم وجهها عندما لا أبادرها بعبارة «صباح الخير»، بل أقول: «ثمة أمر بالغ الأهمية ينبغي أن نتكلّم فيه»، ثم آمرها بأن تتبعني كي نصعد إلى مطعم سوشال.

وعندما نصل، نجد السيد بريستون وأنجيلا جالسين حيث تركتهما تمامًا. تتوقف ليلي لحظة تقع عينها عليهما.

تسألني بصوت لا يكاد يتجاوز الهمس: «ما الأمر؟».

أقول: «هذا، بالضبط، ما نريد اكتشافه».

ينهض السيد بريستون واقفًا عندما أقترب مع ليلي. يقول لها: «من فضلك، اجلسي يا ليلي». ويقدم لها كرسيه. تجلس متيبسة وتتفادى النظر في عينَيْ أي منا.

أقول لها: «يا ليلي، قد تكونين واقعة في مشكلة، لكننا غير واثقين من الأمر حتى الآن. نريد منحك فرصة شرح موقفك. دعيني أوضح لك أمرًا: نحن لا نفترض أنك لصة، ولا شريرة، ولا قاتلة لأن من شأن ذلك أن يكون تعجّلًا وأن يكون استباقًا للأمور».

يضيف السيد بريستون: «ما تحاول مولي قوله هو أننا نمنحك فرصة الاستفادة من الشك».

تضع أنجيلا اللابتوب على طاولة البار وتفتحه أمام ليلي. تقول وهي تشير إلى صفحة ذلك الموقع على الشاشة، «أردنا أن نريك هذا». بعد ذلك، تسير أنجيلا مع ليلي خطوة خطوة فتجعلها ترى كل ما هو معروض للبيع في ذلك الموقع إلى أن تنتهي بصورة النسخة الموقعة من كتاب السيد غريمثورب، النسخة المهداة إلى «العزيزة ليلي».

لا تكاد ليلي تأتي بأية حركة خلال ذلك العرض كلّه. كأنها استحالت حجرًا. لا تقول شيئًا حتى عندما نطالبها بالكلام، لا تقول شيئًا على الإطلاق.

يقول السيد بريستون: «أنا واثق من أنك قادرة على إدراك أن هذا أمر مثير للقلق. تستطيعين رؤية أن كل شيء يشير إلى أنك تسرقين من الفندق، إلى أنك أنت صاحبة هذا الموقع».

تومئ ليلي برأسها.

أسألها: «أليس لديك ما تستطيعين قوله دفاعًا عن نفسك؟ لعل لديك تفسيرًا».

تنظر ليلي في عينيَّ مباشرة وتقول: «الخادمة ملومة دائمًا».

تقول أنجيلا: «إذًا، أنت تعترفين بالأمر! لقد سرقت هذه الأشياء وطرحتها للبيع في هذا الموقع الوضيع على الإنترنت».

تقول ليلي: «لا». صوتها خافت جدًا، خافت إلى حد يجعلنا نقترب منها كي نسمعها... «لم أقل هذا. لم أعنِ هذا».

يسألها السيد بريستون: «إذا كنت غير مذنبة، فمن المذنب؟».

تغدو عيناها بركتين نديّتين وتقول: «شفاه منفلتة، سفن غارقة».

أقول لها: «يا ليلي، أنت تكرّرين هذه العبارة منذ أيام. لكنني لا أفهم ما تريدين قوله».

تجيبني: «في يوم من الأيام، تكونين أنت الرئيسة، يا مولي. وفي اليوم التالي، لا تكونين الرئيسة. أنا أؤدي عملي وعملها معًا. وهي ترغمني على أداء مهماتها وتقول لي إنني سأفقد عملي إن لم أفعل ذلك. لكنني لا أريد حمايتها بعد الآن. هي التي جعلتني أطلق جهاز إنذار الحريق كي تستطيع أخذ ذلك الصندوق الذي كان في ردهة الفندق. إنها تسرق البخشيش من الغرف كلها. وإذا لم ألزم الصمت، فسوف أفقد عملي من جديد، ولن أحصل على عمل غيره. «ابقِ فمك مطبقًا! شفاه منفلتة، سفن غارقة. هذا ما تقوله لي».

يفتح السيد بريستون فمه دهشة. تصفع أنجيلا وجهها بيدها.

يسألها السيد بريستون: «من يقول لك هذا، يا ليلي؟ ينبغي أن نعرف اسمها».

قد يكون السيد بريستون في حاجة إلى سماع الاسم، لكنني لست في حاجة إلى ذلك. اسمها مثل رائحة بشعة معلّقة في الهواء.

أمر غريب! مثلما كانت جدّتي تقول دائمًا: أحيانًا، يتضح كل شيء دفعة واحدة ويصير الجزء المفقود كأنه كان موجودًا هنا طيلة الوقت.

تقول ليلي بنبرة قاطعة: «شيريل. هي الجرذ».

أحس كأن الأمر نفسه يتكرّر. انتهى حديثنا مع ليلي، وأنا الآن أمضي سريعًا عبر ردهة الفندق كي أنزل إلى الطابق السفلي، إلى قسم خدمة الغرف. أريد أن أعثر هناك على خادمة، لكنها خادمة أخرى هذه المرة. تأخّرت عن موعد بدء عملي، وهذا يقلقني كثيرًا. لكن، ليس بقدر ما يقلقني ما قالته لنا ليلي.

أجدها عند خزانتها. إنها مرتدية ملابس العمل، تهم بوضع بطاقة «كبيرة الخادمات» على صدرها، فوق قلبها تمامًا. كيف تجرؤ على هذا؟ أكاد لا أستطيع منع نفسي من انتزاع تلك البطاقة من يدها وطعنها بها.

الغضب لا يحل شيئًا. والأمور الحسنة تأتي إلى من ينتظرون.

أجبر شفتيَّ على ابتسامة زائفة وأقول: «شيريل، ما أجمل أن أراك هذا الصباح، وما أجمل أنك لم تتأخري إلا خمس عشرة دقيقة. أتيت كي أخبرك بأنهم يقدّمون المافن وعصير البرتقال مجانًا في البار».

تجرجر قدميها الرخوتين إلى أن تصير واقفة قبالتي تمامًا. أضيف: «قالت أنجيلا إنك تحبين هذه التقديمات المجانية».

تضع يدها على وركها. تسألني: «هل قالت لك هذا؟».

أجيبها: «أجل». الحقيقة أن الأمر جرى على هذا النحو: عندما سألت السيد بريستون وأنجيلا كيف يعتقدان أنني أستطيع إقناع شيريل الفاسدة، التافهة، اللصة، التي لا تصلح لشيء بأن تصعد وتنضم إلينا في مطعم سوشال، كانت أنجيلا هي التي ابتكرت هذه الخدعة. قالت لي: «يكفي أن تقولي لها إننا نقدّم طعامًا مجانيًا. سوف تبتلع الطعم».

تنظر إليَّ شيريل مليًّا، ثم تهز كتفيها. تقول لي: «يبدو الذهاب لتناول المافن فكرة حسنة. أي شيء من أجل الابتعاد عن العمل!».

وهذا ما كان. أنا أصعد السلم وأعبر ردهة الفندق وأتحدّث عن الطقس الجميل مع عدوّتي الأولى، مع منافستي الأولى. أبتسم وأبتسم وأبتسم وأسير معها عبر ردهة الفندق الفخمة. نصل إلى البار في مطعم سوشال حيث أجد السيد بريستون يهم بالتهام قطعة مافن بشرائح الشوكولاتة أخذه من طبق عامر وضعته أنجيلا على البار. ليلي جالسة على كرسيها، جامدة تمامًا.

«أوه، مرحبًا يا شيريل!». يقول السيد بريستون هذا ويترك لها مقعده... «يسرنا انضمامك إلينا. تفضلي بالجلوس!».

تجلس شيريل على الكرسي. تقول: «شكرًا»، وتتناول قطعة مافن، ثم تفرقع بأصابعها صوب ليلي مشيرة إليها بأن تصب لها كأسًا من عصير البرتقال. تملأ ليلي الكأس وتقدّمها إليها من غير أن تنطق بكلمة واحدة.

تقول شيريل: «أوف... أمر لطيف أن أتخفّف قليلًا من عبء العمل».

«ترهقين نفسك بالعمل هذا الصباح... مع أنك لم تصلي إلا منذ لحظات!». أقول هذا فتدفع أنجيلا بطبق المافن في اتجاهي وتقترح بلطف أن أسد فمي بقطعة منه.

تقول شيريل: «اسمعي... إذا دخل سنو ورآنا جالستين هنا نلتهم الطعام، فقد كانت الفكرة فكرتك أنت، لا فكرتي».

تجيبها أنجيلا: «بالطبع! لا نحب أن نفعل أمرًا ونترك الملامة تقع عليك. أي نوع من البشر تظنيننا؟».

تقضم شيريل قطعة المافن وتبدأ تلوك لقمتها. عيناها الخرزيتان تفتشان في وجوهنا، لكنها لا تجد ما تبحث عنه. تقول: «الحقيقة أن هذا أمر غريب جدًا. ماذا تريدون جميعًا؟ ما الذي يجري هنا؟».

يتنحنح السيد بريستون ويقول لها: «بما أنك طرحت الأمر، فإن لدينا ما نود أن نتحدّث معك فيه».

لا تضيع أنجيلا أية لحظة. تفتح اللابتوب، ثم تفتح ذلك الموقع في الإنترنت. تقول لها: «يا له من يوم جميل! لكنه كالح أيضًا... أليس هذا صحيحًا، يا شيريل؟».

تنظر شيريل إلى شاشة اللابتوب. «هذا أمر لا علاقة لي به. لا علاقة لي به أبدًا».

تهمس ليلي: «إنهم يعلمون الحقيقة، يا شيريل. أخبرتهم منذ قليل».

تدور شيريل حتى تواجه ليلي. تقول لها: «أنت، أيتها العاهرة الواشية. أعطاني متجر الرهونات ثلاثين ألف دولار ثمنًا لتلك النسخة النادرة من

الطبعة الأولى. كنت أنوي إعطاءك جزءًا من ذلك المبلغ، يا ليلي. كيف تكونين غبية هكذا؟».

«قلت لك من قبل إنني لا أريد نقودك القذرة. لا أريد شيئًا غير عملي». تقول ليلي بصوت كأنه سكين هادئة.

تنتقل عينا شيريل الخرزيتان من ليلي إلى أنجيلا إلى السيد بريستون، ثم تنتقلان إليّ. تقول: «مهلًا! في وسعنا أن نبرم صفقة، أليس كذلك؟ نتقاسم حصيلة المبيعات بيننا نحن الأربعة شريطة أن نلتزم الصمت. إذا استطعتم أن تمسكوا ألسنتكم، فسوف نصير أغنى كثيرًا».

إن كان لي أن أمسك أي لسان في هذه اللحظة، فسوف أمسك لسان شيريل... سوف أمسكه كي أقتلعه من فمها.

يقول السيد بريستون: «أظن أننا سمعنا ما فيه الكفاية، هل نحن متفقون؟».

تومئ أنجيلا برأسها، وأومئ برأسي.

تقول ليلي: «بكل تأكيد، سمعت ما فيه الكفاية». لم يعد صوتها هامسًا. يملأني صوتها الصادح اعتزازًا.

يقول السيد بريستون: «مولي، هل تمانعين في استدعاء السيد سنو؟».

أجيبه: «أمانع؟ على العكس تمامًا. سوف يسرّني هذا كثيرًا».

أنحني لشيريل انحناءة أشد مما انحنيت لأي شخص خلال حياتي كلها، لأن هذه آخر تحية ستتلقاها من أي واحد منا... وذلك لزمن طويل جدًا.

الفصل الحادي والعشرون

في ما مضى

في الحياة لحظات زلزالية تغيّر كل شيء وتقسم كل شيء وترسم في الزمن خطًا واضحًا بين ما قبل وما بعد. مرت بي واحدة من تلك اللحظات عندما ماتت جدتي. لكنها لم تكن أول مرة أحسّ بذلك في حياتي.

كانت المرة الأولى عندما رأيت ما فعله السيد غريمثورب بجدتي في ردهة قصره. صحيح أنني لم أفهم الأمر تمام الفهم إلا بعد وقت طويل من ذلك، لكن ما جرى أمامي وقتها حوّلني من طفلة إلى راشدة، حوّلني في لحظة واحدة.

كان عليّ أن أدرك منذ البداية أن السيد غريمثورب وحش. قالت لي غرائزي هذا حتى قبل أن ألتقيه. لكن، مثلما هي الحال في أمور كثيرة أخرى، كنت غير قادرة على تصديق ما كان ماثلًا أمام وجهي تمامًا. لم أستطع أن أجمع الأمور كلها معًا مثلما أستطيع جمعها عندما أستعيدها في ذاكرتي.

أدرك الآن ما كان يجعل بعض الأيام شديدة الصعوبة على جدتي. أدرك الآن ما كان يجعلها أحيانًا تفتح ستائر غرفتي لكنها تنسى أن تقول لي: «انهضي وأشرقي». أدرك الآن ما كان يجعلها تعدّ وجبة الإفطار صامتة بدلًا من أن تدندن لنفسها بألحانها البهيجة. كان ذهابها إلى العمل يخيفها، وكانت تخشى أن يفرض السيد غريمثورب نفسه عليها. أتذكّر كيف كانت تجلس قبالتي وقت العشاء، بعض الليالي، عيناها كابيتان، تحرك الطعام في طبقها لكنها لا تكاد تأكل منه شيئًا. كان واضحًا أن ذهنها في مكان آخر.

كانت تحاول جاهدةً -على الدوام، كانت جدتي تحاول جاهدةً- أن تفتش عن الجانب المشرق، أن تركز على ما هو إيجابي. أن تقنع نفسها بأن غريمثورب قد تغير، بأنه لن يهاجمها من جديد بعد أن صار صاحيًا واستعاد صوابه. هكذا كانت جدتي. كانت لها قدرة لا متناهية على أن تضيء أملًا في الظلمة.

وقد كانت ناجحة في ذلك، معظم الأحيان. بكل تأكيد، استطاعت إقناعي بأن كل شيء في عالمنا الصغير المغلق يسير على ما يرام، وبأن مستقبلنا سيكون زاهرًا. كان كل ما تفعله يقنعني بأنني لن أستطيع الاستمرار فحسب، بل بأنني سأحقق نجاحًا كبيرًا. لكنني أدرك الآن كم كانت تعاني في الظلام وكيف كانت تحمل أعباءها وحيدة.

بعين عقلي، أنا طفلة من جديد. أنا وجدتي جالستان إلى طاولة المطبخ العتيقة نتناول وجبة الإفطار صباح اليوم الذي أعقب تحول السيد غريمثورب أمام عيني من رجل إلى ذئب مفترس. أؤرجح ساقيَّ أمامًا وخلفًا تحت كرسي المطبخ العتيق، مثلما أفعل دائمًا، لكن ما من شيء سيظل مثلما كان. على الأقل، هذا ما كنت أفهمه. كان من عادتي في الصباح أن أمطر جدتي بأسئلة طفولية كثيرة وأن ألحّ عليها بأسئلتي المصيرية عما يمكن فعله في هذا الموقف العصيب أو ذاك. أما اليوم، فلست أفعل هذا.

أرغم نفسي على ابتلاع وجبة الشوفان، لكني لا أتحرّك عندما تقول لي جدتي إن وقت ذهابنا إلى قصر غريمثورب قد حان. لا أستطيع أن أتحرك. أقول لها: «هذا غير سليم!». إنها أول مرة أتطرق فيها إلى ذكر ما يشير إلى ما رأيته في الردهة. أصمت لحظة، ثم أقول: «يا جدتي، لا يجوز أن تعودي إلى ذلك المكان». لا أعرف كيف أقول ما أريد قوله لها لأن ما من كلمات عندي أصف بها ما رأيت.

«مولي، اليوم يوم جديد». تنهض عن كرسيها بسرعة شديدة فتدفع

به إلى الخلف. تصرّ قوائم الكرسي على الأرض... «الشمس مشرقة، والعصافير تزقزق». تحمل طبقَي الطعام اللذين لم نكد نأكل منهما شيئًا وتأخذهما إلى المجلى مديرة لي ظهرها. تتمسك يداها بحافة المجلى. تقول لي: «فلنذهب الآن! حان الوقت».

عندما تستدير وتنظر إليَّ من جديد، أراها مبتسمة. أقسم أن ابتسامتها كانت حقيقية. لقد استخرجتها إرادتها من بئر عميقة داخلها. وها هي الآن تقدّمها إليَّ مثلما تقدَّم باقة من ورود نضرة. ترتدي أكثر الوجوه شجاعة لأنها... أي خيار آخر لديها؟

ظل هذا السؤال يؤرقني طيلة الليلة السابقة. رقدت في فراشي مستيقظة، متدثّرة حتى ذقني بلحاف جدتي ذي النجمة الوحيدة. كنت أحدّق في الظلمة وأفكّر في خياراتنا. انبثقت في ذهني خطة. على غير انتظار، رأيت الخطة واضحة. علمت ما ينبغي عليَّ فعله.

قالت لي جدتي ذات يوم إن المرء يجد نفسه في هذه الحياة مضطرًا، بعض الأحيان، إلى فعل أمر خاطئ كي يستطيع فعل أمر صحيح. لم أنسَ هذا يومًا من الأيام. صار شعارًا أعيش به حياتي.

أؤرجح ساقيَّ تحت الطاولة وقد عقدت العزم واتخذت قراري.

إنه يوم جديد. الشمس مشرقة. العصافير تزقزق. لديَّ خطة ولن يمنعني شيء من المضي بها حتى النهاية... لن يمنعني شيء.

نبلغ القصر من غير تأخير. حارس البوابة الخفي يفتحها لنا كي ندخل. الآن، أنا وجدتي واقفتان عند أول الممر. وعلى غير انتظار، يملأني الشك في ما اعتزمت تنفيذه. ماذا لو لم أستطع فعله؟ ماذا لو كان فِعل ذلك خاطئًا؟ ماذا لو كنت أرتكب غلطة رهيبة؟ لا! لن أصغي إلى هذه الشكوك! علينا أن نفرّ من الوحش! علينا أن نهرب من الذئب!

لم أقل شيئًا لجدتي، ولن أقول شيئًا. لكني أجد قدميّ مسمّرتين إلى الأرض حتى قبل أن نبلغ باب القصر. تضع جدتي يدها الدافئة على

ذراعي. تتحرّر قدماي وتصيران قادرتين على الحركة. نسير معًا المسافة الباقية من الممر، نسير صوب قصر غريمثورب.

الورود التي من حولنا انتهى عمرها ولم تبق منها وردة واحدة. انقضى زمن إزهارها ومالت رؤوسها الذابلة. جنكينز في الممر يكنّس بتلات الورد اليابسة الساقطة على الأرض ويجمعها في كومة كي يضعها في عربته. في الهواء رائحة جديدة، رائحة التحلل الحلوة.

يقول جنكينز عند مرورنا به: «صباح الخير، يا فلورا! كيف حالك وكيف حال صغيرتك في هذا اليوم الجميل؟».

تجيبه جدتي: «أظننا في حال حسنة إلى حد معقول، يا جنكينز!».

يقول: «انتهى موسم الورود، لكنْ، ثمة دائمًا موسم قادم».

تجيبه جدتي: «الأمل موجود دائمًا».

«نحن جميعًا في حاجة إليه، أليس كذلك؟».

تومئ جدتي برأسها: «هذا صحيح. كلنا في حاجة إليه».

نتابع سيرنا في الممر إلى أن نبلغ باب القصر. أمسك الدقاقة النحاسية التي على هيئة أسد وأدق الباب ثلاث مرات. ينفتح الباب الضخم. تُدخلنا السيدة غريمثورب. تخلع كل منا حذاءها وتمسح أسفله كالمعتاد، ثم تضعه بحيّز في آخر الخزانة، في الزاوية المظلمة المخصصة لأحذية الخدم.

تقول السيد غريمثورب من غير أن تضيّع لحظة واحدة: «هذا يوم الغسيل، يا فلورا! اصعدي إلى الطابق العلوي واجمعي ما ينبغي غسله. كوني سريعة! لدينا عمل كثير».

تجفل جدتي قليلًا، قليلًا جدًا. إجفالٌ ما كنت لأنتبه إليه قبل الآن... أما في هذا اليوم، فأنا أنتبه إليه.

«بعد أن تجمعي الأشياء المتسخة كلها، اجلبيها إلى الأسفل، إلى القبو. ابقي هناك وراقبي الآلات. عادت الغسالة إلى مسلكها الغريب.

وأيضًا، انتبهي إلى مُبيّض الغسيل. في المرة السابقة، أكثرتِ من استخدامه مع البياضات فأحرقتِ واحدًا من قمصان السيد غريمثورب. صار مثقوبًا».

تقول جدتي: «كانت عليه بقعة، يا سيدتي. وقد حاولت إزالة تلك البقعة».

تسألها السيدة غريمثورب: «أليست لديك طريقة لإزالتها غير إحراق القميص؟ من المؤكد أن خادمة نصف خبيرة تعرف كيف تفعل ما هو أفضل من هذا».

تجيبها جدتي: «نعم، يا سيدتي».

تقول لي السيدة غريمثورب: «أيتها الطفلة، في وسعك أن تصعدي وتقرئي في المكتبة، وسوف تلمّعين الفضيات بعد الظهر».

أقول لها: «هل تسمحين لي بالقراءة في الردهة، اليوم فقط».

تتغضّن جبهة السيدة غريمثورب. تقول: «هذا ممكن، شريطة أن تجلسي على كنبة واحدة فقط وألّا تمدي يدك إلى أي شيء. لا تنظفي شيئًا ولا تلمّعي شيئًا. هل تفهمين هذا؟ فلتبق مخالبك بعيدة عن كنوز السيد غريمثورب!».

أقول: «نعم، يا سيدتي».

«إذًا، اذهبي الآن!».

تضغط جدتي على ذراعي، ثم تلحق بالسيدة غريمثورب فتسيرا في الممر الرئيسي متجهتين إلى أعماق القصر. أنتظر لحظة كي أهدئ نفسي قبل أن أصعد إلى الطابق العلوي كي أجلب كتابي.

صوت صرير ألواح الأرضية تحت قدميّ يبدو اليوم مختلفًا، يبدو أشبه بتحذير. *لا تفعليها! لا تصعدي إلى الطابق العلوي!* أصل إلى فسحة السلم الأولى وأنظر من النافذة. ها هي هناك، سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية. منديلها الأزرق على رأسها ويداها في قفازيها

الأزرقين. أراها تدخل عبر باب القصر الجانبي، كعادتها. تجعلني رؤيتها أتساءل في نفسي: هل هي مضطرة أيضًا إلى أن تدفع الوحش عنها، إلى أن تصدّه؟

أتابع صعود درجات السلم، ثم أسير في الممر ذي ورق الجدران الشبيه بالدامسكو. أرغم قدميَّ على التقدم في اتجاه المكتبة. أتوقّف عند الباب لحظة. أنظر داخل الغرفة. أرى الضوء في الشق تحت الباب الخفي بين رفوف الكتب. الضوء منسكب على الأرض. أسمع خطوات شبشب السيد غريمثورب آتية من خلف الجدار.

أسير على أطراف أصابعي. ألتقط كتاب «*آمال عظيمة*». ثم أخرج بأقصى هدوء مثلما دخلت.

أنزل إلى الطابق السفلي وأدخل ردهة الاستقبال عبر بابها الفرنسي الطويل. أجلس على كنبة عالية الظهر ذات لون أزرق ملكي وأبدأ القراءة من غير صوت.

رات ـ تات ـ تات ـ تات.

ينطلق الصوت لحظة فراغي من قراءة واحد من الفصول. ذلك الصوت الإيقاعي المألوف، الصوت البعيد الآتي من عند سكرتيرة السيد غريمثورب التي تضرب على الآلة الكاتبة في عرينها المختفي في مكان عميق خلف جدران القصر.

أنتظر، وأتظاهر بالقراءة في الكتاب إلى أن أرى جدّتي تمرّ من أمام الباب المفتوح. تبتسم لي، ثم تتابع سيرها. أصغي إلى صوت خطواتها عند صعودها درجات السلم ذات الصرير. بعد بضع دقائق، تنزل جدتي حاملة على ظهرها كيسَي الغسيل الكبيرين. تتوقف عند الباب لحظة.

تسألني: «هل كل شيء على ما يرام؟».

أجيبها: «كل شيء على ما يرام. وماذا عنك؟».

تجيبني: «في أحسن حال. إنه يوم جديد!».

تسير في الممر بحملها الثقيل ذاهبة في اتجاه المطبخ. أسمع صوت السيدة غريمثورب ينبح بأوامر موجهة إلى جدتي... كأنها تقطعها بلسانها الحاد كالسكين.

أسمع صوت فتح باب القبو، ثم أسمع طب، طب، طب، طب. إنه صوت الكيسَيْن الثقيلين على درجات السلم.

توبّخها السيدة غريمثورب: «بحق حب الرب، ألا تستطيعين فعل أمر واحد بطريقة صحيحة؟ لماذا لا تحملين هذين الكيسين؟». تتردّد أصداء صراخها الغاضب في أرجاء البيت. تجيبها جدتي مثلما تجيبها دائمًا: «نعم، يا سيدتي. نعم، يا سيدتي».

بعد بضع لحظات من ذلك، أسمع خطوات السيدة غريمثورب في الممر آتية صوب الردهة. تظهر عند عتبة الباب المفتوح وتنظر إليَّ بطريقتها المعهودة... نظرة ازدراء.

«أنا خارجة إلى الحديقة كي أجعل جنكينز يفهم الأسلوب السليم للتخلص من الورود الميتة. عندما تكون الورود مصابة بأمراض فطرية وتخلطينها مع بقية الفضلات النباتية التي تتخمر كي تصير سمادًا، تنتقل عدوى المرض إلى الحديقة كلها. لا أظنه يعلم هذا. الظاهر أن العمال لا يعرفون شيئًا هذه الأيام».

أقول: «نعم، يا سيدتي».

تقول: «لن أتأخر». تشير إليَّ بإصبعها العظمية... «وتذكّري أن عليك ألا تمسي شيئًا».

أومئ برأسي. تستدير على عقبيها وتمضي في اتجاه باب القصر.

أظل ساكنة إلى أن أسمع صوت إغلاق الباب من خلفها. عندها، أغلق كتابي وأضعه على الطاولة الجانبية.

حان الوقت.

أذهب إلى رف الموقد وأقف أمامه. أتأمل بيضة فابرجيه المتألقة. لا

تزال جميلة مثلما رأيتها أول مرة. لا تزال أنيقة ساحرة مرصعة بصفوف من جواهر ثمينة متألقة، لا تزال مستقرة على قاعدتها المزينة المصنوعة من ذهب خالص.

أعلم أنه سيكون في الزمن خط فاصل جديد بعد أن أفعل هذا، سيكون فيه قبل وبعد. لكن هذا لا يوقفني. لن يوقفني شيء.

أمد يدي وأمسك بيضة فابرجيه. ثقلها المُرضي محسوس بين يدي. أعود مسرعة إلى مكاني وأفتح كتاب «*آمال عظيمة*» أخفي الكنز في حضني خلف الكتاب لأنني أسمع السيدة غريمثورب عائدة عبر الباب الأمامي.

«فلورا!». تطلق السيدة غريمثورب صرختها التي تثقب الآذان.

الآن، انقضت ساعات منذ تنفيذي الخطوة الأولى من خطتي. أنا في قبو قصر غريمثورب. نزلت إلى القبو كي أستخدم الحمّام لأن جدتي موجودة فيه الآن. لست مضطرة إلى مواجهة العناكب وحدي.

«فلورا!». تصرخ السيدة غريمثورب من جديد، صراخ زاعق أكثر من ذي قبل.

ليس لهذا إلا معنى واحد: لقد عثرت عليها.

أجفف يدي سريعًا، ثم أخرج من الحمام المخيف.

جدّتي تطوي واحدًا من قمصان السيد غريمثورب. تتجمّد لحظة سماعها صراخ الشيطانة التي في الأعلى.

«فلورا غراي! هل تسمعينني؟ اصعدي إلى المطبخ، اصعدي فورًا، واجلبي معك أيضًا تلك الطفلة الشريرة التي معك». تنظر إليَّ جدتي وترفع كتفيها.

أرفع كتفي ولا أقول شيئًا.

تتقدّمني جدتي صاعدة درجات السلم الرطب. أسير خلفها ونسير إلى المطبخ حيث نجد السيدة غريمثورب واقفة تنفخ غيظًا. وجهها

محمرّ غضبًا وبؤبؤا عينيها ثقبان صغيران حانقان. تقول: «تعالي». هذه ليست دعوة، بل أمر. تسير أمامنا حتى تبلغ خزانة الفضيات. نتبعها.

كنت قد تركت الأدوات الفضية التي لمّعتها في اليوم السابق مصفوفة صفًا أنيقًا على الطاولة. سطح الطاولة ممتلئ أدوات طعام فضية جاهزة لوليمة عظيمة لن تقام أبدًا. حتى هذه اللحظة، عملت أيامًا كثيرة بحيث صار كل رف من الرفوف التي خلف السيدة غريمثورب لامعًا متألّقًا، كل طبق فضي، وكل مجموعة أدوات طعام، وكل صينية... كل شيء لامع متألق. لم يبق عندي كي أنظفه غير رف واحد من أدوات الطعام الفضية المتسخة. يؤسفني أنني لن أستطيع إتمام العمل حتى آخره! لكن، فليكن ذلك! لا أهمية للأمر. لم تعد له أية أهمية.

تقول السيدة غريمثورب: «فلورا، كنت قبل قليل في ردهة الاستقبال كي أتأكد من أن هذه الطفلة المزعجة التي معك لم تمس شيئًا. بدا كل شيء في أحسن حال إلى أن لاحظت موضعًا خاليًا على رف الموقد. أدركت عندها أن بيضة فابرجيه ليست هناك. فتشت عنها في كل مكان. ثم تبادر إلى ذهني أن أتفقّد خزانة الفضيات. فماذا وجدت فيها؟».

تنقضّ السيدة غريمثورب وتفتح الخزانة التي أضع فيها القفازين المطاطيين وحوض التنظيف ومريلتي العتيقة وإبريق محلول القِلي.

تقول السيدة غريمثورب: «انظري! انظري فقط إلى ما هو ملفوف في مريلتها!».

تحمل جدتي مريلتي وتخرج بيضة فابرجيه من جيبها الأمامي المهترئ. تنظر إليَّ بعينَيْن متسعتين. فمها فاغر، والدهشة والصدمة ظاهرتان في كل خط من خطوط وجهها.

تقول السيدة: «كانت تريد سرقتها، يا فلورا! كانت تريد أن تتسلل بها خارجة من القصر... هذه الشيطانة الصغيرة الجشعة. هذه الأيام، لا

يستطيع المرء أن يكون واثقًا من أي شخص يدخل بيته. لا إخلاص. لا ضوابط. لا أخلاق».

تقول جدتي: «لكن، يا سيدتي، هي ليست أكثر من طفلة. لا بد أن هناك تفسيرًا للأمر».

«هي ليست إلا لصة. هذه حقيقتها. أنت التي تقع عليك مسؤولية توجيهها وجعلها تعرف كيف تميز بين الصحيح والخاطئ. إن كنت قد تعلّمتُ شيئًا خلال سنوات عمري، فهو أن التفاحة لا تسقط بعيدًا عن شجرتها. إن كانت لصة، فاحزري ما يقوله هذا عنك».

أواجه السيدة غريمشورب مباشرة وأقول لها: «لا. أنت مخطئة في هذه الجملة الأخيرة. لكنك محقة في كل ما قلته قبلها. لقد أردت سرقة بيضة فابرجيه. أخفيتها معتزمة أخذها معي إلى البيت. لكن الفكرة فكرتي وحدي. لا علاقة لجدتي بالأمر. لا يمكن لها أبدًا أن تقدم على فعل شيء من هذا القبيل».

تقول جدتي: «مولي، كيف تفعلين هذا؟ تعلمين أنه غير جائز».

أقول: «أعلم أنه غير جائز، لكني فعلته».

تقول السيدة غريمشورب كأنها تبصق الكلمات من فمها: «أرأيتِ؟ ما من بوصلة أخلاقية. ما من فهم لما هو صحيح ولما هو خاطئ. هذا جزء من طبيعتكم الحقيقية. طبيعتكم أن تكونوا لصوصًا فأنتم كاذبون مثلكم مثل كل من أتوا قبلكم. اخرجا من هذا البيت! اخرجا الآن!».

تقول جدتي: «من فضلك، لا تفعلي هذا! تعلمين مدى صعوبة الحصول على عمل هذه الأيام».

تصرخ السيدة غريمشورب: «اخرجا!». تجفل جدتي وتمسك بيدي، ثم نخرج بأسرع ما نستطيع.

تتبعنا السيدة غريمشورب عبر المطبخ، وتسير خلفنا في الممر إلى أن

نتجاوز اللوحات كلها ونصير عند الباب. تفتح الباب الداخلي لنا وتقف منتظرة، غاضبة، في حين تبحث جدتي عن حذائها وأبحث عن حذائي.

ما إن تصير أقدامنا في حذاءَينا حتى تفتح السيدة غريمثورب الباب لنا على اتساعه، ثم تمسك بي من ياقتي وتدفعني إلى الخارج. تخرج جدتي من خلفي. «أنت مطرودة. لا تعودي أبدًا إلى هذا المكان. أبدًا. هل تفهمين هذا؟».

تدير لنا ظهرها وتدخل البيت، ثم تغلق الباب الثقيل من خلفها.

نظل أنا وجدتي واقفتين لحظة عند الباب، مصعوقتين، غير قادرتين على الحركة. جنكينز في الممر على مسافة قريبة منا. إنه متجمّد إلى جوار عربته ينظر إلينا عاجزًا عن فعل أي شيء.

تمسكني جدتي من ذراعي ونسير معًا، نسير في ممر الورود متجهتين إلى بوابة قصر غريمثورب. أظنها آخر مرة نسير في هذا الممر. تقول جدتي عندما نبلغ منتصف الممر: «أنا غير قادرة على تصديق هذا. يا مولي، لماذا تفعلين أمرًا من هذا القبيل، بحق السماء؟ لماذا تريدين سرقة بيضة فابرجيه؟».

لا أجيبها بشيء لأن الإجابة لا أهمية لها الآن. كل ما يهمني هو أن السيد غريمثورب لن يمد يده إلى جدتي بعد الآن.

الفصل الثاني والعشرون

أجد السيد سنو في مكتبه يعمل على أوراقه. أدخل الغرفة وأقول له: «يا سيد سنو، وجودك مطلوب فورًا في مطعم سوشال. صحيح أن المسألة ليست مسألة حياة أو موت، إلا أنها حالة تستلزم تدخلًا فوريًا من جانبك».

يسألني: «ما هي تلك الحالة؟».

تلزمني لحظة كي أعثر على كلمات أقولها، لكني أفلح في قول: «مكافحة الحشرات والجرذان. لدينا جرذ في فندقنا. وهو ليس من نوع الجرذان التي تراها في الحديقة».

يسترعي الأمر اهتمامه. يغلق المصنّف الذي بين يديه وينهض واقفًا. يعدّل نظارته التي تكاد تسقط عن وجهه... كعادتها. أتقدمه فنخرج من المكتب ويسير خلفي بخطوات حذرة. نمضي في متاهة الممرات إلى أن نصير في مطعم سوشال. ينتبه إلى وجود أمر غريب لحظة دخولي إلى المطعم. شيريل جالسة على كرسي من كراسي البار ومن حولها السيد بريستون من ناحية وليلي من ناحية أخرى. وأنجيلا خلف طاولة البار.

يسأل السيد سنو: «هل بقي شيء في هذا الفندق يسير مثلما ينبغي؟ من الأفضل أن يكون السبب خيرًا».

تجيبه أنجيلا: «أعلم أننا نبدو أشبه ببداية نكتة سيئة. بواب وخادمتان يدخلون البار».

يتنهّد السيد سنو ويقول: «قالت لي مولي إن لدينا جرذًا. قولوا لي، بالضبط، ماذا لدينا هذه المرة؟».

أقول: «هذه». أشير إلى شيريل بإصبعي... اللعنة على قواعد السلوك! يتغضّن حاجبا السيد سنو لشدّة حيرته.

تفتح أنجيلا اللابتوب وتجعله يرى كل مادة من المواد التي عرضتها شيريل في ذلك الموقع في الإنترنت. ومع ازدياد دهشة السيد سنو، وازدياد عينيه اتساعًا من خلف نظارته المصنوعة من عظم السلحفاة، تظل شيريل هامدة مثل قطعة لحم في صحن حساء. ذراعاها معقودتان على صدرها، وفمها مطبق.

عندما تفرغ أنجيلا من الأمر كله، يلتفت السيد سنو إلى شيريل ويقول لها: «أأنت التي جعلت ليلي تطلق جهاز إنذار الحريق؟ أأنت التي أخذت ما كان في ذلك الصندوق الذي يخص سيرينا؟ أأنت صاحبة هذا الموقع في الإنترنت؟». يشير بيده إلى شاشة اللابتوب وهو يقول هذا.

ترفع شيريل كتفيها وتقول: «أعتبر نفسي رائدة أعمال في ميدان إعادة تدوير المواد. وبالمناسبة، ما تدفعونه لخادمات الغرف بائس جدًا. أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟ وقد ازداد دخلي سوءًا عندما أقصيتني عن وظيفة كبيرة الخادمات. ماذا تتوقع مني؟».

يقول السيد سنو: «ماذا أتوقّع؟ أتوقّع ألا تعمدي إلى الغش أو الاحتيال أو السرقة... من زميلاتك خاصة».

أقول: «لقد أرغمتِ ليلي على مساعدتك وعلى تنفيذ أوامرك. كيف تستطيعين فعل أمر من هذا القبيل؟».

تقول شيريل: «أوه، ما أهمية هذا؟ كم مرة رأيتك تسرقين علب المربى الصغيرة من الصواني التي يتركها النزلاء في الممرات؟ وكم مرة رأيتك تضعين في جيبك قطع الشوكولاتة التي يتركها النزلاء في غرفهم عند رحيلهم؟».

أقول: «هذه ليست سرقة. ينتهي الأمر بتلك المواد إلى أن تُلقى في سلة المهملات. أنا لا أفعل شيئًا غير تجنيبها ذلك المصير. إن في كتاب '*دليل خدمة الغرف*' فقرة توضح هذا الأمر».

«أنت وكتابك اللعين! اعترفي بهذا... أنت ممن يبحثون في القمامة، مثلك مثلي».

يتصلب ظهري كله. ينبض الدم في صدغي. على امتداد حياتي تلقيت شتائم كثيرة، لكني لم أتلق أبدًا شتيمة جارحة مثل هذه.

تسأل أنجيلا شيريل: «لماذا أطلقت على موقعك هذا الاسم؟ لماذا هذا الاسم تحديدًا؟».

«لأنه ذو وقع حسن. هذا ما يدعونه فن التسويق».

يقول السيد بريستون، «لعله أشد إيحاء مما كنت تريدين!».

تسأله شيريل: «أشد إيحاء بماذا؟».

تقول ليلي: «بجريمة قتل». صوتها قوي واضح لا يشبه الهمس أبدًا.

تضحك شيريل من أعماقها وتصفع فخذيها بيديها. تقول: «أظن أن مواد التنظيف الكيميائية التي تحبانها كثيرًا أنتما الاثنتان قد أكلت عقليكما. قد آخذ شيئًا من هنا وشيئًا من هناك، لكني لست قاتلة».

يقول السيد سنو: «يسرّني سماع هذا. من فضلك، يا شيريل، استمتعي بقطعة مافن أخرى ضيافة من فندق ريجنسي غراند!». ينهض نهوضًا مفاجئًا ويخرج هاتفه من جيبه. يطلب رقمًا. يقول لها: «في وسعك أن توضحي كل شيء بنفسك».

تقول شيريل: «أوضح!؟ ماذا تعني بهذا؟ لقد أوضحت كل شيء».

«إنني أتصل بكبيرة المحقّقين. أتصل بالمحقّقة ستارك».

بعد عشرين دقيقة من ذلك، تدخل المحقّقة ستارك مطعم وبار سوشال. تتجه إلى المصدر مباشرة، إلى حيث تجلس ثلاث خادمات وعاملة بار ومدير فندق يتجادلون في شأن نسخة من طبعة أولى من كتاب معروضة للبيع في متجر رهونات قريب.

يسأل السيد بريستون شيريل: «لقد قمتُ ببيع نسخة هي ملك لي، لكنك بعت نسخة حصلت عليها بطريقة غير مشروعة! ألا تستطيعين رؤية الفرق بين هذا وذاك؟».

تجيبه شيريل: «لو كان الكتاب الذي في الصندوق ذا قيمة كبيرة إلى

هذا الحد، فمن الواجب أن يكون مقفلًا عليه في خزنة الفندق. الحذر الشديد واجب في هذه الأيام».

تقول أنجيلا: «أمرك عجيب جدًا، يا شيريل! هل أنت حقيقية؟».

يدخل مطعم وبار سوشال بضعة عناصر شرطة ذوي وجوه مألوفة. يظلون واقفين عند المدخل، يحرسونه، في حين تتوقف المحقّقة ستارك أمامنا، نحن المجتمعين عند البار. على الفور، ينهض كل من ليلي والسيد سنو والسيد بريستون واقفين.

يقول لها السيد سنو: «شكرًا لأنك أتيت سريعًا، أيتها المحققة».

تسأل شيريل: «هل هذا ضروري حقًا؟ ألا ينبغي أن أعود إلى عملي».

يجيبها السيد بريستون: «لن تذهبي إلى أي مكان».

تسأل ستارك: «ألا يريد أي منكم أن يوضح لي ما يجري هنا؟».

لا تضيّع أنجيلا وقتًا. تضع اللابتوب أمام المحقّقة وتريها الأدلة كلها، في حين تظل شيريل جالسة على كرسيها خلف المحققة تمامًا. ذراعاها معقودتان على صدرها.

تقول أنجيلا: «هذه المواد المعروضة في الموقع كلها على صلة بغريمثورب باستثناء واحدة منها: زجاجات الويسكي الصغيرة. شيريل أقرّت بأنها صاحبة هذا الاسم. لقد باعت معظم مواد غريمثورب المسروقة إلى شخص واحد».

تلتفت ستارك في اتجاه شيريل وتحدّق فيها لحظة. تسألها: «منذ متى بالضبط بدأت تبيعين موادًّ عبر هذا الموقع؟».

تجيب أنجيلا: «منذ أن بدأتُ العمل هنا، أو... هذا ما يبدو».

تقول ستارك: «زجاجات الويسكي الصغيرة هذه... تقولين إنها آخر ما شربه السيد بلاك قبل موته».

تجيب شيريل: «إنها كذلك بالفعل. أخذتها من عربة خدمة الغرف التي تعمل عليها مولي. لكن هذا كان منذ سنين».

«من يتعاون معك من العاملين الآخرين في الفندق؟ أشخاص في المطبخ؟ أم ربما بعض الخادمات!». تنظر ستارك إليّ وإلى ليلي. أجد نفسي راغبة في الصراخ، لكن الحسّ السليم يجعلني ألتزم الصمت هذه المرة.

تقول شيريل وهي تشير إليَّ وإلى ليلي: «هل هذا مزاح؟ هاتان الاثنتان غير قادرتين على تمييز سبيكة ذهبية حتى إذا أصابتهما في الرأس».

أقول: «لقد أرغمَتْ ليلي على مساعدتها في ارتكاب جرائمها».

تقول ليلي: «لم أرد مساعدتها، أيتها المحقّقة. لكن... لكن». تعجز عن إتمام جملتها.

أقول لها: «تابعي! تكلمي!».

تواصل ليلي كلامها، «كل ما في الأمر هو أنني في حاجة ماسة إلى البقاء في هذه الوظيفة. وقد كنت خائفة ألّا يصدق أحد كلامي مقابل كلامها».

تهم شيريل بقول شيء، لكنها لا تلبث أن تغيّر رأيها. شفتاها مطبقتان مضمومتان ضمًا شديدًا... ذكّرتاني بشكل مؤخرة قطة.

تقول ستارك: «بطاقات الملاحظة غير الواضحة هذه... ماذا كان مكتوبًا عليها، يا شيريل؟».

تجيبها شيريل: «كيف لي أن أعلم؟ لم أهتم بقراءتها. بدت لي مضجرة».

تسألها ستارك: «من اشتراها منك؟».

تقول شيريل: «لا أدري. أرسلت كل شيء إلى صندوق بريد هنا، في هذه المدينة. يطلب المشترون إبقاء هوياتهم خفية. بل إنني لا أعرف أسماءهم الحقيقية».

«ألا تحتفظين بعناوين المشترين؟».

«أحتفظ بها، لكنها من غير قيمة. لا أستطيع بيعها».

يدمدم السيد بريستون بينه وبين نفسه: «أوطأ من مؤخرة سنجاب!».

تقول المحقّقة ستارك: «شيريل، سوف تجلبين لي معلومات صندوق البريد كي أبحث عن العنوان في مركز الشرطة».

ترفع شيريل كتفيها وتقول: «بالتأكيد».

تسألها المحققة ستارك: «وماذا عن رسالة الحب هذه؟ إنها غير واضحة بدورها. أظنك لم تقرئيها أيضًا!».

تقول ليلي: «الحقيقة أنها كانت أكثر إغراء لي، لذا قرأتها. لكنها كانت كلامًا عاطفيًا فارغًا. بدت أشبه ببطاقة من تلك التي كانوا يبيعونها في القرن العشرين. حملت توقيعًا يقول *'أكبر المعجبين بك'*. من الواضح أن العجوز غريمثورب كان مغرمًا بسكرتيرته الشخصية. القصة القديمة نفسها... رجل تقدّمت به السن، وعشيقة شابة. أمر يشبه ما كان لدى السيد بلاك».

أقول: «إنها مخطئة. لم يكتب السيد غريمثورب تلك الرسالة». أرى كيف يستحيل وجه السيد سنو قرمزيًا.

يقول السيد سنو مؤكدًا على كلامي: «أنا من كتب هذه الرسالة. إنني أكنّ نوعًا من... عاطفة للآنسة شارب -لسيرينا- منذ أتتنا قبل بضعة أسابيع من أجل ترتيب عقد المؤتمر الصحافي في صالة الشاي عندنا. تلك الرسالة، الرسالة التي وضعتها في الصندوق... الحقيقة... أنا أقرّ بأنها كانت إفصاحًا عن عواطفي».

أقول: «لقد تركت لها رسالة حب في غرفتها أيضًا، أليس هذا صحيحًا، يا سيد سنو».

تضيف المحققة ستارك: «ومعها اثنتي عشرة وردة».

يجيب السيد سنو: «لقد فعلت هذا». يُخرج من جيب سترته منديلًا يمسح به حبات العرق التي ظهرت على جبهته... «سيرينا شابة ساحرة، ذكية، نشيطة، لامعة. لا أفهم، يا شيريل، كيف تتخيلين أنها يمكن أن تكون عشيقة السيد غريمثورب. إنها مثال حي للجمال».

يقول السيد بريستون: «أوه، يا إلهي! الحب أعمى!».

تسأله المحقّقة ستارك: «هل كانت بينك وبين الآنسة شارب علاقة غرامية؟».

يجيبها السيد سنو: «يا إلهي!... لا!».

تضيف أنجيلا بصوت خافت: «ليس لأنه لم يحاول».

تلتفت ستارك إلى ليلي. تسألها: «هل أعطيتِ شيريل نسختك الموقّعة من كتاب السيد غريمشورب الأخير؟».

تقول ليلي رافعة ذقنها عاليًا: «أعطيتها!؟ بل أخذتْها مني. قالت إنني أستطيع استعادتها بعد أن أبرهن على أنني خادمة جيدة، وذلك من خلال تنظيف حصتها وحصتي من الغرف خلال نوبة عمل واحدة».

أقول: «هذا مستحيل. ما من خادمة قادرة على فعل هذا».

يقول السيد بريستون: «بالضبط».

تسأل المحقّقة ستارك: «نسخة الطبعة الأولى التي كانت في الصندوق. لماذا لم تكن معروضة عبر ذلك الموقع في الإنترنت؟ أين هي الآن، يا شيريل؟».

تقول شيريل: «لقد بيعت. رهنتها عند ذلك الرجل في متجر الرهونات في هذا الشارع. يدفع ثمنًا أعلى مقابل الكتب القديمة، أسعاره أعلى حتى من الأسعار في موقع الإنترنت».

تتبادر في ذهني فكرة. على نحو مفاجئ، أرى الأمر واضحًا. لقد استولت شيريل على كل ما طالته يداها الجشعتان. بل إنها أخذت أيضًا بطاقات الملاحظات التي كانت على المنبر. لذا... ماذا إن كانت قد أخذت أشياء أخرى أيضًا؟ أقول: «وعاء العسل وملعقته اللذان كانا على عربة الشاي الخاصّة بالسيد غريمشورب يوم مات، هل أخذتهما، يا شيريل؟ كانت تلك الملعقة آخر شيء مسّته شفتا السيد غريمشورب».

تقول شيريل: «وعاء عسل وملعقة؟ لا أعلم أي شيء عن هذا».

تحذّرها المحقّقة ستارك: «سوف يؤدي الكذب إلى إيقاعك في مشكلات أكبر حتى من المشكلات الكبيرة التي أنت واقعة فيها الآن. اعترفي بهذا! لقد أخذتِ الملعقة ووعاء العسل».

تجيب شيريل: «لم آخذهما! لكن الملعقة فكرة حسنة فعلًا... 'آخر ما مسته شفتا الكاتب الشهير!'. هذه أشياء يحبها أولئك المشترون. يدعونها 'إفيميرا'!»(1).

تتابع المحققة ستارك أسئلتها: «وماذا عن دفتر الملاحظات؟ لقد شوَّشت صور كثير من المواد التي فيها كلمات مكتوبة. لماذا لم تشوّشي صورة الدفتر أيضًا؟».

تجيبها شيريل: «لأن ما من شيء قابل للقراءة. لا شيء غير خطوط ومنحنيات وأحرف غير مقروءة. أستغرب عدم وجود كلمة مقروءة واحدة في دفتر يخص كاتبًا كبيرًا!».

بقيت ساكنة مستقرّة خلال هذا الكلام كله، لكن شرخًا صغيرًا ظهر الآن فهدد توازني بالخطر. كيف لم أدرك هذا من قبل؟ ينفتح صدع عميق في وجودي، وينتابني دوار. ما يتجلى لي الآن أمرٌ كبير جدًا، هائل. أبذل جهدًا كي أستطيع البقاء منتصبة القامة.

أحس يدًا تحطّ على ذراعي - ليست يد السيد بريستون، ولا هي يد السيد سنو. ليلي ممسكة بي، تثبتني، تجذبني إلى جانبها.

أسمع السيد بريستون يصيح: «مولي!».

تسأل المحقّقة ستارك: «بحق الجحيم، ماذا أصابها؟».

إنه العامل المجهول في المعادلة. المفتاح المفقود... لقد كان هنا، أمامي، طيلة الوقت. كان أمام عيني مباشرة.

---

(1) إفيميرا: أشياء توجد أو تُستخدم فترة قصيرة فقط، أو يكون متوقعًا لها أن تدوم زمنًا قصيرًا.

أقول: «أيتها المحقّقة ستارك، لدي اعتراف لا بد لي من الإدلاء به. ثمة أمر ينبغي أن تعلميه. أعرف السيد غريمثورب منذ كنت طفلة».

تهز المحقّقة ستارك رأسها. تقول: «وماذا؟ ما علاقة هذا بأي شيء؟».

العيون كلها متجهة إليّ. وجه شيريل ناضح بسرورٍ انتقاميّ.

أقول موضحة: «كانت لدى السيد غريمثورب مشكلة في الكتابة. والدليل هنا، في دفتر الملاحظات الأسود الصغير هذا. كان ذا تعليم جيد جدًا، لكنه غير قادر على كتابة كلمة واحدة. أتذكّر الأمر بوضوح تام. على طاولة مكتبه في القصر، هناك أكداس من دفاتر الملاحظات يزعم أنه يدوّن فيها مسوداته الأولى. كانت كلها مثل الدفتر الذي سرقته شيريل من ذلك الصندوق... عليها الأحرف الأولى من اسمه وفيها خربشات وخطوط متداخلة وحروف غير مقروءة. عندما كنت طفلة حسبت هذا شيفرة سرية، أو لغة سرية. لكنه لم يكن كذلك. الآن، أرى الأمر واضحًا».

تقول المحقّقة ستارك: «كما هي عادتك، يا مولي، لا معنى لكلامك أبدًا».

أقول: «ألا تستطيعين رؤية الأمر؟ دفتر الملاحظات الأسود هذا دليل على وجود دافع للقتل. كان هناك سبب وجيه يجعل واحدًا من الناس يريد موت السيد غريمثورب».

تقول أنجيلا: «حتى أنا لا أستطيع فهم ما ترمين إليه».

يضيف السيد بريستون: «ولا أنا».

تضيف ستارك: «بحق الرب، أوضحي الأمر لنا، من فضلك!».

أقول: «دافع. د-ا-ف-ع. المعنى: سبب للقتل. السيد غريمثورب لم يكتب كتبه. لم يكتب كلمة واحدة منها. شخص غيره كتبها».

الفصل الثالث والعشرون

كنت أظن أن هذا لا يحدث إلا في الأفلام، في الأفلام الكلاسيكية السوداء والبيضاء من ذلك النوع الذي كنت أتابعه مع جدتي في «ليالي الأفلام» في شقتنا. نكونُ جالستَين جنبًا إلى جنب على أريكتنا العتيقة. لكني أدرك الآن أنه يمكن أن يحدث في الواقع الحقيقي أيضًا... يمكن أن يمر أمامك شريط فيه جزء من ماضيك مثلما يحدث في فيلم سينمائي. تومض حياتك أمام عينيك وتذكرك بكل ما عشته ومررت به قبل وصولك إلى اللحظة الحالية، بكل ما جعلك كما أنت الآن.

هذا ما كنت أعيشه عندما رحت أكشف الحقيقة أمام المحقّقة ستارك، الحقيقة التي اكتشفتها خلال الأسبوعين اللذين أمضيتهما في العمل إلى جانب جدتي في قصر غريمثورب. ألمّع الأواني الفضية، وأقرأ في المكتبة، وأصادق رجلًا مضطربًا، كاتبًا قدمت إليه أفكارًا لم أتوقع أبدًا أن تقوده إلى تأليف كتاب يحقّق مبيعات كبيرة جدًا على نطاق العالم. عاد ذلك كله إلى ذهني بألوانه الحقيقية الحية. رأيته من جديد بعينيّ الآن.

اقترح عليَّ السيد سنو أن أذهب مع المحقّقة ستارك إلى مكتبه كي نتكلّم على انفراد. ذهبنا وأمضينا في مكتبه ساعة كاملة.

أنا جالسة على كرسي قبالة المحقّقة الضخمة التي كانت تبعث الذعر في قلبي دائمًا. أحكي لها قصة حياتي.

سوف أعترف بهذا: لأول مرة على الإطلاق، أجد المحققة ستارك تصغي إلى ما أقول بكل اهتمام وبكل صبر. لأول مرة، تدرك أنني متقدّمة عليها، وأنني أعرف أمورًا لا تعرفها. أستطيع رؤية ما تجده من صعوبة

في فهم الأمر وفي إقامة الصلة بين الماضي وبين ما وقع منذ أمد وجيز... السر الذي لم يجد حلًا له بعد، سر الكاتب الذي مات مسمومًا في فندق ريجنسي غراند.

كانت جدتي تقول: *القصص وسيلة للسير مسافة في حذاء شخص آخر.*

وقد كانت محقّة في قولها هذا. كل حكاية من حكايات الخيال تعلّمنا درسًا.

الوحش حقيقي دائمًا، لكن ليس مثلما تظن.

ما من سر يظل مدفونًا إلى الأبد.

ستظهر براءة الخادمة في آخر المطاف.

أقول للمحققة ستارك: «رات - تات - تات - تات.! كان ذلك الصوت مسموعًا دائمًا، صوت سكرتيرته الشخصية تطبع على الآلة الكاتبة. كان السيد غريمثورب يكتب بيده، لكنني لم أره مرة واحدة يفعل شيئًا غير رسم تلك الخطوط في دفاتر الملاحظات السوداء. كنت وقتها طفلة وقيل لها إن سكرتيرته الشخصية تطبع ما يكتبه، فصدّقت ما قيل لي. أما الآن، فلا أظن أن هذا كان حقيقة».

تسألني المحققة ستارك: «قلت لي قبل قليل إنك أعطيته فكرة نهاية روايته التي حظيت بأكبر قدر من الشعبية، فكرة استخدام محلول القلي».

«هذا صحيح. كانت الفكرة فكرتي. لكن، ماذا لو أن أحدًا غيري أعطاه بقية القصة، أعطاه بقية قصصه؟ لعل تلك السكرتيرة الشخصية كانت أكثر من ضاربة آلة كاتبة. لعلها كانت...».

تقول ستارك: «هل تعنين أنها كانت كاتبة خفية؟».

أجيب: «هذا ما أعنيه».

تقول ستارك: «كاتبة خفية تعمل في السر في حين يحظى النصّاب الذي في الواجهة بالثناء والشهرة».

أضيف من عندي: «ويجني الإيرادات المالية الضخمة. ألا يكون هذا مصدرًا للسخط؟ ألا يكون دافعًا إلى الانتقام؟».

على نحو مفاجئ، تنهض المحقّقة ستارك واقفة. تذرع محيط الغرفة بخطوات سريعة. تردد وقع خطواتها يسري مباشرة إلى عمودي الفقري.

تقول لي: «لقد تعرّفت على بعض الكتّاب من خلال عملي. أحيانًا، يأتي لاستشارتي أولئك الذين يكتبون قصصًا بوليسية. يريدون التأكد من أنهم كتبوا التفاصيل بطريقة صحيحة. فلنقل الآن، إن أولئك الكتّاب يعرفون الكثير عن الطرق التي تسمح لهم بقتل واحد من الناس من غير أن يتركوا أثرًا يدل عليهم. السؤال هو: هل يمكن أن يعمد كاتب -أو كاتب خفي- إلى استخدام معارفه بغية ارتكاب جريمة حقيقية؟ وإن كان الأمر كذلك، فهل يمكن أن يفلت بفعلته؟». تتوقف المحققة عن السير.

تقول لي: «مولي، أظنني لم أقدّرك حق قدرك».

أسألها: «ماذا تعنين بهذا؟».

«لا أفهم دائمًا ما تتحدثين عنه. لكنك استطعت تجميع سلسلة أدلة كاملة لم أكن منتبهة حتى إلى أنها يمكن أن تكون أدلة. أنا في حاجة إلى عونك».

أقول: «عوني أنا! في أي شيء؟».

«سوف نقوم برحلة».

فكرة الذهاب إلى أي مكان مع المحقّقة ستارك أمرٌ من أشد ما أستطيع تخيله رعبًا في هذه اللحظة. أسألها: «أين نذهب؟».

تجيبني: «إلى قصر غريمثورب، بالطبع».

الآن، أجد نفسي عند أطراف المدينة في سيارة شرطة تقودها المحقّقة ستارك. يواسيني قليلًا أنني جالسة في مقعد إلى جانبها، لا في المقعد الخلفي وراء الحاجز الواقي من الرصاص. يجعلني ذهابي إلى مكان لم أتخيل أبدًا أنني سأراه من جديد أحس أنني عدت طفلة صغيرة. لكني لا

أعود إليه الآن مع جدتي الحبيبة، بل مع محققة شرطة ضخمة جالسة إلى جانبي خلف مقود السيارة. ترتعش يداي. أتشبّث بمقبض الباب مثلما كنت فعلت قبل سنين طويلة عندما كنت جالسة في سيارة تاكسي في أول زيارة لي إلى القصر.

قبل انطلاقنا في هذه الرحلة، أجرت المحقّقة ستارك اتصالًا هاتفيًا مع أحد القضاة. شرحت للقاضي كل شيء وطلبت الحصول على إذن بالتفتيش. أرى الآن زاوية إذن التفتيش بارزة من جيب داخلي خفي في معطفها الأسود.

تقول ستارك وهي تنظر إلى الطريق أمامنا: «هل هو بعيد عن هذا المكان؟».

أجيبها: «لا. بقيت خمس دقائق فقط».

تومئ ستارك برأسها ثم تجول عيناها بين القصور الكبيرة المنتشرة في هذه الضاحية ذات الغابات الكثيفة. تقول: «هذه المنطقة فاحشة الثراء».

أقول: «ثرية أكثر حتى مما أراه في أحلامي».

نجتاز المنعطف الأخير في طريقنا فيظهر أمامنا قصر غريمثورب. أقول: «ها هو القصر. إنه هناك».

المبنى الضخم ذو الطوابق الثلاثة يبدو الآن مهيبًا مثلما بدا لي عندما كنت طفلة. نوافذه ذات الإطارات السود الموزّعة على ثلاثة صفوف... وجه مخيف، وجه عنكبوت ذو ثماني عيون.

تقود المحقّقة سيارتها حتى البوابة الحديدية. الطلاء الأسود متقشر، والصدأ ظاهر على الحديد. برج المراقبة على مرمى حجر. نوافذه المظللة تحجب من قد يكون فيه.

توقف المحقّقة ستارك السيارة. ننزل ونقترب من البوابة.

مفاتيح جهاز التخاطب الخفي باهت لونها. تشققت على مر السنين.

أقول: «عليك أن تطلبي حارس البوابة. إنه في برج المراقبة».

تضع المحقّقة ستارك يدها على البوابة وتدفعها. تنفتح البوابة من غير مشقة.

أقول: «أوه، لقد تغيرت الأمور!».

أعبر البوابة سائرة خلف المحقّقة.

نسير في الممر نفسه، الممر الذي تحفّ به الورود من الجانبين. براعم الورد بدأ تفتحها. إنها تبث عبيرًا شذيًّا، مُسكِرًا، شديد الحلاوة.

تقول ستارك: «لقد عرف هذا المكان أيامًا أفضل من هذه. يبدو الآن مثل فندق فولتي تاورز[1]».

القصر في حالة مزرية... واجهته متشقّقة، حائلة اللون. الورود هي الشيء الوحيد الذي يبدو أن هناك من يعتني به.

نبلغ باب القصر الضخم ذا الدقاقة التي على هيئة أسد. نحاس الدقاقة مسودّ، متسخ. عندما كنت هنا آخر مرة، وقفت مع جدتي عند هذا الباب، وكانت يدي في يدها. تداهمني الذكرى مثل ضربة تصيب قلبي.

تقول المحققة ستارك: «اقرعي الباب، وسوف أتولى أمر الكلام معهم!».

أمسك بدقاقة الباب. أدق الباب ثلاث مرات.

صوت خطوات ثقيلة، وبعض الحركة خلف الباب. يدور مقبض الباب الضخم. ينفتح الباب. يقف بالعتبة رجل رمادي الشعر جاحظ العينين على وسطه حزام أدوات جلدي فيه مجموعة من المجارف الصغيرة والمقارض والمقصّات. قوامه ممتلئ لتقدّمه في السن، وجسده لم يعد مثل علامة التعجب، بل صار أكثر شبهًا بعلامة الاستفهام. مع ذلك كله، أنظر في تلك العينين فأعرف الرجل الواقف أمامي.

«جنكينز، أهذا أنت؟».

---

(1) فولتي تاورز: مسلسل تلفزيوني بريطاني تجري حوادثه في فندق قديم اسمه فولتي تاورز.

«مولي، مولي غراي».

«أنت تتذكرني!».

يجيبني: «بالطبع أتذكرك، يا طفلتي الصغيرة. فتاة الفضيات التي تلمّع كل شيء حتى يبلغ الكمال. أوه، كان ذلك منذ زمن بعيد جدًا. كان هذا المكان مظلمًا في تلك الأيام. لكنك جعلت كل شيء مشرقًا».

أقول: «كنتَ لطيفًا معي. لكني كنت أخشاك قليلًا. كنت أصغر سنًا من أن أستطيع التمييز بين الشخص الجيد والشخص السيئ».

«كنتِ طفلة صغيرة قريبة من القلب، طفلة ملؤها طاقة الصبا. كنت أصغي إلى القصص الخيالية التي تروينها. لكنك كنت عاملة مجدّة أيضًا. كانت جدتك شديدة الاعتزاز بك. كيف حالها؟ فلورا؟».

أجيبه بنبرة محايدة: «لقد ماتت».

«أوه، هذا مؤسف جدًا. كانت امرأة صالحة».

أقول: «كانت من أحسن الناس».

تتنهّد المحقّقة ستارك وتقول: «أرى أنني قد توليت الكلام بالفعل!».

يلتفت جنكينز إلى المرأة الضخمة الواقفة بالباب. يسألها: «من تكونين؟».

تجيبه: «أنا المحقّقة ستارك. وأنا مكلفة بالتحقيق في قضية موت مالك هذا المكان. كنت أتساءل عمن يقيم هنا هذه الأيام، وفكرت في أن آتي كي أزوره».

يجيبها جنكينز: «الحقيقة ما من أحد هنا غيري في هذه اللحظة. نحن في انتظار قراءة الوصية. أظن أن هذا العقار سيُعرض للبيع عما قريب. وأنا واثق من أن السيدة غريمثورب تتقلّب الآن في قبرها».

أسأله: «جنكينز، هل أستطيع أن أسألك كيف ماتت؟».

يجيبني جنكينز: «ماتت بالسكتة منذ خمس سنين. ماتت بعد قطفها وردة من حديقتها هذه. تعلمين يا مولي أن السيد غريمثورب كان على

الدوام شخصًا غريبًا، لكنه صار أكثر غرابة بعد ذلك. وصار أشد ذعرًا. كان يقول إن أسراره لن تكون آمنة أبدًا بعد رحيل زوجته. مع ذلك، لم يعد إلى الشرب أبدًا. لقد وعد السيدة غريمثورب بهذا، وظل عند وعده. أظنه لم يكن وفيًا لها إلا في هذا الأمر فقط». يصمت جنكينز لحظة ويطرق برأسه ناظرًا إلى صندوق عند قدميه. الصندوق ممتلئ كله بأدوات الطعام المتسخة والتحف الصغيرة واللوحات. يقول: «إنني أخلي البيت. تلقيت أوامر بأن أخليه».

ينظر إلى ستارك من جديد، ينظر إليها من رأسها حتى قدميها. يسألها: «إذًا... هل لديك إذن بتفتيش المكان؟».

تقول ستارك: «لدي إذن تفتيش». تخرج الورقة من جيبها فينظر جنكينز فيها لحظة قبل أن يعيدها إليها.

أسأله: «جنكينز، هل يزعجك كثيرًا أن أقوم، أنا أيضًا، بجولة في البيت. سوف يعني لي هذا الكثير. إن لي في هذا المكان ذكريات عزيزة».

يقول: «قد تكونين الشخص الوحيد الذي له ذكريات عزيزة هنا». يلتفت إلى ستارك ويسألها: «هل توصلتم إلى اكتشاف الأمر... إلى معرفة الشخص الذي سمّم السيد غريمثورب؟».

تجيب ستارك: «لا. لكننا سنكتشف هذا. إنها مسألة وقت، لا أكثر».

يومئ جنكينز برأسه. الخطوط العميقة في وجهه خريطة أسرار مكتومة. يقول: «تستطيعان الدخول. سوف أكون في الردهة. إنني أخليها. هذه الأيام، لم تعد الأشياء القديمة محبوبة. حان وقت التغيير».

يزيح الصندوق جانبًا كي يفسح لنا متّسعًا للمرور. أقول له: «شكرًا، يا جنكينز!». قطع الزجاج المتدلية من الثريا ذات الطراز الحديث عليها طبقة كثيفة من شباك العنكبوت تجعلها تبدو كأنها مصنوعة من خشب حالت ألوانه، لا من زجاج.

«من هنا». أقول هذا للمحققة ستارك وأقودها في اتجاه السلم

الرئيسي. صرير درجات السلم صار أشد من ذي قبل وصارت تئن وتهتز تحت وقع الخطوات.

نبلغ أعلى السلم فأقول لها: «الحقي بي». نسير في الممر وتضيء المصابيح فوقنا من تلقاء ذاتها... على الأقل، تضيء تلك المصابيح التي لا تزال تعمل. ورق الجدران المزخرف في الممر حالت ألوانه، صارت باهتة. ذات مرة، كنت أرى في رسومه عيونًا، لكنني ما عدت قادرة على رؤيتها. هل كانت العيون موجودة حقًا أم إنها لم توجد إلا في مخيلتي وحدها؟

نمر بغرف النوم، غرفة بعد غرفة. أبوابها مفتوحة كلّها، لكن الستائر مسدلة في كل واحدة منها.

تقول المحققة ستارك: «المكان قذر».

كل ركن وزاوية، وكل حامل شمعة على الجدار عليه طبقة كثيفة من غبار. أقول: «لم يعرف هذا القصر أية خادمة منذ سنين طويلة جدًا». أتساءل في سري إن كانت جدتي آخر خادمة في هذا المكان.

لعل السيدة غريمثورب لم تستطع أن تثق بأحد بعد أن طردت جدّتي من العمل لديها.

نصل الغرفة التي في آخر الممر. أذهب إلى النافذة وأفتح الستائر المسدلة عليها. أترك الضوء ينسكب فيها عبر نوافذها الممتدة من الأرض إلى السقف.

لم تعد الغرفة مثلما كانت في ما مضى. الكتب مهملة، وطبقة من غبار على كعب كل كتاب من الكتب ذات الأغلفة الجلدية. تجول عينا المحققة ستارك في الغرفة كلّها... السلم ذو العجلات، وتمثال الحورية التي تحمل ظلة المصباح جللها الغبار، ورفوف الكتب على امتداد الجدران الأربعة. لا تتأخر عينها عن رصد النقطة الشاذّة، الكتاب الناتئ عن بقية الكتب، الكتاب الذي لم يغطه الغبار... قاموس أكسفورد اللامع على الجدار الرابع. تشير إليه وتسألني: «أهذا هو؟».

أقول: «صحيح. الباب السري، المدخل إلى مكان آخر». أتقدّم من الكتاب وأدفعه. ينفتح الجدار الرابع كاشفًا عن مكتب السيد غريمثورب.

تقول المحقّقة ستارك: «أمر غريب جدًا!». الدهشة تظهر على وجهها.

طاولة مكتبه في المكان نفسه الذي كانت فيه دائمًا. وعلى الطاولة أكداس كبيرة من دفاتر الملاحظات ذات الأغلفة الجلدية السوداء، وعلى كل منها الأحرف الأولى من اسمه. لقد ازدادت كثيرًا منذ كنت آخر مرة هنا. الأكداس التي على الطاولة لا تزال مثلما كانت، لكن على الأرض الآن مزيد منها. بعضها يبلغ الخصر ارتفاعًا. الغرفة مزدحمة بدفاتر الملاحظات السوداء التي لم تترك في الغرفة مكانًا خاليًا غير ممر ضيق يؤدي إلى طاولة السيد غريمثورب، وممر ضيق يؤدي إلى رفوف الكتب على الجدار البعيد.

تقول ستارك: «واو! هذا جنوني! هل كانت غريمثورب من هواة جمع هذه الدفاتر؟».

أقول: «بطريقة ما، كان كذلك. سيد كل شيء. سيد لا شيء».

تلتقط واحدًا من الدفاتر وتفتحه على صفحة من الصفحات فتجدها غاصة بمنحنيات وخربشات ورسوم تشبه الحروف لكنها غير مقروءة.

تقول: «ما من شيء مقروء هنا. تمامًا مثل الدفتر الذي باعته شيريل».

تتحقّق ستارك من بضعة دفاتر أخرى. وأفعل مثلها على الرغم من شدة كرهي من أن تتسخ يداي بالغبار. محتويات الدفاتر مثلما هي في ذاكرتي تمامًا: خطوط منحنية وخربشات، لا كتابة حقيقية ولا حتى رموز سرية؛ وبالتأكيد، هي ليست رواية مكتوبة بكلمات عادية.

تقول ستارك: «ما من شيء هنا يستطيع أي شخص أن يطبعه على الآلة الكاتبة».

أجيبها: «هذا صحيح تمامًا. والسيد غريمثورب لم يكن يستخدم الآلة الكاتبة أبدًا. كانت سكرتيرته هي التي تستخدمها على الدوام. تستخدمها

غير مرئية. في حين كانت دفاتر الملاحظات هذه تتكاثر هنا من غير أن تمتد يد إليها».

تنتبه المحقّقة إلى شيء في خزانة كتب السيد غريمثورب عند الجدار البعيد: كتاب آخر ناتئ من بين الكتب كلها؛ وهو الكتاب الوحيد على الرف الذي لم يتراكم عليه الغبار. نسخة ثانية من قاموس أكسفورد. تذهب إلى الكتاب وتضغط عليه. ينفتح الجدار.

أقول مستغربة: «ماذا؟ لم أنتبه يومًا إلى هذا الأمر».

تجيبني ستارك: «يسرني أنني استطعت أن أكون نافعة في أمر من الأمور». تعبر الباب الضيق إلى غرفة مكتب حديثة، غرفة شديدة النظافة، غرفة بيضاء متألقة هي نقيض كل ما رأيناه قبلها. ألحق بالمحققة ستارك. في زاوية الغرفة سلم حلزوني يفضي إلى باب القصر الجانبي. على واحد من الجدران مجموعة من رفوف آيكا، وعلى كل منها أكداس من أوراق مطبوعة منظمة تنظيمًا دقيقًا ومجلدة بأغلفة من البلاستيك. ثمة رف لكل واحد من الكتب التي أصدرها السيد غريمثورب في ما مضى. العناوين مطبوعة بشكل واضح فوق كل كدس من تلك الأكداس المرتبة كلها بحسب سنة إصدارها... من الورق الأبيض حديث العهد إلى الكتاب الذي حقّق مبيعات كبيرة جدًا، كتاب *«الخادمة في القصر»*، الكتاب الذي اصفرّت أوراقه لطول الزمن.

تجثو المحققة ستارك كي تلقي على الأوراق نظرة أكثر تدقيقًا. تقول لي: «الظاهر أنها مخطوطات رواياته».

تنهض واقفة وتسير إلى طاولة مكتب بسيطة عند أحد جدران الغرفة. على الطاولة لابتوب ماكنتوش وردي اللون. اللابتوب مغلق وإلى جانبه طابعة... ما من شيء آخر.

عندها، أراها. في كوّة في الجدار خلف طاولة المكتب، أرى آلة كاتبة

من النوع القديم. وعلى الجدار فوقها صورة وحيدة في إطار مذهب بسيط. أقترب من الصورة كي أنظر إليها عن كثب.

ما أراه مفاجئ جدًا لكنه، بطريقة من الطرق، منطقي تمامًا. ها هي هنا، المرأة ذات المنديل الأزرق والقفازين الأزرقين. أراها في الصورة واقفة وقد أحاطت ذراعاها بفتاة صغيرة تكاد تكون نسخة عنها. أقول: «ها هي! السيدة ذات المنديل الأزرق، سكرتيرته الشخصية السابقة. عندما كنت طفلة، كانت تأتي كل يوم وتدخل عبر الباب الجانبي. لم أستطع أبدًا معرفة موقع مكتبها، لكني كنت أسمعها تضرب على الآلة الكاتبة».

تقترب ستارك من الصورة وتنحني كي تنظر إليها. تسألني: «ولكن، من تكون هذه الطفلة إلى جانبها؟».

مرة أخرى، أدرك أمرًا قبل أن تدركه المحقّقة ستارك. أضع اثنين واثنين معًا فأصل إلى حصيلة أكبر مما تخيلت أنها يمكن أن تكون. «ألم تعرفيها؟ انظري جيدًا!».

تنظر ستارك إلى الصورة مرة أخرى، ثم تقول: «يا ربي! أهذه هي؟».

أجيبها: «هذه هي. تشبهها إلى حد غريب، أليس كذلك؟ تلك الفتاة الصغيرة هي الآنسة سيرينا شارب».

الفصل الرابع والعشرون

«ما ألطف أن أراكما متطفلتَين هنا! من فضلكما، لا تتحرّجا من تفتيش مكتبي!». أجفل، وتجفل المحققة ستارك. نلتفت إلى مصدر الصوت. نرى الآنسة سيرينا شارب واقفة بالباب. في إحدى يديها مفاتيح سيارة.

تقول ستارك موضحة: «الرجل الذي في الأسفل سمح لنا بالدخول».

«سمعت هذا. هل أستطيع سؤالكما عما تفعلانه في مكتبي، بحق الجحيم؟».

أقول لها: «كنت على معرفة بأمك. أو، الحقيقة أنني لم أعرفها، لكني كنت أراها في طفولتي عندما كنت أعمل هنا مع جدتي. كانت أمك سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية. هذه الصورة... أنت ابنتها». أقول هذا وأشير إلى الصورة التي على الجدار.

تتنهّد الآنسة شارب وتقول: «نعم، هذه أمي، وماذا إذًا».

تقول المحققة ستارك: «لم تقولي هذا من قبل».

أضيف إلى ما قالته المحقّقة ستارك: «وأيضًا، لم تقولي إن أمك هي المؤلفة الحقيقية لكتب السيد غريمثورب».

تنظر إليّ الآنسة شارب بعينيها الثاقبتين، ثم تعبر الغرفة وتقف أمام الكوة التي فيها الآلة الكاتبة القديمة التي كانت لأمها. تشير إليَّ بإصبعها وتسألني: «كيف عرفتِ ذلك؟».

أقول: «دفاتر الملاحظات. ليس فيها شيء غير خطوط لا معنى لها. مع ذلك، رات - تات - تات - تات. كانت أمك تطبع على الدوام، تطبع كل يوم».

تومئ برأسها بطيئًا وتقول: «انتقاها السيد غريمثورب لتقيدها

بالسرية، فضلًا عن أمور أخرى. كانت أمي تتقن العمل في الخفاء وتتقن حفظ الأسرار أيضًا». تتأمل الآنسة شارب الصورة المعلّقة على الجدار... «غريمثورب لم يكن كاتبًا على الإطلاق. منذ زمن بعيد، قبل أن يصير عاجزًا عن الكتابة، كان يبتكر حبكات غريبة وقصصًا محيّرة يعرضها على أمي شفاهة. وكانت أمي تحوّر جنونه بحيث يصير قصصًا معقولة. شيئًا مثيرًا محيّرًا عندما يقرأها المرء مكتوبةً على الورق. كانت شديدة البراعة في ذلك، فجعلت منه كاتبًا شهيرًا جدًا. لكنها كانت، على الدوام، صاحبة السحر الحقيقي الكامن في كتبه».

أقول: «وقد أبقى أمرها سرًا».

تقول الآنسة شارب مؤكدة ذلك: «صحيح. لم يعلم أحد حقيقة الأمر غير السيدة غريمثورب».

تسألها المحققة ستارك: «لماذا لم تقولي لي أي شيء من هذا قبل الآن؟ عندما قابلتك في مركز الشرطة، لم تذكري شيئًا عن أمك، كما رفضتِ أن تنطقي بكلمة واحدة عما كان السيد غريمثورب قد اعتزم الإعلان عنه».

تذهب الآنسة شارب إلى مكتبها وتجلس في كرسيها النظيف. تقول: «لم أكن قادرة على إخبارك لأنني وقّعت عقدًا». تشير إلى كرسيين أبيضين قبالتها وتقول: «من فضلكما، اجلسا!».

تجلس المحقّقة ستارك. وأجلس إلى جانبها.

تشبك الآنسة شارب يديها وتضعهما على المكتب. «أعلم منذ سنين طويلة أن أمي كانت الكاتب الخفي الذي يؤلف كتبه. كنت أتوسّل إليها أن تطالبه بتعويض مالي جيد، وأن تشاركه حقوق كتبه، لكنها كانت أمًا وحيدة خائفة من رئيسها في العمل، وخائفة من خسارة وظيفتها المستقرة. كانت تعرف أنها تستحق المزيد، لكنها لم تستطع أبدًا أن تحمل نفسها على مواجهته أو على مواجهة زوجته. لم ترد أن تواجه غضبهما».

تصمت الآنسة شارب وتحدّق في غرفة مكتب السيد غريمثورب الفوضوية الظاهرة عبر الباب المفتوح... «ذلك الرجل المتعلم جيدًا لكنه غير قادر على تأليف كتاب حقيقي. كان معطوبًا إلى حد كبير».

أقول: «معطوب وصاحب سلطة أيضًا. كانت لديه قدرة على جعلك تحسّين نفسك متميزة، لكن صغيرة في الوقت نفسه».

تتّسع عينا الآنسة شارب دهشة. «هذا صحيح تمامًا. كان غضبي شديدًا عندما ماتت أمي السنة الماضية من غير أن تتلقى تعويضًا مناسبًا عن عملها. لقد عاشت حياتها كلّها في تقشف شديد. ظلت عشرات السنين تتلقّى راتب سكرتيرة، لا أكثر. أبقاها الخوف صامتة، لكنه لم ينفع معي. لقد وضعت خطة».

نتبادل نظرة سريعة، أنا والمحققة ستارك التي تقول لها: «تابعي كلامك!».

«تركت الدراسة الجامعية وحللت محل أمي، فصرت سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية. سرّه هذا كثيرًا لأنه سمح له بالمحافظة على الاستمرارية والسرية معًا... بالمحافظة على كلتيهما في صورة أكثر شبابًا وجمالًا. كان غبيًا لظنه أنني قادرة على الكتابة مثلها، لكن الحقيقة أنني لم أحظ أبدًا بما كان لدى أمي من موهبة في القصّ. عندما فطن إلى الأمر وهدّد بأن يطردني، هددته بالمقابل».

تسألها المحققة ستارك: «ماذا كان تهديدك؟».

«قلت إنني سأفضح زيفه وأقول للعالم كله إن أمي هي مؤلف كتبه الحقيقي». تقول هذا وتشير إلى الرفوف الغاصة بمخطوطات الكتب... «هددته بمقاضاته من أجل كل قرش كسبه... إلا إذا استجاب لمطالبي».

أسألها. «ماذا كانت مطالبك؟».

«مبلغ إجمالي قدره خمسة ملايين دولار يسلمني إياه، فضلًا عن مئة بالمئة مما يحصل عليه، من الآن فصاعدًا، من عائدات الكتب التي ألّفتها أمي».

تقول ستارك: «يعني هذا أن تحصلي على العائدات كلها».
تقول الآنسة شارب: «هذا صحيح».
أسألها: «كيف كانت ردة فعله؟».
«كانت ردة فعله هادئة، باردة كبرودة الجليد. أظنه توقّع ذلك». تبسط الآنسة شارب يديها فوق اللابتوب المغلق أمامها... «وافق على شروطي كلها. بل إنه لم يحاول إقناعي حتى بالصمت بخصوص ما قدّمته أمي. لكن، بالمقابل، كانت لديه بضعة شروط من جانبه».
أسألها: «ما تلك الشروط؟».
«أصر على إعلان الأمر بنفسه. أراد أن يكون هو من يقرّر ما يُقال».
تقول المحقّقة ستارك: «هذا سبب إقامة المؤتمر الصحافي في الفندق».
«نعم. وقد جعلني أوقّع على عقد يقول إن الاتفاق الذي بيننا يصير لاغيًا منعدِم الأثر إذا سُرّب أي شيء قبل إقامة ذلك المؤتمر الصحافي».
تقول ستارك: «بمعنى أنك لن تحصلي على المال».
تجيبها الآنسة شارب بصوت حاد النبرة: «بل بمعنى أن أمي لن تستعيد شيئًا من اعتبارها. هذا ما منعني من قول أي شيء عندما سألتِني عما كان السيد غريمثورب قد اعتزم الإعلان عنه في المؤتمر الصحافي. لم أرد قول شيء من شأنه أن يبطل ذلك العقد».
تصمت الآنسة شارب. تفتح درج طاولتها وتخرج العقد منه. تقدّمه إلى المحقّقة ستارك التي تنظر فيه مليًّا بوجه جاد، ثم تومئ برأسها.
أسألها: «وماذا سيحدث الآن؟... بما أن الميت لا يستطيع أن يقول شيئًا».
تجيب الآنسة شارب: «لقد استشرت محاميًا. الظاهر أنني في مأزق. إذا كشفت الحقيقة، تبطل الصفقة حتى بعد الموت».
أقول: «يعني هذا أن إعادة الاعتبار لأمك تعني التخلي عن المال».

تجيب الآنسة شارب مع ابتسامة لا تكاد تبلغ عينيها الشبيهتين بعيني قطة: «هذا صحيح». تنهض المحققة ستارك وتخطو أمام طاولة الآنسة شارب. تقول لها فجأة: «لا بد أنكِ كرهت ذلك الرجل».

تجيبها الآنسة شارب: «لا أزال أكرهه».

«إذًا، دعيني أطرح عليك سؤالًا. هل كرهته إلى حد جعلك تدسّين له سمًّا».

تضحك الآنسة شارب، لكن صوت ضحكتها خافت جدًا. «ألم تفهمي شيئًا؟ هو لا يفيدني إن كان ميتًا».

أدلي بدلوي وأقول: «لم يكن مفيدًا لك في حياته أيضًا».

تنظر ستارك إليَّ وعلى شفتيها ابتسامة لا تكاد تبين.

تقول الآنسة شارب: «افهميني جيدًا. كرهت ذلك الرجل بكل ذرة من ذرات جسدي. كان يستغل أمي بطرق كثيرة لا أستطيع إحصاءها. لقد استغل مواهبها وزعم أنها مواهبه. فعل أمورًا أخرى أيضًا».

تسألها ستارك: «ماذا فعل؟».

أقول: «كان يتحرّش بأمّك ثم يستخدم ذلك ضدها».

تنظر إليَّ الآنسة شارب مستغربة. تسألني: «كيف علمت هذا؟».

أجيبها: «جدتي. كان يفعل الأمر نفسه معها. أظنه كان يفعله مع كل امرأة تعمل لديه، وهذا سبب إصرار السيدة غريمثورب على عدم تشغيل أحد في هذا البيت غير امرأتين موثوقتين فقط. وبكلمة موثوقتين أعني امرأتين مرغمتين على التزام الصمت».

«جدتك وأمي».

«نعم».

تقول الآنسة شارب: «لم ينل جزاء ذلك طيلة حياته. بل إنه حاول معي أيضًا. أقسم أنني دفعته عني بقوة شديدة إلى حد كاد يقتله. رجل له هذه السلطة كلّها، لكنه شديد الضعف. كنت أتوقع دائمًا أن يسقط ميتًا

ذات يوم لأنه حساس إلى هذا الحد. كنت في انتظار ذلك اليوم، لكني لم أتوقع أن يموت في اليوم الذي لا يناسبني».

كلمة قالتها لفتت نظري من بين الكلمات الأخرى كلها. أقول لها: «حساس! لماذا تصفين السيد غريمثورب بأنه حساس؟».

تقول الآنسة شارب: «كان لإدمانه الكحول سنوات طويلة أثره عليه. تلف كبده وتلفت كليتاه».

تقول المحققة ستارك: «لهذا السبب، قتله مانع التجمد سريعًا. لم تستطع أعضاؤه التعامل مع السم».

في تلك اللحظة، يظهر جنكينز بباب الغرفة. بين يديه صينية عليها إبريق شاي يتصاعد منه البخار وفناجين من البورسلان تذكّرت أنني رأيتها منذ زمن طويل جدًا.

يقول: «سيدتي، أتيت بالشاي. لم أكن واثقًا من أنك تريدين فنجانين من أجل ضيفتيك».

تجيبه الآنسة شارب: «ضيفتاي!؟ أنت الذي سمحت لهما بالدخول، يا جنكينز».

يتفادى النظر في عينيها ويقول: «لم أكن مُخيّرًا في ذلك. على أية حال، أحضرت الشاي لثلاثة أشخاص». يضع الصينية على طاولتها، ويبتسم لي، ثم يخرج من الغرفة.

تحمل الآنسة شارب إبريق الشاي وتصب ثلاثة فناجين. تقول لي وللمحققة ستارك: «تفضلا!».

تقول ستارك وهي تحمل الفنجان الرقيق الجميل الذي يبدو صغيرًا جدًا بين يديها الكبيرتين: «أشرب الشاي من غير إضافات. لست مولعة بشرب الشاي. أفضّل القهوة».

آخذ فنجاني البورسلاني الجميل من الصينية. أضيف إليه قليلًا من الحليب وأحركه بملعقة فضية تغيّر لونها. يصدر صوت رنين لطيف مع

اصطدام الملعقة بجوانب فنجان البورسلان، تمامًا مثل الصوت الذي يصدر عن ملعقة فندق ريجنسي غراند عند اصطدامها بجوانب فنجان ريجنسي غراند.

أشهق بصوت مرتفع وأكاد أدلق الشاي الحار على نفسي. أضع الفنجان والملعقة على طاولة الآنسة شارب.

تتسارع دقات قلبي. أفهم الأمر كله في لحظة، كل نقطة غامضة تصير واضحة، وكل عنصر يقع في مكانه الصحيح. أكاد أعجز عن التنفس. أحس الغرفة تميد بي. أقول: «أيتها المحقّقة ستارك، علينا أن نذهب إلى الفندق. علينا أن نذهب فورًا!».

تجيبني المحقّقة ستارك: «لكن، لدي أسئلة أخرى أريد طرحها على الآنسة شارب».

«لا. لا مزيد من الأسئلة. ليس لدينا وقت. علينا أن نذهب إلى فندق ريجنسي غراند من غير أي تأخير».

تسألني ستارك: «ماذا أصابك، يا مولي؟ لماذا صرت في عجلة شديدة من أمرك على غير انتظار؟».

«لأن الآنسة شارب ليست مَنْ قتل السيد غريمثورب. ولأنني أعرف بالضبط من قتله».

الفصل الخامس والعشرون

منذ زمن بعيد، حكت لي جدتي قصة حقيقية عن خادمة وجرذ وملعقة. لم أنس تلك القصة يومًا. تُتهم خادمة تعمل في قلعة بأنها سرقت ملعقة فضية، لكن سنين طويلة تمضي فتُكتشف الملعقة في عش تحت الأرض وإلى جانبها الهيكل العظمي للفأر الذي سرقها.

هذا ما أفكر فيه وأنا جالسة إلى جوار المحقّقة ستارك في سيارة الشرطة قبل انطلاقنا. نحن أمام بوابة قصر غريمثورب، وفي حجري بيضة مرصعة بالجواهر... هدية وداعي من جنكينز.

فرغت قبل قليل من شرحي التفصيلي للمحقّقة عما يوجب علينا أن نعود مسرعتين إلى فندق ريجنسي غراند. قلت لها كل ما أعرفه، كل ما أتذكره.

قالت لي عندما فرغت من كلامي: «أنا غير قادرة على تصديق هذا. مولي، كيف استطعتِ الربط بين هذه الأمور كلها؟».

أقول: «إنها التفاصيل. لقد قيل لك من قبل إنني جيدة جدًا في ملاحظة التفاصيل، لكنك لم تصدقي هذا. قد يفوتني فهم ما تظنين أنه واضح، لكني اعتدت دائمًا أن أنتبه إلى ما يتجاهله الآخرون. نحن جميعًا متشابهون، أيتها المحققة ستارك، لكن بطرق مختلفة. هذا ما علمتني إياه جدتي منذ زمن بعيد».

تقول ستارك: «يؤسفني... أنني... قللت من شأنك!». تقول هذا وكأن ثمة ضفدعًا عالقًا في حلقها لأنها تستغرق زمنًا طويلًا جدًا كي تستطيع نطق هذه الكلمات القليلة.

أجيبها: «يقلّل أكثر الناس من شأني. لكن هذا لا أهمية له الآن. علينا أن نسرع!».

تومئ المحقّقة ستارك برأسها وتنطلق بالسيارة. ينضغط ظهري على المقعد عندما تزيد السرعة وتمضي في الطريق.

تقول لي بعد أن نبدأ رحلتنا: «بالمناسبة، لماذا أصرّ ذلك الرجل الغريب على أن تأخذي هذه التحفة العتيقة السخيفة؟». تُحوِّل عينيها عن الطريق لحظة خاطفة وتنظر إلى البيضة المتسخة التي وضعتها في حجري.

أسألها: «هل تعنين بيضة فابرجيه؟».

«أنت لا تصدقين حقًا أنها من صنع فابرجيه، أليس كذلك، يا مولي؟ إنها شيء مما يباع في المتاجر الرخيصة».

«الجمال كامن في عين الناظر، أيتها المحقّقة. في طفولتي، عنت لي هذه البيضة الكثير جدًا؛ وسوف أحافظ عليها. على المرء أن ينظر إلى ما خلف السطح كي يرى القيمة الحقيقية لأي شيء».

تسألني ستارك: «هل أنت تتحدثين عن البيضة؟».

أجيبها: «ما الذي تظنين أنني أتحدّث عنه؟».

لا تجيبني المحققة ستارك، لكني أحس بأن سرعة السيارة قد ازدادت. تتجاوز الإشارات الضوئية وتطلق صفارة سيارتها فنمضي سريعًا في طريقنا صوب فندق ريجنسي غراند.

نصل خلال وقت قياسي. توقف السيارة أمام درجات مدخل الفندق ذات السجادة الحمراء. يسألني السيد بريستون لحظة أقفز من السيارة وأندفع داخلة الفندق متجاوزة إياه: «مولي، ماذا يجري؟».

أصيح من غير أن أتوقّف: «لا وقت لدي!».

يصيح عامل إيقاف السيارات بالمحقّقة ستارك: «لا يجوز أن تتركي السيارة في منطقة التوقف هنا!».

تجيبه: «أوه، بل يجوز!».

نندفع معًا عبر باب الفندق الدوار.

نجري إلى مكتب الاستقبال حيث نجد السيد سنو يساعد بعض النزلاء.

أسأله: «هل غادرت سيدات جمعيات المعجبات الفندق أم لا؟».

يقول السيد سنو: «مولي، أنت تقاطعينني».

أقول: «أعتذر لأنني أخالف بروتوكول التعامل مع النزلاء، لكن هذه حالة طارئة».

تقول ستارك: «هل سمعتَ ما قالته لك؟ متى تغادر تلك النسوة اللعينات فندقكم؟».

يجيبها السيد سنو: «غدًا».

تعلن ستارك: «نحن ذاهبتان إلى غرفهن، في الحال».

يقول السيد سنو: «لا تستطيعين دخول غرف النزلاء من غير سبب يجعل دخولها ضروريًا. هذا انتهاك للخصوصية».

تقول ستارك: «خادمتكم هذه اكتشفت معلومات بالغة الأهمية في هذه القضية. لقد توصلتْ إلى أمر كبير».

يرتفع حاجبا السيد سنو حتى أعلى جبهته، ويقول: «في هذه الحالة، اتبعاني!».

نتجه، نحن الثلاثة، صوب المصعد. ندخله ونبقى صامتين طيلة رحلتنا إلى الطابق الرابع. ينفتح الباب ونبدأ السير في الممر. سنشاين وليلي هناك، مع عربتيهما. تبدو الدهشة على وجه سنشاين لحظة ترانا. تتوقف ليلي في مكانها.

تسألني سنشاين: «مولي، ماذا يجري؟».

أقول: «لا وقت لدي!»، وأتابع سيري خلف السيد سنو والمحقّقة ستارك الماضيَين في اتجاه الغرفة رقم 404.

نتوقف أمام الباب. يقول السيد سنو: «من بعدكما!».

تقول لي المحقّقة ستارك: «مولي، ليكن سلوكك طبيعيًا!».

أجيبها: «هذا، بالضبط، ما أنا غير بارعة فيه».

أدق الباب ثلاث مرات وأقول بصوت حازم قاطع: «خدمة الغرف!». ننتظر ونرنو إلى الباب بأسماعنا.

لا شيء. ما من صوت.

يقول السيد سنو: «لا أحد في الغرفة». يخرج مفتاحه الذي يفتح الأبواب كلّها. يفتح الباب.

ندخل وننظر من حولنا.

أقول: «هذه هي الغرفة، بكل تأكيد».

لقد نُظّفت الغرفة منذ فترة وجيزة جدًا. السرير مرتب تمامًا. زواياه قائمة، مشدودة، لكن قمامة من كل نوع تشغل كل إنش مربع خارج السرير. على الأرض علب من الكرتون فيها مصنفات صغيرة مكتوب على كل منها «غريمشورب» وعليها رقم. حقيبة ملابس مفتوحة عند النافذة، وملابس مكوّمة كيفما اتفق، على كل قطعة منها كمية كبيرة من شعر القطط.

يسدّ السيد سنو أنفه. تقول ستارك: «هذا مقزز، تبدو الغرفة كأن جرذًا يسكنها. ألا تنظف الخادمات هذه الغرفة كل يوم؟».

أقول: «ننظفها. لكننا لا نستطيع القيام بتنظيف شامل قبل رحيل النزيل. عندما يكون هناك نزيل في الغرفة، لا تستطيع الخادمات تنظيف شيء غير السطوح الخالية». أذهب إلى الميني بار عند النافذة. إنه مثلما أتذكره تمامًا: فوق البراد مجموعة كبيرة من أنابيب الشامبو التي تحمل اسم فندق ريجنسي غراند، وإلى جانبها عدد من عبوات المأكولات الخفيفة مفتوحة كلها وقد تساقط بعض محتوياتها على الأرض... عبوة من حبوب الإفطار نصف مأكولة، وعبوة مفتوحة من البسكويت المملح، ومرطبان كبير من زبدة الفستق.

تقترب المحقّقة ستارك من طاولة المكتب المقابلة للسرير. على

الطاولة أوراق كثيرة في حالة فوضوية، ومصنفات ودفاتر ملاحظات وكتب وفواتير مرمية كيفما اتفق.

تقول ستارك: «مولي، انظري إلى هذا!».

أقترب من طاولة المكتب فأراها تشير إلى دفتر ملاحظات ذي غلاف من قماش أسود عليه ثلاثة أحرف «ج. د. ج.»، وإلى جانبه دفتر ملاحظات آخر له غلاف قماشي أسود اللون، لكنه يحمل حرفين مختلفين «ب. ب».

لقد أَلِفتُ مسّ مقتنيات الناس الشخصية في غرف الفندق، لكن إحساسًا غريبًا ينتابني عندما أحمل دفتر ملاحظات بيولا لا بهدف الترتيب، بل كي أنظر فيه. عنوان على الصفحة الأولى، «القاءات عن قرب». وبعد ذلك، ملاحظات متتالية تملأ صفحات الدفتر تباعًا.

ينظر السيد سنو إلى الدفتر.

أقول للمحقّقة ستارك: «إنه سجل زمني!».

تقول ستارك: «صحيح، إنه سجل زمني. إن فيه كل محاولة قامت بها كي تقابل السيد غريمثورب».

أقلّب صفحات الدفتر فأرى أن التواريخ تعود إلى سنين مضت. أقرأ في صفحة من الصفحات:

• أرسلت إليه نشرة كي يتعرف على جمعيتنا: لا إجابة.

• أرسلت إلى موقعه في الإنترنت إيميلًا أقول فيه إنني أكبر المعجبات به: لا إجابة.

• حصلت على رقم هاتفه الخاص وعلى عنوان بيته. تركت له رسالة صوتية مع معلومات الاتصال: لا إجابة.

• أرسلت إليه خمس رسائل مسجلة طلبت فيها أن أكون كاتبة سيرته الرسمية: لا إجابة.

أقلب الصفحات حتى أصل إلى آخر ما كُتب في الدفتر:

• دسست تحت باب غرفته في الفندق رسالة اقترحت فيها أن نلتقي لتناول العشاء في مطعم سوشال: لا إجابة.
• انتظرت ج. د. أمام باب غرفته في فندق ريجنسي غراند: قابلته.
• طلبت منه أن ينفي المعلومات الجديدة المقلقة: رفض ذلك.
• طلبت موافقته على أن أكون مؤرخة حياته الرسمية: رفض ذلك.
• طلبت إذنًا بدخول غرفته: أغلق الباب في وجهي.

تسألني ستارك: «ما تاريخ الملاحظة الأخيرة؟».

أجيبها: «اليوم السابق على المؤتمر الصحافي».

تنظر المحقّقة في عينيَّ وأنظر في عينيها.

يقول السيد سنو وهو يهز رأسه: «لا أفهم معنى هذا كلّه».

أقول: «أنا أفهمه. أنا في حاجة إلى ليلي».

أضع دفتر الملاحظات من يدي وأخرج إلى الممر مسرعة. أرى عربتها عند باب غرفة في آخر الممر. أجدها داخل الغرفة تنظف السجادة بالمكنسة الكهربائية في خطوط متوازية.

أناديها: «ليلي!»، لكنها لا تستطيع سماعي.

أوقف المكنسة الكهربائية وأكرر ندائي: «ليلي».

تصرخ ليلي وتقفز متراجعة إلى زاوية ظليلة عند السرير.

أقول لها: «لا بأس! ما من مشكلة أبدًا. لكني أريدك أن تأتي معي الآن».

لا أضيّع لحظة واحدة. أمسك ليلي من يدها وأجعلها تخرج معي من الغرفة. نسير في الممر ونعود إلى الغرفة رقم 404 حيث ينتظرنا كل من السيد سنو والمحقّقة ستارك.

أقف أمام المحقّقة وقد تقطعت أنفاسي. ليلي إلى جانبي.

أقول: «ليلي، هل تتذكرين أننا نظفنا هذه الغرفة معًا منذ بضعة أيام».

تومئ ليلي برأسها.

«وهل تتذكّرين كيف كان حال الغرفة؟».

تومئ برأسها من جديد. تقول: «أجدها دائمًا في فوضى شديدة. يصعب التنظيف من حول هذه الأشياء المتناثرة كلّها. تكون الغرفة هكذا كل يوم عندما آتي كي أنظّفها».

أقول: «تمامًا. وهل تتذكرين كيف ضحكنا عندما رأينا عبوات الشامبو الصغيرة كلها ورأينا الطعام متناثرًا في كل مكان مثلما هو الآن... عبوات من حبوب الإفطار والبسكويت المملح، وذلك المرطبان الكبير من زبدة الفستق، ذلك الذي هناك؟».

تومئ ليلي برأسها. «نعم. لا يزال كل شيء على حاله».

أقول: «ليس تمامًا. ذلك اليوم، كان هناك أمر مختلف في ما يتصل بمرطبان زبدة الفستق».

تقول ليلي: «كان مفتوحًا، وكانت فيه ملعقة».

«بالضبط، وأنا أخرجت منه الملعقة وأعدت إليه غطاءه. قلت إنني أستغرب تركه مفتوحًا هكذا وترك الملعقة فيه. غسلت الملعقة وانتبهت وقتها أنها ليست من ملاعق فندق ريجنسي غراند الفضية، بل ملعقة ستانلس ستيل من مطعم سوشال. هل تتذكرين هذا؟».

تومئ ليلي برأسها: «أتذكّر. نعم. سألتك وقتها إن كان عليَّ أن أعيد الملعقة إلى المطعم. فقلت لي ألّا أعيدها. لا مشكلة في تركها في الغرفة إذا كان النزيل يستخدمها».

«بالضبط، وقد وضعت تلك الملعقة على الميني بار إلى جانب مرطبان زبدة الفستق. لكنها ليست هناك الآن. إنها غير موجودة. ليلي، هل نظفت هذه الغرفة اليوم؟».

تقول ليلي: «نظّفتها قدر ما استطعت. الأمر ليس سهلًا».

أسألها: «وهل رأيت تلك الملعقة؟».

تنظر ليلي إليّ، ثم تنظر إلى المحقّقة ستارك. تومئ برأسها.

«أين؟».
تشير إلى الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، ثم تسير باتجاهها. تقول: «إنها هنا، إلى جانب المصباح».
أسرع إليها. أرى الملعقة... الملعقة نفسها، ملعقة الستانلس ستيل العادية. أقول: «إنها الملعقة نفسها».
يقترب كل من السيد سنو والمحقّقة ستارك. تنظر ستارك إلى الملعقة ثم تنحني وتفتح درج الطاولة. داخل الدرج، في علبة مفتوحة مبطنة بالساتان الأحمر، نرى وعاء عسل فضي من أوعية فندق ريجنسي غراند.
تقول ليلي لحظة رؤيتها وعاء العسل: «أوه، لا! لقد مسحت سطح هذه الطاولة. كان سطحها دبقًا كله. مسحته ونظفته جيدًا، مثلما تعلمت منك، يا مولي. لم أعلم. لم أعلم ما كان في الدرج».
أقول لها: «لا تقلقي! لقد قمت بكل شيء مثلما ينبغي القيام به».
وجه المحققة ستارك متجهّم، وعيناها متسعتان. تقول: «إذًا فقد احتفظت القاتلة بسلاح الجريمة. وضعته في علبة مبطنة بالساتان. هذه أغرب جريمة قتل أراها». تلتفت إليَّ... «مولي، نحن نعلم بالجريمة دائمًا، ونعلم مكانها».
أجيبها: «جريمة قتل في صالة الشاي».
تومئ المحققة ستارك برأسها. «والآن، عرفنا الدافع».
أقول: «الانتقام. انتقمت منه لأنه رفضها».
يقول السيد سنو: «أظنني لا أفهم ما تفعلان. بحق الرب، كيف استنتجتما أن شاغلة هذه الغرفة هي التي ارتكبت جريمة القتل؟ لم تكتشفا هنا غير ملعقة من الستانلس ستيل تحاول النزيلة سرقتها».
تقول المحقّقة ستارك: «أنت مخطئ في هذا، يا سيد سنو. لقد عثرنا على سلاح الجريمة، وها هو هنا».
يقول السيد سنو: «لكني لا أرى غير وعاء عسل وملعقة عادية».

تمد المحقّقة ستارك يدها وتسحب المنديل من جيب صدار السيد سنو. تسأله: «هل تمانع؟».

يرفع كتفيه ويعدّل نظارته على وجهه.

تفرد المحقّقة ستارك المنديل: ثم ترفع غطاء وعاء العسل الفضي بحركة حذرة من غير أن تمسّه بأصابعها. على الفور، تعبق في الغرفة رائحة حلوة محروقة.

يقول السيد سنو: «هذه الرائحة غريبة. العسل فاسد. ثم إن لونه ليس طبيعيًا أيضًا».

أقول له: «لأنه ليس عسلًا حقيقيًا».

ينظر السيد سنو إليَّ، ثم إلى المحقّقة ستارك. يسأل: «إذًا، ما هو؟».

أجيبه: «عسل ممزوج مع مكوّن آخر».

يسأل: «ما هو ذلك المكون الآخر؟».

تقول المحققة ستارك: «مانع تجمد ذي استخدام منزلي».

الفصل السادس والعشرون

عندما كنت طفلة، كنت أتابع مسلسل كولومبو وأنا متكوّرة على الأريكة إلى جانب جدتي. وكانت جدّتي تحبّ اللحظة التي يبدأ فيها القاتل الكذب.

قالت لي مرة: «هل تشمّين هذا، يا مولي؟».

أجبتها: «لا أشم شيئًا».

قالت بصوتها الغنائي المرح: «أشم رائحة جرذ».

«علينا أن نصطاده سريعًا!».

انتابني قلق حقيقي من احتمال أن يكون جرذ قد تسلل إلى شقتنا.

«لا أعني ما قلته حرفيًا، يا مولي. أعني هذه القاتلة في مسلسل كولومبو. راقبي سلوكها. ألا تستطيعين رؤية أنها تكذب. ألا ترين كيف تحاول أن تخفي كل شيء؟».

«العينان المراوغتان، والمعلومات المتغيّرة، والرغبة في كتم السرّ تنافسها حاجة شديدة إلى الإقرار بعبقريتها الإجرامية».

أقول: «نعم. أرى هذا الآن».

تقول جدتي: «انتبهي إلى ما يفعله كولومبو بعد ذلك. شاهدي كيف يستدرج الجرذ حتى يخرج من مخبئه».

أسألها: «كيف يستدرجه؟

«يستدرجه بالكلمات. ينصب له فخًا».

أستمد من هذه الذكرى فكرة عما ينبغي أن نفعله بعد ذلك. أربعتنا واقفون عند مكتب الاستقبال في ردهة الفندق. السيد سنو، وليلي، والمحقّقة ستارك، وأنا. لقد تركنا الغرفة رقم 404. طلبت المحققة ستارك من ثلاثة من عناصر الشرطة تأمين الأدلة التي في الغرفة.

أقول: «بيولا ليست في غرفتها، لكن من المحتمل أن تكون في مكان قريب».

تقول المحققة ستارك: «من المهم أن نفاجئها بالأمر».

تسأل ليلي: «كيف؟».

أطرح اقتراحي: «ننصب لها فخًا. نعلن عن ندوة مجانية مكرسة للسيد غريمثورب».

تقول المحققة ستارك: «فكرة ذكية». لا أستطيع أن أصدق تمامًا ما تقوله المحققة ستارك... على الأقل، لا أستطيع تصديق أنها تقصدني بكلامها.

يقول السيد سنو: «في وسعنا التخطيط لذلك الإعلان غدًا».

تقول ستارك: «لا. سنفعل هذا الآن. الحقيقة أنك أنتَ الذي ستفعله. أعلن عبر إذاعة الفندق الداخلية. أعلنه الآن».

تظهر حبات عرق على جبين السيد سنو. يقول: «لا نستطيع اختلاق ندوة من غير تخطيط. التخطيط للمناسبات يستلزم وقتًا».

تقول ستارك: «أنا لا أطلب منك إعداد مفارش الدانتيلا ولا تلك السندويتشات الصغيرة. ما عليك إلا أن تعلن عن الأمر. قم بإعلانك الآن!».

يدور السيد سنو من خلف طاولة مكتب الاستقبال ويشغّل المايكروفون، ثم يتكلم. «إلى نزلاء فندق ريجنسي غراند. هذا إعلان خاص من أجل المعجبين بكتابات ج. د. غريمثورب. سوف تُقام في صالة الشاي في فندق ريجنسي غراند ندوة مجانية عن حياة الكاتب الشهير وأيامه...». يصمت لحظة ويغطي المايكروفون بكف يده. يهمس مخاطبًا المحقّقة ستارك، «متى؟».

تجيبه: «الآن».

يقول السيد سنو في المايكروفون: «وذلك بعد خمس دقائق. سيتم

تقديم الشاي والسندويتشات الصغيرة وأيضًا، سوف تستضيف الندوة شخصًا مهمًا».

يغلق المايكروفون ويبتعد عن الطاولة في حين تتابع عيون موظفي الاستقبال المتسائلة كل حركة من حركاته.

أسأله عندما يعود ويقف إلى جانبي: «من هو الضيف المهم؟».

يقول: «لم أكن قادرًا على قول 'محققة'، أليس كذلك؟».

تقول ليلي للسيد سنو: «لقد وعدتهم بالشاي».

وأضيف: «وبالسندويتشات الصغيرة».

«أوه، لقد فعلت هذا. أرجو أن تخبري المطبخ بهذا، يا ليلي. اطلبي مساعدة أنجيلا أيضًا».

تنطلق ليلي في اتجاه مطعم سوشال. أهمُّ باللحاق بها، لكن المحقّقة ستارك توقفني. «مولي، أنت ستبقين معي. راقبي واستمعي. أخبريني إذا رأيت شيئًا لا أراه، هل اتفقنا؟».

أجيبها: «لا بأس! اتفقنا!».

تستدير وتسير خارجة من ردهة الفندق فتعبر الممر المفضي إلى صالة الشاي في فندق ريجنسي غراند. أسير خلفها، ويسير معي السيد سنو.

نصل في الوقت المناسب تمامًا. نرى مجموعة سيدات مألوفات الوجوه آتيات من الجهة المقابلة -نحو عشر سيدات- وعلى رأسهن امرأة طويلة القامة متموجة الشعر في يدها علم صغير أحمر.

تعلن زعيمة المجموعة، غلاديس: «نحن هنا من أجل حضور الندوة المجانية. من عساه يكون الضيف الخاص؟». تنظر إلى السيد سنو وتسأله: «أهي سيرينا شارب؟».

تقول المحققة ستارك: «كان هناك خطأ في الإعلان عن الندوة. الضيفة الخاصة التي نبحث عنها هي أكبر المعجبات بالسيد غريمثورب. هل تعلم أي منكن أين عساها تكون؟».

تسري شحنة كهربائية بين سيدات الجمعية. ترتفع الأيدي، وتتقدّم بضع نساء خطوة إلى الأمام.

«أنا! أنا أكبر المعجبات به».

«لا، ليست هي، إنها أنا!».

«أنا! هنا!».

«أنا، أنا! أنا هنا!».

تقترب السيدات منّا. يفتح السيد سنو ذراعيه كي يمنعهن من دخول صالة الشاي.

أصيح مستخدمة صوت خادمة الغرف الثابت الناطق بالسلطة: «من فضلكن! لا يمكن أن تكون أكبر المعجبات إلا واحدة منكن، لا أكثر».

تقول المحقّقة ستارك مشيرة إلى المرأة التي صار الآن وجهها مألوفًا، المرأة ذات الكنزة البنية العامرة بشعر القطط: «أنتِ، لقد التقينا هنا منذ يومين. أنت المؤرخة الرسمية لحياة السيد غريمثورب وأعماله، أليس هذا صحيحًا؟».

تلوّح غلاديس بعلمها الأحمر وتصحّح ما قالته المحقّقة: «المؤرخة غير الرسمية».

أقول لبيولا: «أنت لست أكبر المعجبات به فحسب، بل أنت أيضًا الخبيرة الأولى في أعماله، ألست كذلك؟».

تقول غلاديس متأففة: «لدينا عدد من عضوات الجمعية ممن لا تقل معارفهن عن معارف بيولا».

أسمع غيرها تقول: «هذا صحيح!».

صوت ضعيف يأتي من وسط الجماعة. إنها بيردي. شعرها البرتقالي يميزها عن بقية عضوات الجمعية. أراها واقفة على رؤوس أصابعها كي تصير مرئية. تصيح بيردي: «أنا أكبر المعجبات به. أنا التي ينبغي أن تتكلموا معها».

تقول المحقِّقة ستارك: «أنا واثقة من أنها لست أنت. والآن، أرجو أن تسمحوا لنا... سوف يكون لنا لقاء خاص مع مؤرخة حياة السيد ج. د. غريمثورب».

تصيح واحدة من عضوات جمعية المعجبات: «هل تتحرّون دليلًا عثرتم عليه؟ هل اكتشفتم قاتل ج. د. غريمثورب».

تقول المحقّقة ستارك: «أخشى أننا لم نكتشفه بعد. نحن حائرون. أليس هذا صحيحًا، أيتها المحققة؟». تنظر ستارك إليّ عندما تقول هذا. تكرّر الكلمة من جديد، «أيتها المحققة».

أقول: «أنا لست محقّقة».

تقول ستارك مصرّة على موقفها: «أنت أفضل من معظم الذين عملت معهم حتى الآن». تلتفت إلى بيولا... «من الممكن فعلًا أن نستفيد من مساعدتك، يا سيدتي، فأنت صاحبة خبرة حقيقية في ما يتصل بالسيد غريمثورب».

تشمخ بيولا برأسها وتسوّي كنزتها.

أقول: «شكرًا لكنّ جميعًا! وجدنا الخبيرة التي كنا نبحث عنها».

بكلّ تهذيب، يوجّه السيد سنو عضوات جمعية المعجبات صوب ردهة الفندق في حين تدعو المحقّقة ستارك بيولا إلى دخول صالة الشاي. أدخل خلفهن وأسير إلى الطاولة ذات المفرش الأبيض وسط الصالة حيث جلست الاثنتان. أسحب كرسيًا وأجلس قبالتهما.

أنتظر أن تبدأ المحققة ستارك قول تلك الكلمات المألوفة: *أنت رهن الاعتقال بتهمة قتل ج. د. غريمثورب!* لكنها لا تفعل هذا. تفعل شيئًا مختلفًا تمام الاختلاف.

تقول لها: «يشرفني أن أتحدث مباشرة مع امرأة صاحبة خبرة كبيرة. عندما التقيناك في ذلك اليوم، أنا والمحقّقة غراي، أدركنا على الفور أننا أمام مؤرخة أدبية كبيرة حقًا».

يتورّد وجه بيولا. تقول: «نادرًا ما ألقى ما أستحق من ثناء... حتى من عضوات الجمعية. ما ألطف أن يرى المرء من يقدّره!».

تجيبها المحقّقة ستارك: «بالطبع! وأنا آسفة لأننا استخدمنا ذريعة كاذبة حتى نجعلك تأتين... لكننا في حاجة إلى عونك. الظاهر أن في فندق ريجنسي غراند حلقة فساد منظمة. وعلى الرغم من ثقتنا بأن لا علاقة لك بتلك الحلقة بأية صورة من الصور، فإن لدينا أسبابًا تجعلنا نظن أنك قادرة على مساعدتنا، لأنك المعجبة الأولى بالسيد غريمثورب ولأنك مؤرخة سيرة حياته أيضًا. قولي لها، يا مولي!».

تنتابني الحيرة فأسألها: «ماذا أقول لها؟».

تستحثني المحقّقة ستارك: «حدّثيها عن ذلك الموقع على الإنترنت».

«صحيح، ثمة من يبيع أشياء مسروقة خاصة بالسيد غريمثورب، وذلك عن طريق موقع شهير في الإنترنت يرتاده أشخاص كثيرون. لقد استُدعيت المحققة ستارك ـ أعني أننا استُدعينا – لتحري أمر هذه الجريمة أيضًا».

تقول بيولا: «على حد علمي، لا يُعتبر الشراء عن طريق الإنترنت جريمة!».

تقول ستارك: «نحن نتحرّى أمر البائع، لا أمر المشتري. لكن ذلك المشتري شخص ذكي حقًا بصرف النظر عمن يكون. إنه شخص بارع يعرف قيمة ما يشتريه».

ترفع بيولا يديها وتقول: «لقد أوقعتما بي! أنا هي المشترية الذكية. اشتريت مجموعة غريمثورب كلّها فور عرضها في ذلك الموقع. لكني ظننت أنها عملية بيع مشروعة، لا أسلوبًا ملتويًا لكسب المال. من الطبيعي أنني كنت راغبة في حماية ذكراه».

أقول: «هذا أمر طبيعي».

تلكزني المحققة ستارك من تحت الطاولة، ثم تقول لها: «أخبريني!

بما أن لديك مهارات متقدّمة في البحث، فلماذا لم تصيري مؤرخة رسمية لحياة السيد غريمثورب وأعماله؟».

تلتقط بيولا عن كنزتها بضع شعرات من شعر القطط. تجيب: «لا أدري! لكن لم يعد للأمر أية أهمية. لقد مات. أستطيع الآن كتابة ما يحلو لي كتابته. وسوف أكتب».

أقول: «من ناحيتي، أتطلع إلى قراءة ما ستكتبينه عن السيد غريمثورب. وأنا واثقة من أنه سيلقي على حياته ضوءًا ممتازًا».

«أوه، سيلقي ضوءًا ممتازًا بالفعل! هل تعلمين أنني أدرس حياته منذ نحو عشرين سنة؟ لقد كرّست لذلك الرجل الشطر الأكبر من حياتي، لكن جهودي لم تلقَ ما تستحق من تقدير. كنت أظن دائمًا أن سيرته التي سأكتبها ستكون كلها إطراء له». تميل صوبنا وتخفض صوتها... «لكن، فلنكتف بالقول إن ما تبين أخيرًا يشير إلى أنه غير ما كان يبدو عليه».

تقول ستارك: «أمر ساحر!».

أضيف: «أخبرينا مزيدًا عن ذلك!».

تضع بيولا يديها المتشابكتين على الطاولة. تقول: «إذا أخبرتكما، فهل تعدانني بأن ما من شيء مما توصّلت إليه دراساتي سوف يُستخدم من أجل كتابة سيرة حياته من غير إذن مني، أو يُنشر على الملأ بأي طريقة من الطرق؟ يجب أن يكون كتابي أول ما يُطرح في السوق. سوف يضمن لي هذا الكتاب مكانة أكيدة باعتباري أفضل كاتبة سير أدبية في زماننا. سوف يعيش اسمي على رفوف الكتب إلى الأبد».

أقول بصوت عالٍ: «أمر رائع!». ما لا أقوله هو أنها كررت بالضبط جملة قالها السيد غريمثورب.

تقول المحقّقة ستارك: «لن نسرق ثمرة عملك! أحب أن أقول لك إن لديَّ إحساسًا غريبًا بأنك محقة. سوف يدخل اسم بيولا بارنز التاريخ».

تبتسم المحققة ستارك ابتسامة لا تبلغ عينيها تمامًا... «دعينا الآن نتحدّث عن تلك الأشياء الخاصة بالسيد غريمثورب».

تقول بيولا: «اشتريتها على نحو مشروع تمامًا. وأنا آسفة لأنني لا أعلم شيئًا عن الشخص الذي باعني إياها إن كان هذا ما تريدين الوصول إليه. لكني فخورة بأنني مالكة واحد من دفاتر ملاحظات غريمثورب الرسمية التي تحمل الأحرف الأولى من اسمه، فضلًا عن ممتلكات قيّمة أخرى. خلال سنوات طويلة، كانت عضوات جمعية المعجبات واثقات من أن دفاتر ملاحظاته تعني أنه يكتب مسودات أعماله من غير اللجوء إلى أسلوب الاختزال. لكننا كنا مخطئات مثلما أخطأنا في أمور كثيرة أخرى».

«مخطئات، كيف؟».

تقول بيولا: «لم يكن يكتب فيها شيئًا! خطوط متعرجة فحسب».

أقول: «لا يبدو لي هذا عيبًا. لماذا تغيّر رأيك في الرجل هذا التغير الكبير كله؟».

«نتيجة أدلة أخرى. رسالة الحب، على سبيل المثال».

أسألها: «ما قصة رسالة الحب؟».

تقول بيولا: «كانت لـ ج. د. علاقة غرامية مع سكرتيرته الجميلة الشابة، سيرينا شارب».

أرد فورًا: «لم يكن في علاقة غرامية معها، لكني أحس لكزة جديدة من تحت الطاولة».

تقول المحقّقة ستارك: «مولي محقّة. اتضح أن من كتب تلك الرسالة شخص آخر موجود في هذا الفندق».

تقول بيولا: «انظري... ليس لكل مادة معروضة للبيع في ذلك الموقع أصل واضح. لكني أؤكد لك أن ج. د. كان كذبة. البطاقات التي كانت معه يوم المؤتمر الصحافي تثبت ذلك».

«هل يعني هذا أن تلك البطاقات موجودة عندك؟».
تقول بيولا: «إنها عندي. اشتريتها مثلما اشتريت كل شيء آخر».
تقول ستارك: «تعلمين أننا نجري تحقيقًا في مقتله. مع ذلك، لم تفكّري أبدًا في تسليمنا تلك البطاقات».
تقول بيولا بنبرة استخفاف: «تجرون تحقيقًا! أنتم لا تعلمون شيئًا عن الرجل الذي كانه ج. د. غريمثورب. كان خزانة كلها أسرار».
تقول ستارك: «أسرار! مثل ماذا؟».
تقول بيولا: «هل تعلمون أنه كان شديد الإدمان على الكحول خلال مرحلة من مراحل حياته؟ لقد تتبعت الموظفين الذين عملوا لديه... الحراس الأمنيون، والبستانيون، وخادمة أيضًا. تم طردهم جميعًا. وبحسب ما قالته الخادمة، كانت زوجة ج. د. طاغية، وهو نفسه لم يكن مثلما يبدو. اتهمته الخادمة بأنه كان يتحرش بها، ثمطُردت لأنها قالت ذلك. مع هذا، لم يجرؤ على مد يده إليّ». تلتقط بيولا عن كنزتها مزيدًا من شعر القطط وتتركه يطير في الهواء.
أسألها: «يعني هذا أنك قابلت الرجل، قابلت ج. د. شخصيًا، أليس هذا صحيحًا؟».
«صحيح. قابلته. قابلته أمام غرفته في هذا الفندق. الدرس المُستفاد: احذري أن تلتقي معبودك. سوف يخيّب أملك، أكثر الأحيان».
تسألها ستارك: «كانت كتبه ناضحة بالقوة، لكنه كان شخصًا ضعيفًا. أليس هذا ما تريدين قوله؟».
تقول بيولا: «كان ضعيفًا. تضرّرت كليتاه وتضرر كبده نتيجة سنين من إدمان الكحول».
تقول ستارك: «إذًا، فقد كنت تعلمين هذا أيضًا».
«بالطبع، مثلما قلت لكما، كان ج. د. موضوع حياتي كلها».
في تلك اللحظة، تظهر ليلي وأنجيلا عند مدخل صالة الشاي.

تدفعان أمامهما عربة شاي، تدفعانها صوب طاولتنا. أنجيلا تمسح يديها بمريلتها. تجول عيناها في الصالة. كتفا ليلي مشدودتان، ورأسها مرفوعة أعلى من أي وقت مضى. هذه المرة، لا تبدو وجلة على الإطلاق.

تقول ليلي بصوت واضح رنّان مثل جرس: «أعتذر لأننا نقاطعكما».

نلتفت كلنا في اتجاههما.

تقول ليلي: «حرصنا، أنا وأنجيلا، على أن نأتي بعربة الشاي هذه. إنها هدية من الفندق لأكبر المعجبات بالسيد غريمثورب». تتوقّف وتنحني انحناءة كبيرة متقنة.

تقول بيولا: «يا لها من فطنة كبيرة!».

تشير أنجيلا إلى البقعة الخالية على صدر كنزة بيولا حيث كانت تثبت بطاقة «المعجبة الأولى». تقول لها: «أنت لم تضعي بطاقتك».

تجيبها بيولا: «لقد أضعتها».

تقول أنجيلا: «أمر غريب! أظن أنني رأيتك تنزعينها عن صدرك في مطعم سوشال. ألقيت بها على الطاولة وتركتها هناك».

تقول بيولا مصرّة: «لا بد أنك تخلطين بيني وبين واحدة أخرى من المعجبات. لا يستطيع الناس التمييز بيننا، نحن عضوات الجمعية. هذا مهين بعض الشيء».

تحمل ليلي الإبريق الموضوع على العربة وتصب الشاي في واحد من فناجين فندق ريجنسي غراند. تضع الفنجان أمام بيولا. تسألها: «كيف تتناولين الشاي، يا آنسة بارنز؟».

تجيبها بيولا: «أربع قطع من السكّر. أحب الشاي حلوًا».

تقول ليلي: «آه، نعم! أنت تتناولين الشاي مثلما كان يتناوله السيد غريمثورب».

تجيبها بيولا: «لا! كان ج. د. يشرب الشاي بالعسل، لا بالسكر. يستخدم العسل دائمًا... كمية كبيرة من العسل».

ها هو تفصيل مهم آخر تجعلها ليلي تكشف عنه. ترتسم على وجه ليلي ابتسامة كابتسامة الموناليزا وهي تضع أربع قطع سكر في فنجان بيولا. تقلّب السكر بملعقة فضية من ملاعق ريجنسي غراند. رنين سارّ صادر عن اصطدام الملعقة بجوانب الفنجان المصنوع من البورسلان.

تقول بيولا عندما تناولها ليلي فنجان الشاي: «أشكرك!».

في تلك اللحظة تمامًا، يقف بباب الصالة، ثلاثة عناصر شرطة في ملابس مدنية. صندوق من الورق المقوّى بين يدي واحد منهم.

ترفع بيولا الفنجان إلى شفتيها، لكنها تتوقف وتقول: «ماذا يفعلون هنا؟».

تجيبها المحققة ستارك: «هذه تدابير أمن إضافية. لا بد لنا من توخّي الحذر في ظل وجود أشخاص منحرفين لا يزالون طلقاء في الفندق. أرجو أن تعذريني لحظة!». تقول المحققة ستارك هذا وتذهب إلى الرجال الثلاثة. تتبادل معهم بضع كلمات، ثم تأخذ الصندوق منهم. تعود ستارك إلى الطاولة حاملة الصندوق وتضعه أمام بيولا. ترفع غطاء الصندوق. في الداخل، ملعقة ستانلس ستيل عادية وإلى جانبها وعاء العسل الفضي الخاص بفندق ريجنسي غراند موضوعًا ضمن علبة مبطنة بالساتان الأحمر.

تقول ستارك وهي تنقّل نظرها بين محتويات الصندوق ووجه بيولا التي فغرت فاها دهشة: «هل تستطيعين تفسير هذا، يا بيولا؟».

«هل دخلتم غرفتي؟ لماذا تعبثون بأشيائي؟».

تسألها ستارك: «لماذا تحتفظين بهذه الأشياء في غرفتك؟».

«بحق الرب!... أحيانًا، يكون السيجار سيجارًا فحسب».

تقول ستارك: «لكن هذه الملعقة ليست ملعقة عادية، يا بيولا. إنها سلاح استُخدم في جريمة قتل. ومثلها وعاء العسل الفضي هذا. لقد أضفتِ إليه مكونًا مهمًا قبل أن يبدأ السيد غريمثورب مؤتمره الصحافي،

أليس هذا صحيحًا؟ وضعتِ فيه مانع تجمد. وبما أنك على علم بأن غريمثورب يحب الشاي الحلو، كنت موقنة من أنه لن ينتبه إلى الطعم الغريب في شايه. كنت مدركة أيضًا أنك ستقتلينه سريعًا بالنظر إلى ما ألحقه إدمان الكحول بكبده وكليتيه من ضرر كبير».

تسألها بيولا: «ولماذا أقدم على تسميم معبودي؟».

أقول لها: «لأنه صدّك. فجعل عمل حياتك كلها من غير طائل».

«أنتما تتهمان الشخص الخاطئ. عليكما أن تتكلما معها. هي التي قدّمت الشاي إليه». تقول بيولا هذا وتشير إلى ليلي بإصبعها الممتلئة.

تقول ليلي: «أوه، لا! الخادمة ليست مسؤولة... ليست مسؤولة هذه المرة».

تقول أنجيلا: «أمر لا يصدّق! كيف تستطيعين أن تعيشي مع نفسك، يا بيولا؟».

أقول: «لقد استقيتِ الحبكة من واحد من كتبه... قتل وغد شرير باستخدام فنجان من شراب حلو. أليس هذا صحيحًا، يا بيولا؟».

غضب بيولا في تزايد. تلتفت إليّ وتقول من غير سابق إنذار: «أنت، لقد تظاهرت بأنك محقّقة، لكني لا أصدق هذا. أنت لست إلا خادمة. أنت التي قتلته. أنت وتلك الخادمة الصامتة متعاونتان! هذا المكان يغصّ بالساقطين الذين لا يتورّعون عن فعل شيء من أجل مكاسبهم الشخصية، بما في ذلك بيع مخلفات رجل ميت بغية جني المال».

تنهض المحقّقة ستارك واقفة: «هذا كافٍ، يا بيولا بارنز. انتهت اللعبة. أنت رهن الاعتقال». تقول هذا في حين يتقدّم عناصر الشرطة ذوي الملابس المدنية كي يقيّدوا يدي بيولا... «لديك الحق في التزام الصمت. كل ما تقولينه يمكن أن يستخدم ضدك في المحكمة... بحق الجحيم، صار الصمت الآن أفضل ما لديك من خيارات لأنك، بكل تأكيد، قلت لنا الكثير».

تصيح بيولا وهي تحاول مقاومة الرجال الذين يقيّدون يديها ويهمون بالسير بها نحو باب الصالة: «قلت لكم الكثير!؟ لم أكد أقول شيئًا بعد! ليس لديكم دليل. كلامك مقابل كلامي، لا أكثر!».

تقول أنجيلا: «كان كلامك مسجلًا، يا بيولا!». ترفع ليلي منديلًا كان على عربة الشاي فيظهر هاتف أنجيلا الخلوي المخفي تحته.

تصرخ بيولا: «لا يحق لكم دخول غرفتي في الفندق! هذا اعتداء على الخصوصية! سوف أقاضي فندق ريجنسي غراند».

تقول ستارك: «كفي عن الكلام. أنت في حفرة، وبكلامك تزيدين الحفرة عمقًا».

مع اختفاء بيولا في الممر، يتبادر إلى ذهني أن طبيعتها الحقيقية قد تبيّنت الآن... هذا لأن الحفر أعمق هو، بالضبط، ما تفعله الجرذان.

الفصل السابع والعشرون

تتناهى احتجاجات بيولا إلى أسماعنا بينما يقودها رجال المحقّقة ستارك صوب ردهة الفندق.

أخيرًا، يعم الصمت الصالة. نلتفت كلنا في اتجاه ليلي التي لا تزال ابتسامة الموناليزا ظاهرة على وجهها.

تسألها المحققة ستارك: «لماذا أتيتما بعربة الشاي؟ ما الغرض من ذلك؟».

تومئ ليلي برأسها.

أقول: «لقد جعلتْها تعترف بأنها تعلم كيف كان غريمثورب يشرب الشاي».

تومئ ليلي برأسها من جديد.

تقول ستارك: «أمر رائع! وأنت يا أنجيلا... أحسنت صنعًا بتسجيل كلامها».

تجيبها أنجيلا: «شكرًا! إنها تلك البرامج التي تتحدّث عن جرائم حقيقية. لقد علمتني كل شيء».

«هل أستطيع أن أطلب منكما أنتما الاثنتين أن تقفا عند الباب كي لا يدخل أحد، بينما أتحدّث مع مولي في أمر خاص؟ لدي إحساس غريب يقول لي إن سيدات جمعية المعجبات قد تأتين إلى هذا المكان عما قريب. لست في مزاج يسمح لي بالإجابة عن أسئلتهن».

تومئ ليلي برأسها، وتقول أنجيلا: «بالطبع». تذهب الاثنتان في اتجاه الباب.

نظل حيث نحن، أنا والمحققة ستارك. تنظر كل منا إلى ما هو موجود في الصندوق الذي على الطاولة.

تقول ستارك: «مولي، ثمة أمر واحد لم أفهمه بعد. كيف أدركت أن تلك الملعقة كانت مفتاح الأمر كله؟».

أقول: «إنه الصوت. عندما أتى جنكينز بالشاي في القصر، تذكّرت طفولتي وتذكّرت سماعي أول مرة رنين الملعقة الفضية الحقيقية على فنجان البورسلان الفاخر. أحب ذلك الصوت. تذكّرت بعد ذلك يوم وقف السيد غريمثورب على المنبر وهمّ بإلقاء كلمته. تناول الفنجان من ليلي، وأضاف إليه العسل من الوعاء مستخدمًا الملعقة، ثم حرّك الشاي».

تقول المحققة ستارك: «وماذا؟».

أقول موضحة: «أعرف صوت ملعقة شاي فندق ريجنسي غراند عندما تصطدم بفنجان شاي فندق ريجنسي غراند. ذلك الرنين الحاد، موسيقى في أذني. لكن الصوت كان غير سليم في ذلك اليوم... كان رنينًا مكتومًا».

تسألني: «أهذا لأن الملعقة التي استخدمتها بيولا لم تكن من ملاعق فندق ريجنسي غراند الفضية».

أقول: «تمامًا. كانت ملعقة من الستانلس ستيل من مطعم سوشال... الملعقة نفسها التي رأيتها في وعاء زبدة الفستق قبل أيام من ذلك».

تهز المحقّقة ستارك رأسها وتقول: «إن لك عينًا تنتبه حقًا إلى تفاصيل غريبة. وأذنك أيضًا».

أقول: «على الأغلب، أنتبه إلى الأشياء غير السليمة في أوقات غير صحيحة. كانت هذه نقطة ضعفي طيلة عمري الذي أستطيع تذكّره».

تسألني ستارك: «هل تظنين أن هذا يجعلك مختلفة عن أي شخص آخر؟ مولي، منذ البداية، لم تكن قراءتي لك صحيحة. لقد أخطأت في شأنك».

«لا تحكمي على الكتَاب من غلافه. هذا ما كانت جدتي تقوله لي».

تقول ستارك: «نوع من مخاطرة مهنية... قد يفاجئك ما سأقوله الآن؛ لكن، إذا فكرت يومًا في تغيير طبيعة عملك، فمن الممكن أن تستفيد قوة الشرطة من مهاراتك، أعني قوة الشرطة في مركزنا».

«أنا خادمة. عملي هو تنظيف غرف النزلاء حتى تصير في حالة من الكمال. عملي أن أنظف كل ما يخلّفه الناس وراءهم».

تسألني ستارك: «وهل هذا مختلف عما أفعله؟ أحاول أن أجعل العالم مكانًا أشد نظافة».

أرى التشابه بين عملَينا. أستطيع أن أراه. مع ذلك، لم أتخيل أن أكون يومًا شيئًا مختلفًا عما أنا عليه الآن. أقول لها: «هذا مستحيل، أيتها المحقّقة! سوف يعني تغيير مهنتي تدريبًا جديدًا، عودة إلى المدرسة».

«نعم، هذا صحيح. ما المشكلة؟».

«لم أكن يومًا جيدة في المدرسة. الواقع أنني كنت فاشلة جدًا، وكنت أقل من أقراني من كل ناحية. كنت غير قادرة على تلبية المعايير المطلوبة».

«لعل تلك المعايير المطلوبة كانت محدَّدة على نحوٍ غير سليم! ولعل مدرستك لم تكن جيدة! لعل المعلمين وقعوا في الخطأ نفسه الذي وقعت فيه... ركزوا على نقاط الضعف بدلًا من رؤية نقاط القوة عندك».

«هل تعلمين؟ أنت الآن تتكلمين مثل جدتي».

تعاودني الذكرى بقوة شديدة أحس معها بأن الغرفة تدور بي. أضع يدي على بطني. إنها اللحظة التي أعقبت موت جدتي. جدتي في شقتنا، ميتة في سريرها، وأنا واقفة إلى جانبها أحمل وسادتها. أضغط الوسادة على صدري وتغمرني موجة أسى تهدّد بأن تغرقني، بأن تغمرني إلى الأبد. أفكر الآن في تلك الوسادة، الوسادة المستقرة على الكرسي عند باب

الشقة التي أعيش فيها مع محبوبي خوان مانويل. أرى تلك الوسادة كل يوم. طرّزت عليها جدتي كلمات حكيمة. لماذا اختارت تلك الكلمات؟ لماذا اختارت ذلك الدعاء؟

لا يتبادر إلى ذهني إلّا في هذه اللحظة أن رسالتها الباقية هذه كان مقصودًا منها جعلها تتردّد في ذهني دائمًا، إلى الأبد:

اللهم امنحني سكينة لأتقبل ما لا أستطيع تغييره، وامنحني شجاعة لتغيير ما أستطيع تغييره، وامنحني حكمة التميز بين هذا وذاك.

أنا هي أنا! مولي. مولي بكل ما فيها من جوانب ضعف وغرابة. وكل ما فيها من جوانب قوة أيضًا.

لعله قد حان وقت قبولي نفسي لأن هذا أمر لا أستطيع أن أغير فيه شيئًا.

هل أنا خادمة أم أنني أعمل خادمة فحسب؟ هل هذا أمر أريد تغييره؟ هل هذا أمر أستطيع تغييره؟ فضلًا عن ذلك، هل عندي من الحكمة ما يجعلني قادرة على التميز بين هذا وذاك؟

تقول المحققة ستارك: «من الأفضل أن نذهب. عليَّ أن أخرج كي أتأكد من أن بيولا قد صارت في سيارتي. يقول لي إحساسي إن ردهة الفندق ستكون شديدة الازدحام».

أقول: «أنت محقة. الأرجح أن يكون الصحافيون قد وصلوا».

تعيد المحقّقة وضع الغطاء على الصندوق. يريحني سماع صوت إغلاقه. تتجه المحقّقة ستارك إلى الباب، وتقول لي: «هيا بنا!». نخرج من صالة الشاي معًا. نومئ برأسينا لكل من أنجيلا وليلي الواقفتين حارستين عند الباب. نسير معًا إلى أن نبلغ ردهة فندق ريجنسي غراند الفخمة. أوه، كم أحب هذه الردهة. كم سأشتاق إليها إذا لم أرها كل يوم تقريبًا!... السلم الكبير الصاعد إلى الشرفة الواسعة، وأرضيات الرخام الإيطالي، ورائحة الليمون التي تعطّر الجو، وموظفو الاستقبال

بملابسهم السوداء والبيضاء كأنهم بطاريق صغيرة أنيقة. أنظر إليهم من بعيد فأراهم يستقبلون نزلاء جددًا. وعلى الكنبات الوثيرة زمردية اللون نزلاء جالسون متقاربين يتبادلون الأحاديث ويراقبون الناس ويتبادلون كلمات وأسرارًا تصير جزءًا من نسيج كل شيء.

أنظر إلى النزلاء، وألاحظ تعابير وجوههم. منها وجوه شديدة الوضوح بالنسبة إليّ، شفافة، مفتوحة؛ لكن أكثر وجوه النزلاء مغلقة مثل أبواب غرفهم في الأعلى. ومثلما كانت تقول جدّتي على الدوام: الناس لغز لا سبيل إلى حلّه أبدًا.

أحس نقرة على ذراعي. «أنت تعملين هنا، أليس كذلك؟ هل تعلمين شيئًا عما هو جارٍ في الخارج، على درجات المدخل؟».

ألتفت إلى المراسل الصحافي الواقف أمامي. أسأله: «أنا، كيف لي أن أعلم شيئًا. لست إلا خادمة هنا».

«أوه، تمامًا. آسف». يجيبني بهذه الكلمات وينطلق باحثًا عمن هو أكثر أهمية مني.

تقول المحققّة ستارك وهي تقودني صوب باب الفندق الدوار اللامع: «فلنذهب، يا مولي!». نمر بين الناس الواقفين هناك فنجد نفسَيْنا على فسحة السلم ذات السجادة الحمراء في الخارج.

مدخل الفندق مزدحم. عضوات جمعية المعجبات واقفات إلى ناحية من السلم تثرثرن وتتبادلن كلمات تقول إنهن كانت لديهن على الدوام شكوك في بيولا. بيولا عند منتصف السلم تحاول مقاومة عناصر الشرطة الممسكين بذراعيها المقيدتين من الرسغين. تنزل المحققة ستارك درجات السلم كي تساعدهم.

تصيح بيولا: «هذا جنون! ألستم قادرين على رؤية أنني أسديت إلى العالم جميلًا؟ لقد خلّصت العالم من وحش. ينبغي أن تشكروني، لا أن تعتقلوني».

هكذا هو الأمر... إنها تعترف أمام حشد من الناس.

أرى بيردي ذات الشعر البرتقالي تحاول الاقتراب من بيولا. تصيح بها: «كيف استطعتِ فعل هذا؟ كيف استطعت تسميم تلك العبقرية الأدبية».

تجيبها بيولا صائحة: «لم يكن عبقريًا، كان زائفًا؛ وكان وحشًا كاسرًا».

«أنت هي الزائفة، يا بيولا بارنز! أنت قاتلة أيضًا!». تصيح بها غلاديس ذات الشعر المتموج وتلوّح بعلمها الأحمر كأنها تلوح بسيف... «أنت مطرودة من الجمعية من غير رجعة!».

الآن ازداد توارد المراسلين الصحافيين وغيرهم من الفضوليين. امتلأت بهم درجات مدخل الفندق. يصوّرون بهواتفهم مقاطع فيديو ويصيحون بأسئلة موجهة إلى بيولا.

«هل قتلته حقًا؟ لماذا فعلتِ هذا؟».

«هل تعملين هنا؟ هل أنتِ أكبر المعجبات به؟».

«هل ساعدَك أحد، أم إنكِ فعلتِ ذلك بمفردِكِ؟».

يزاحم السيد بريستون الناس إلى أن يصير واقفًا أمام بيولا.

تأمر المحقّقة ستارك عناصر الشرطة: «انتبهوا لها تكاد تفلت من بين أيديكم، يا شباب!». تقول هذا لأن بيولا تقاومهم، وتحاول الإفلات منهم.

يقول السيد بريستون: «اهدئي الآن، يا آنسة بارنز! لا معنى لهذا السلوك. أهكذا تتصرّف كاتبة سيَر في مثل مكانتك؟».

على نحو مفاجئ، تهدأ بيولا تمامًا كأن السيد بريستون ضغط على مفتاح فيها. تنظر إليه كأنها لا ترى في العالم شخصًا غيره.

يسألها السيد بريستون: «هل تسمحين لي بأن أمسك ذراعك، يا سيدتي؟».

تصيح المحققة ستارك: « دعوا البواب يقترب منها!».

يبقى أحد عناصر الشرطة ممسكًا بمعصم بيولا، لكنهم يدعون السيد بريستون يمسكها من مرفقها. يرقبهم جمع الناس الواقفين على درجات السلم، لكن من غير كلام.

تقول بيولا للسيد بريستون: «لا أفهم هذا! لقد اكتشفت الحقيقة. يصير العالم مكانًا أفضل من غير وجود غريمثورب فيه».

يجيبها السيد بريستون: «نحن متفقان على هذه النقطة الأخيرة».

تقول له بيولا راجية: «لا تدعهم يرمون أبحاثي! من فضلك، ينبغي أن يرى ما كتبته النور في يوم من الأيام! وأيضًا، هل تحرص على أن يهتم أحد بقططي التي في البيت؟ لا تستحق القطط أن تعاني».

يجيبها السيد بريستون: «سأفعل ما أستطيع فعله».

مستندة إلى السيد بريستون، تنزل بيولا درجات السلم بخطوات خفيفة كأنها أميرة يرافقونها إلى عربة ملكية، لا امرأة مضطربة متوّحدة قتلت رجلًا شهيرًا. يرافقها السيد بريستون حتى أسفل السلم حيث يقف السيد سنو منتظرًا عند سيارة الشرطة.

تفتح المحققة ستارك باب سيارة الشرطة.

يقول السيد بريستون وهو يفلت مرفق بيولا: «تمهّلي، يا سيدتي!». يحمي رأسها بيده عندما يُجلسها عناصر ستارك في المقعد الخلفي، ثم يُغلق باب السيارة من خلفها».

تأمر ستارك عناصر الشرطة قائلة: «خذوها إلى المركز! لن أتأخر في الوصول».

يندفع حشد المجتمعين صوب السيارة لحظة انطلاقها، فيصدّهم عنها السيد بريستون وعدد من عمال الفندق. آخر ما أراه وجه بيولا الحائر وهي تنظر إلى الخارج عبر نافذة السيارة المضبَّبة كأنها تعجب كيف وصلت الأمور إلى هذه النقطة.

بعد ذهاب السيارة، تصعد المحقّقة ستارك درجات السلم من جديد

تاركة الناس خلفها. تقف خلف منصة البواب على الفسحة في أعلى السلم.

تنادي بصوت حازم ناطق بالسلطة: «سيداتي وسادتي، إن كانت لديكم أسئلة فأرجو أن تتلطّفوا بتوجيهها إليَّ حتى إن كانت لاذعة أو غير مهذّبة أو حتى غبية. لقد عانى العاملون في هذا الفندق بما فيه الكفاية خلال الأيام الماضية. وبالمناسبة، أقول إن العاملين هنا غير ملومين في أي شيء من هذا كله، ولم يكونوا ملومين في يوم من الأيام».

يحيط الناس بالمنصّة التي وقفت خلفها المحقّقة ستارك، لكنها لا تعيرهم أي اهتمام. إنها تنظر إليّ.

أنحني لها تحيّة مهذّبة... أؤخّر قدمًا إلى الخلف وأحني رأسي تمامًا مثلما علمتني جدتي منذ سنين طويلة. عندما أرفع رأسي وأنظر إلى المحقّقة ستارك من جديد، أرى أنها قد اختفت خلف جمع كبير من النزلاء والمراسلين الصحافيين والعاملين في الفندق.

ينتابني دوار مفاجئ. أصير غير قادرة على التقاط أنفاسي. أتمسّك بالدرابزين النحاسي خشية أن أفقد وعيي هناك، على درجات سلم فندق ريجنسي غراند. أحس يدًا تمسك ذراعي.

«هل أنت بخير؟». إنه السيد بريستون. يعرف دائمًا كيف يعثر عليَّ عندما أكون في حاجة إليه. يسندني دائمًا. ماذا أفعل من غيره؟

أقول له: «سوف أكون بخير».

أنا واقفة أنظر إلى الشارع، أنظر إلى آثار العجلات السوداء التي خلّفتها سيارة الشرطة. أقول له: «ينبغي أن أنظف هذا».

يسألني: «تنظفين ماذا؟».

«آثار العجلات على الطريق».

يقول: «يا إلهي! ماذا بك يا مولي؟ لدينا فوضى أكبر من هذه يتعين علينا تنظيفها. هل قتلَته فعلًا تلك المرأة التي اسمها بيولا؟ لقد تحدّثت

إليها عدة مرات. كانت تقول دائمًا إنها تكتب سيرة حياته وإنها أكبر المعجبات به».

«يؤسفني أنها قاتلته أيضًا، يا سيد بريستون!».

أنتظر منه قول شيء مما يقوله الناس احترامًا للموتى. لكنه لا يقول شيئًا. يظل صامتًا.

أسأله: «هل تتذكّر أنني حدثتك مرة عن غرفة نظّفتها مع ليلي وأنها كانت ممتلئة أوساخًا كأنها جحر فأر؟».

«بالطبع! حكيتِ لي تلك القصة العجيبة الأسبوع الماضي عندما كنا جالسين مع خوان».

«كانت تلك غرفة بيولا. كانت تغصّ بسقط المتاع، بكميات كبيرة من عبوات الشامبو الصغيرة... وكذلك وعاء عسل فضي مسموم».

يهز السيد بريستون رأسه ويقول: «الوحدة والفراغ. جمع الأشياء لملء ذلك الفراغ. داء رهيب له علاج بسيط».

أسأله: «ما علاجه؟».

«اللطف. وأن تعرفي كيف تسمعين الآخرين. ذراع حانية محبة. لو كان لديها أي من هذه الأمور، فلعلها ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه».

يفاجئني ما في كلامه من صدق.

«مولي؟ هل أنت واثقة من أنك بخير؟».

«أنا بخير. في الواقع، يريحني أن أحظى بلحظة من البعد عن كل شيء. آمل أن تعود الأمور إلى طبيعتها هنا».

«فلنأمل هذا! كل ما ينتهي إلى خير فهو خير. مولي... أتساءل إن كنت ترين أنك تستطيعين عما قريب أن تخصّصي قليلًا من الوقت كي نتحدّث؟ أنا في حاجة فعلًا إلى أن أكلمك».

أومئ برأسي. لكن فكرة أخرى تتبادر إلى ذهني في تلك اللحظة، فكرة مخيفة. لا أستطيع تصديق أنها لم تأتني من قبل.

أضم يد السيد بريستون بين يديّ. أسأله: «أنت لست مريضًا، أليس كذلك؟ أرجوك، قل لي إنك لست موشكًا على الموت».

يضحك السيد بريستون ويقول لي: «يا فتاتي العزيزة، لديك مخيلة ميّالة إلى المبالغة منذ أن كنت طفلة. لديك أيضًا نزوع إلى القفز إلى الاستنتاجات. أنا لست مريضًا، يا مولي. أنا في صحة ممتازة... على الأقل، بالنسبة إلى عجوز ضعيف مثلي».

أتنفس الصعداء. أقول: «في هذه الحالة، أنا في حاجة إلى بعض الوقت كي أرتاح وأتعافى. كان يومًا صعبًا، بل كان أسبوعًا صعبًا في حقيقة الأمر. هل يستطيع هذا الأمر أن ينتظر إلى أن يعود خوان مانويل».

يربت السيد بريستون على ذراعي. يقول لي: «بالطبع، يستطيع الانتظار. لقد انتظر زمنًا طويلًا، ولا أظن أن قليلًا من الانتظار الإضافي يمكن أن يغير في الأمر شيئًا».

بعد أسبوع

الفصل الثامن والعشرون

بما أنني خادمة في فندق، فأنا أعيش عددًا غير قليل من لحظات أحس بأنني عشتها من قبل. بعض الأحيان، عندما أنظف الغرفة رقم 401، أكون قادرة على أن أقسم بقاموس أكسفورد على أنني في الغرفة 201. وفي أحلامي، في الليل، تتغير أشكال الممرات وتتداخل، وتختلط الملاءات المتسخة بالملاءات النظيفة؛ لكن أتمكن آخر الأمر من ترتيبها والتمييز بينها. أنجز إعادة ترتيب الأسِرّة في وقت قياسي، وأجعل زواياها مشدودة قائمة، وأستبدل الوسائد التي عليها بقع من الشوكولاتة، وأترك كل شيء في أحسن حال من النظافة.

أعيش الآن لحظة كأنني عشتها من قبل. أنا واقفة في صالة الشاي في فندق ريجنسي غراند أعاينها مرة أخيرة قبل المناسبة الكبيرة لهذا اليوم، تمامًا مثلما عاينتها منذ أكثر قليلًا من أسبوع، يوم قرر السيد غريمثورب أن يدلي بإعلانه الهام. ذلك الإعلان الذي لم يستطع أبدًا أن يدلي به.

لقد وضعت على الطاولات مفارش بيضاء منشّاة وطويت كل منديل قماشي على هيئة برعم وردة، ورتّبت أدوات الطعام الفضية اللامعة الخاصة بفندق ريجنسي غراند. والآن، ها أنا واقفة معجبة بنتيجة عملي... منظر رائع، في حقيقة الأمر! فلنأمل فقط ألّا يسقط أحد ميتًا على المنصة فيفسد هذه الترتيبات الرائعة كلّها ويلطخ سمعة فندقنا البوتيكي من فئة خمس نجوم، فندقنا الذي لا تشوب سمعته شائبة.

أمامنا اليوم فرصة لاستعادة الأمر كله... أعني أنها فرصة لفندق ريجنسي غراند، لا للسيد غريمثورب. فالسيد غريمثورب لن يتنفس بعد الآن أبدًا.

لقد عملت من غير انقطاع وبذلت جهدًا كبيرًا كي أصل إلى هذه

اللحظة، لكني لست وحدي في ذلك. لقد تلقيت عونًا كبيرًا. عندما دخلت الفندق هذا الصباح، توقّفت على السلم كي ألقي التحية على السيد بريستون.

قال لي: «لقد جاء اليوم الكبير».

أجبته: «صحيح. تبدأ المناسبة عند الساعة العاشرة تمامًا».

تنحنح السيد بريستون وقال: «أوه، ليس هذا ما عنيته بكلامي. عنيت أن يوم الحديث بيننا قد جاء».

في خضم الاستعدادات لإقامة هذا المؤتمر الصحافي، نسيت أننا اتفقنا على قدوم السيد بريستون إلى شقتي كي نتناول الشاي. قلت له إننا نستطيع أن نتحدث في ذلك الأمر الذي انتظر طويلًا، ونكون هناك معًا بعد الظهر كي نستقبل خوان عند عودته من رحلته. على الفور، وافق السيد بريستون على هذه الخطة.

يعتقد السيد بريستون أنها ستكون مفاجأة كبيرة، لكني أعلم ما سوف يقوله لي... سيقول إنه قرر التقاعد من عمله بوابًا في فندق ريجنسي غراند. يظن أن هذا النبأ سيودي بتوازني الهش... لكن هذا لن يحدث. أنا أقوى مما يظن الجميع. البيضة الجيدة لا تنكسر بسهولة!

بطبيعة الحال، سوف أشتاق إليه كثيرًا، لكني سأتابع. وسيظل لنا لقاء على العشاء كل يوم أحد.

كان السيد بريستون قد قال لي في وقت سابق من هذا الصباح: «أتمنى لك اليوم حظًا طيبًا. أنا موجود إن احتجتِ أي شيء».

أجبته: «أنت موجود دائمًا. وأنا ممتنة لذلك».

أجابني بأن رفع يده إلى قبعته تحية لي. بعد ذلك صعدت درجات السلم مسرعة وعبرت باب الفندق الدوار اللامع إلى ردهة ريجنسي غراند. في الردهة لوحة ضخمة ذهبية الإطار تحمل إعلانًا عن المناسبة الكبيرة التي تقام اليوم.

اليوم
مؤتمر صحافي تحضره شخصيات مهمة
***الموضوع:* ج. د. غريمثورب**
كاتب روايات الغموض الراحل
الساعة العاشرة صباحًا
صالة الشاي في فندق ريجنسي غراند

مررت باللوحة مسرعة واندفعت نازلة السلم إلى غرف تبديل الملابس في قسم خدمة الغرف حيث وجدت أن ليلي قد وصلت قبل بدء موعد نوبة عملها. ارتدينا ملابس العمل. وضعت بطاقة «كبيرة الخادمات» في مكانها الصحيح فوق قلبي، ثم فاجأت ليلي بأن قلت لها: «انتظري لحظة! أعطني بطاقتك».

نظرت إليَّ ليلي حائرة وهي تضع بطاقة «خادمة متمرنة» في راحة يدي المبسوطة. عند ذلك، أعطيتها ما أخفيته في يدي الأخرى... بطاقة جديدة سوداء كُتب عليها بحروف ذهبية:

ليلي
خادمة

شهقت عندما أخذَت البطاقة من يدي. سألتني وهي تمسك بيدها ذلك الدليل على ترقيتها: «هل هذا صحيح؟».

أجبتها: «لقد فزت بها. ضعيها على صدرك!».

وقفت أمام المرآة وثبتت البطاقة في مكانها الصحيح على صدرها، فوق قلبها.

قلت لها: «ليلي، هل ترين نفسك قادرة على تقديم الشاي إلى الشخصية المهمة مثلما فعلتِ الأسبوع الماضي؟».

هزت رأسها. دهشة شديدة بانت على وجهها.

«لم أعنِ ما قلته حرفيًا». أؤكد لك أن النتيجة النهائية لتقديم الشاي

اليوم لن تكون موتًا غير متوقّع. هل أنت قادرة على هذا، يا ليلي؟ إذا كنت غير قادرة، فعليك أن تخبريني!».

قالت بصوتها الواثق الجديد: «أستطيع فعل هذا. على الخادمة الجيدة أن تعتبر نفسها قادرة على فعل كل شيء. أنت التي علمتني هذا».

قلت لها: «عليَّ الآن أن أذهب. من فضلك، أعدّي عربة الشاي من أجل الشخصية المهمة. ادخلي بها صالة الشاي قبل خمس دقائق من تمام الساعة».

انحنت لي ليلي، ثم ذهبت.

سمعت ذلك الصوت المألوف، صوت جرجرة قدمين في الممر. لا يمكن أن يكون صوت قدمي أحد غيرها... شيريل.

قلت لها لحظة دخولها غرفة تبديل الملابس: «صباح الخير، يا شيريل». المعجزات ممكنة؛ والساعة المعلّقة على الجدار دليل على ذلك. وصلت شيريل قبل أن تبدأ نوبة عملها!

سألتها: «إلام يعود الفضل في تقيّدك بموعد بدء العمل؟».

رفعت كتفيها وأجابت: «لا أدري! ألم يرِد في كتابك المزعج، كتاب التعليمات، شيء عن حكمة الاستيقاظ المبكر؟».

صررت على أسناني، لكني لم أقل شيئًا. ففي آخر المطاف، كان تقيّدها بالموعد علامة على تحسنها؛ وهذا بالضبط ما كنت أرجوه.

فبعد مناقشة حامية بيني وبين السيد سنو جرت منذ أسبوع، تقرّر عدم طرد شيريل من العمل على الرغم مما أقدمت عليه من سرقة فاضحة ومن مسلك غير مقبول.

لكني أوضحت لها بما لا يدع مجالًا للشك أن السلوك الحيواني من أي نوع كان لن يكون موضع تسامح أبدًا. قلت لها: «بكلمات أخرى، لن تتصرفي مثلما يتصرف جرذ سارق أو باندا يعبث بالقمامة». وضعتها ضمن برنامج «بيب» وقلت لها إنني أعقد عليها «آمالًا عظيمة»

في المستقبل. بطبيعة الحال، لم تفهم شيريل إشارتي الذكية إلى رواية تشارلز ديكنز[1]، فشرحت لها أن «بيب» هي الأحرف الأولى من عبارة «خطة تطوير مهني»، بمعنى أن استمرار عمل شيريل في الفندق رهن بالتزامها الدقيق بكل قَسَم وكل قاعدة وكل عبارة مما هو وارد في كتاب «*دليل خدمة الغرف*». كان معنى ذلك أيضًا أنني سأعيد تدريبها على العمل خادمة بحيث تعمل معي جنبًا إلى جنب وبحيث أكون قادرة على مراقبة كل حركة من حركاتها... وقد ظللت أراقبها في كل يوم يمر.

منذ بضعة أيام، عطست وهمّت بمسح أنفها بكمها. لكنني أوقفتها.

قلت لها: «آآآآ! استخدمي منديلًا من أجل مشكلتك». ثم ناولتها منديلًا من عربة الخدمة، من عربتها.

ويوم أمس، ضبطتها عندما همّت باستخدام ممسحة المرحاض لتنظيف المغسلة في غرفة واحد من النزلاء. قلت لها: «آآآآ! ما القاعدة؟».

أجابت: «ينبغي الحرص على الترتيب الصحيح عند التنظيف». لم يكن في إجابتها إلا أثر بسيط من التهكم.

إذًا، الأمر واضح: نحن نحرز تقدمًا.

أنا واثقة من أن شيريل ممتنة لما أبديته إزاءها من كرَم وعطف، مع أنها لا تعبّر عن امتنانها بالكلام. لكنها تظهر ذلك الامتنان بطرق أخرى.

أسمع صوتًا يقول: «عودي إلى الأرض، يا مولي! هل أنت معنا؟».

أستيقظ من أحلامي فأجد أنجيلا والمحقّقة ستارك واقفتين عند الحبل البني الممتد أمام مدخل صالة الشاي. ترفع أنجيلا الحبل ثم تنحني الاثنتان فتعبران من تحته آتيتين في اتجاهي.

أقول: «المحقّقة ستارك! لم أدر أنك آتية اليوم».

تجيبني ستارك: «وأنا لم أدر أيضًا! لكن سيدات الجمعية أتين البارحة إلى مركز الشرطة وقدّمن لي هذه البطاقة».

---

(1) «بيب ـ PIP»: هو الشخصية الأولى في رواية تشارلز ديكنز «آمال عظيمة».

أنظر إلى بطاقة «VIP» المعلّقة من رقبتها. تقول: «لم أستطع منع نفسي من القدوم. تعلمين كم يكون الفضول شديدًا، بعض الأحيان».

أجيبها: «آمل ألا يُقتل أحد اليوم خلال مجريات هذه المناسبة».

تسأل أنجيلا: «ما أخبار الاستعداد للمحاكمة؟».

تقول المحققة: «لقد أقرّت بيولا بأنها مذنبة. لذا، لن تكون هناك محاكمة، بل نطق بالحكم فحسب. لن تصدقا ما اعترفت به أيضًا».

تقول أنجيلا وهي تفرك يديها مستثارة: «أخبرينا».

تقول ستارك: «تلك الخادمة التي استطاعت الوصول إليها، الخادمة التي كانت تعمل لدى آل غريمثورب منذ زمن بعيد، اتضح أنها كانت على علم بوجود كاتب خفيّ في القصر. قالت إنها أدركت قبل زمن طويل من طردها ما كانت سكرتيرة غريمثورب الشخصية تفعله من أجله».

أسألها: «وهل تحدثتم إلى تلك الخادمة؟».

«لا. لقد قالت لي بيولا كل شيء شريطة ألّا تكشف عن هويتها. قالت إن لديها أسبابًا تحملها على البقاء في الظل. عندما أدركت بيولا أنها كرّست حياتها كلها لشخص زائف، لم تتأخر عن وضع خطة».

أقول: «خطة لقتل السيد غريمثورب».

تجيبني المحقّقة ستارك، «ليس تمامًا. قرّرت أن تمنحه فرصة، أن تمنحه فرصة الاستفادة من الشك. أعادت كتابة سيرته، لكنها حولتها إلى نص يفضح أمره كله. إذًا، صارت لديها الآن نسختان... النسخة الأصلية التي تقدم صورة تمتدحه، والنسخة الثانية التي تدينه تمامًا».

أسألها: «لكن، لماذا؟ لماذا تكتب سيرته بطريقتين اثنتين؟».«لأنها أرادت أن تسأله بنفسها إن كان زائفًا حقًا، وإن كان شخصًا مفترسًا معتديًا. وبحسب إجابته تنشر هذه النسخة أو تلك».

أقول: «لكنها قابلت غريمثورب أمام باب غرفته قبل يوم واحد من

الموعد المحدّد لإعلانه الكبير الذي سيدلي به، فرفض الإجابة عن أسئلتها المزعجة. لقد كتبت بيولا في دفترها شيئًا عن هذا الأمر».

تقول ستارك: «هذا صحيح. ثم إنه رفض أيضًا أن تصير كاتبة سيرته الرسمية حتى بعد أن هددته بأن تنشر السيرة التي تفضحه».

أضيف: «وأغلق الباب في وجهها».

تقول أنجيلا بنبرة قاطعة: «بعد تلك المقابلة، قرّرت أن تقتله. صدّه لها ثلاث مرات جعلها في حالة غضب قاتل».

تقول ستارك: «وكما اتضح لاحقًا، لم تكن عربة الشاي في صالة الشاي العربة الوحيدة التي سمَّمتها بيولا. لقد دست السم في كل وعاء العسل على عربة الشاي المتروكة أمام باب غرفته في الفندق في اليوم الذي سبق المؤتمر الصحافي وصباح يوم المؤتمر الصحافي نفسه».

أقول: «هذا ما يفسّر سرعة موته. كان يشرب شايًا مسمومًا طيلة أربع وعشرين ساعة».

تقول أنجيلا: «هذا أمر عجيب جدًا! أمر يشبه حبكة روايته 'سم وعقاب'. يصلح هذا مادة لبودكاست عظيم».

تقول ستارك: «لعل عليك أن تقدّمي ذلك البودكاست!».

تتسع عينا أنجيلا دهشة. تسألها: «هل تظنين حقًا أنني أستطيع فعل ذلك».

تجيبها ستارك: «أجل، هذا ما أراه».

يدخل السيد سنو صالة الشاي قبل أن يسنح لأنجيلا وقت للتأمل في الأمر. إنه يرتدي سترة خضراء زمردية اللون مع ربطة عنق مزخرفة معقودة على شكل فراشة. تقول المحقّقة ستارك: «انظروا! انظروا! لدينا شخص متأنّق هنا».

يقول: «تسرّني رؤيتك، أيتها المحققة». يخرج المنديل من جيبه

ويمسح قطرات العرق المتجمعة عند حاجبيه... «هل كل شيء جاهز؟ الضيوف مصطفون في الخارج. هل أدعهم يدخلون؟».

تقول أنجيلا: «أطلق الذئاب، يا سيد سنو».

أضيف: «والحملان أيضًا».

يتّجه السيد سنو صوب مدخل صالة الشاي. وبعد لحظات من ذلك، يتدفق إلى الصالة الفخمة حشد من الضيوف المهمين. أعرف كثيرين منهم... سيدات الجمعية، الوجوه والشعر الرمادي. لكن من بينهن اثنتان متميزتان عن البقية: بيردي، محاسبة الجمعية القصيرة ذات خصلات الشعر الوردية، والزعيمة غلاديس ذات القامة الطويلة والشعر المتموج والعلم في يدها.

تجلس المحقّقة ستارك قبالة المنصة، فتحيط بها سيدات الجمعية، وتنهلن عليها بأسئلة عن بيولا وإن كانت ستتم محاكمتها. وفي الوقت نفسه، تتزاحمن جميعًا على الفوز بمقعد إلى جانب المحققة.

وفي تلك الأثناء، اندفع المراسلون الصحافيون إلى آخر الصالة وهم يتصايحون بالتعليمات في ما بينهم، ويجهزون كاميراتهم وهواتفهم. تركيزهم كله منصب على المنبر القائم وسط المنصة تحت الأنوار الكاشفة.

يهتز هاتفي في جيبي. أخرج الهاتف وأنظر إلى شاشته. رسالة نصية من محبوبي خوان مانويل.

خمس دقائق حتى الصعود إلى الطائرة ✈. لا أطيق انتظار أ. أ. م. ف. ب.

أكتب إليه:

أ. أ... م. ف. ب.؟

أن أكون معك في بيتنا.

أجيبه:

وأنا أيضًا لا أطيق الانتظار!

هذا صحيح. شوقي إليه كبير جدًا. تصير الحياة أفضل لحظة يدخل باب شقتنا. أمر واحد يقلقني دائمًا: كيف أستطيع أن أشرح له كل ما جرى خلال فترة غيابه؟ هل يسامحني بعد أن أبقيت ذلك كله سرًّا؟ لكنني لا أستطيع التفكير في هذا... ليس الآن.

خطوة بعد خطوة. هذه هي الطريقة الوحيدة للوصول إلى أي شيء في الحياة.

أتفقّد الوقت في هاتفي. صارت الساعة العاشرة إلا خمس دقائق. في تلك اللحظة تمامًا، تصل ليلي دافعة أمامها عربة الشاي. تسير بها حتى المنصة. تومئ لي برأسها، وتتخذ موقعها.

يتناول المدعوون رشفات من الشاي ويستمتعون بالسندويتشات الصغيرة. جوّ من الترقب يعمّ الصالة كلها.

يدخل السيد سنو حاملًا فنجان شاي وملعقة. يتجه مباشرة إلى درجات المنصة، ثم يقف خلف المنبر ويشغّل المايكروفون.

«صباح الخير لكم جميعًا». يقول هذا وينقر بالملعقة الفضية على فنجان ريجنسي غراند كي ينتبه الناس إليه. يا له من صوت رنان جميل!

«يسرني كثيرًا أن أقدّم إليكم الشخصية المهمة التي ستتحدث إلينا اليوم وتدلي بإعلان مهم على صلة بسيد روايات الغموض ذي الشهرة العالمية، الذي توفي مؤخرًا، السيد ج. د. غريمثورب. من فضلكم، رحبّوا بالشابة المتميزة المتزنة التي كانت سكرتيرة السيد غريمثورب الشخصية، الآنسة اللطيفة سيرينا شارب».

يصمت حشد الناس وينفتح الباب الخفي في الجدار الخشبي الواقع خلف المنصة. تصعد إلى المنصة الآنسة شارب مرتدية فستانًا رسميًا أنيقًا أزرق اللون.

تقف خلف المنبر حاملة بيديها المرتعشتين مجموعة من بطاقات

الملاحظات. تسعل سعلة صغيرة ثم تبدأ كلامها.

«منذ أسبوع مضى، وقف خلف هذا المنبر نفسه كي يدلي بإعلان مهم رجل زعم أنه المبدع الوحيد لرواية *«الخادمة في القصر»*، التي هي واحدة من أوسع روايات الغموض انتشارًا، ومعها عدد كبير من عناوين حققت أفضل المبيعات. مثلما تعلمون جميعًا، لم يتسن له الإعلان عما اعتزم إعلانه».

يسود الصالة كلها صمت تام. العيون متعلّقة بالآنسة شارب.

«واليوم، سأقول لكم السر الذي لم يعِش كي يقوله لكم بنفسه. السر هو أن ج. د. غريمثورب لم يكن مؤلف كتبه. في واقع الأمر، كانت تلك الروايات من إنتاج أمي المتوفاة، سكرتيرته الشخصية السابقة».

تكسر الصمت همسات وتمتمات تسري من شخص إلى شخص في الصالة كلها.

تتابع الآنسة شارب كلامها: «على امتداد أكثر من ثلاثين سنة، كتبت أمي تلك الروايات كلّها وساعدته في تشكيل ما لديه من أفكار مشوّشة ضمن خطوط قصصية واضحة جذابة. كان يدفع لها أجر السكرتيرة الشخصية المتواضع في حين كانت، في حقيقة الأمر، كاتبته الخفية».

تنتظر الآنسة شارب إلى أن يهدأ الهمس، ثم تتابع: «أنا التي هدّدت السيد غريمثورب وأرغمته على عقد المؤتمر الصحافي الأسبوع الماضي، ذلك المؤتمر الذي كان منتظرًا فيه أن يفصح عن الحقيقة أمام العالم كله بطريقته... أعني على نحو نصف صادق، مراوغ، نرجسي. ولا شك عندي أبدًا في أنه كان سيعثر على وسيلة يقلل بها على نحو خفي من شأن عمل أمي، لكنني لم آبه لذلك كله لأنني سأتلقى مقابل صمتي عنه مبلغًا من المال، إضافة إلى مئة بالمئة من عائدات كتبه من الآن فصاعدًا».

«لكن ما اتضح هو أن العدل ممكن حقًا... بعض الأحيان، على

الأقل. ففي الأسبوع الماضي، اتصل ناشر السيد غريمثورب بالمحامين الذين يمثلونني، وقال لهم إنه بدأ اتخاذ الإجراءات القانونية الضرورية لإعادة كل من الاعتراف الرسمي والحقوق المالية إلى المؤلفة الحقيقية لكتب غريمثورب، أي إلى أمي. لم أكن أريد شيئًا غير الاعتراف بها وتقديرها حق قدرها. لقد كان ج. د. غريمثورب كاتبًا زائفًا، لا سيد رواية الغموض. أمي، أبيغيل شارب، هي السحر الحقيقي الكامن من خلف أعماله. الآن، اسمها هو الذي سوف يكتبه تاريخ الأدب... إلى الأبد. أشكركم جميعًا».

تضع الآنسة سيرينا شارب بطاقات الملاحظات التي حملتها بين يديها، ثم تنزل عن المنصّة وتسير صوب باب الخروج من صالة الشاي. ينهض الجميع عندما يدرك حشد المدعوين أنها منصرفة. ينهالون عليها بأسئلتهم في تتابع سريع.

«آنسة شارب! أين أنت ذاهبة الآن؟ ثمة أمور نريد أن نعرفها!».

«أخبرينا المزيد عن أمك! أية امرأة كانت أبيغيل؟».

«من أين كانت تستقي أفكارها؟».

«هل استمدت قصصها من الحياة الحقيقية؟».

«آنسة شارب، هل تعتزمين كتابة سيرة رسمية لحياتها؟».

«هل سنرى جزءًا ثانيًا من رواية '*الخادمة في القصر*'؟».

تخرج الآنسة شارب من صالة الشاي وفي أعقابها عدد كبير من المدعوين ومن عضوات جمعية المعجبات، فضلًا عن الصحافيين. تتردّد أصداء أسئلتهم على امتداد الممر كله.

بعد دقيقة أو دقيقتين، لا يبقى في صالة الشاي إلا عدد صغير من الأشخاص من بينهم المحقّقة الضخمة وأنا.

أقترب من المحقّقة ستارك الجالسة إلى طاولة قريبة من مقدّمة المنصة.

أراها تتناول قطعة بسكويت هش من طبق أمامها. تقول وهي تقضم قطعة من البسكويت: «لا بأس، هكذا هو الأمر!».

أقول: «صحيح!».

«واو! هذه لذيذة».

«إنها مصنوعة هنا، في مطبخنا الذي في الطابق السفلي».

تنظر إليّ المحقّقة ستارك بعينيها الليزريَّتين. تقول لي: «مولي، أنا جادة في شأن ما قلته لك ذلك اليوم. تستطيعين أن تصيري محقّقة ممتازة». تقضم قطعة أخرى وتمضغها مضغًا بطيئًا، ثم تبتلع ما في فمها... «وحتى تكوني على بينة من الأمر، لدينا ملابس رسمية في مهنتي. أفضّل العمل بملابسي المدنية. لكن هذا لا يعني أنك مضطرة إلى أن تفعلي مثلي».

تقرّب مني طبق البسكويت. أتناول قطعة بإصبعين اثنتين. تضيف المحقّقة: «لدينا بطاقات أيضًا. تستطيعين تعليق بطاقتك فوق قلبك تمامًا، مثل هذه البطاقة التي على صدرك الآن».

أقضم قطعة البسكويت الهشّة وأحاول تخيل الأمر... أنا في بدلة شرطة وعلى صدري، فوق قلبي، بطاقة مكتوب عليها «المحققة غراي».

أسألها: «هل لديكم في مركز الشرطة، قسم لتنظيف الملابس؟ وهل يجري كل يوم تعقيم بدلات الشرطة الرسمية وتغليفها بالنايلون الشفاف؟».

تنظر إليّ المحققة ستارك مضيّقة عينيها بطريقة غريبة. تقول: «لماذا أجد نفسي غير قادرة أبدًا على توقّع الكلمات التي ستخرج من فمك؟ في ما يتصل بتنظيف الملابس، أظن أن من الممكن ترتيب أمر النايلون الشفاف من أجل العاملين الذين يستحقون ذلك. لكن عليَّ أن أحذّرك: ساعات عمل الشرطة طويلة. المجرمون ليس لديهم يوم عطلة. عمل المحقّقين أصعب من عمل أكثر الناس».

أسألها: «أهو أصعب من عمل الخادمات؟».
«معك حق». بعد قولها هذا، تنهض على غير انتظار، وتتجه صوب باب صالة الشاي. تقف بعتبة الباب وتلتفت ناظرة إليّ من جديد. تسألني: «هل ستفكّرين تفكيرًا جادًا في ما قلته لك؟».
تنتظر إجابتي بينما أقضم قطعة أخرى من قطعة البسكويت الهشّة وأمضغها عشرين مرة، ثم أبتلعها. أجيبها: «سأفكر في الأمر».
تقول المحقّقة: «جيد! أراك في وقت لاحق، يا مولي غراي».
يفاجئني تمامًا ما تفعله المحقّقة بعد ذلك. تضع قدمها اليمنى خلف القدم اليسرى وتنحني لي انحناءة كبيرة بطيئة. تومئ برأسها بعد ذلك وتخرج من الصالة.

خاتمة

لا تخافي البدايات الجديدة أبدًا. لا بد أن ينتهي فصل من فصول الكتاب كي يبدأ فصل آخر.

أنا واقفة أمام خزانة جدتي العتيقة في الشقة التي كنت أعيش معها فيها. الشقّة التي سأكون فيها بعد وقتٍ قصير مع محبوبي خوان مانويل العائد من سفرته.

قطعة قماش في إحدى يديّ، وفي يدي الأخرى بيضة تزيينية. لم أنظف بيضة فابرجيه منذ أكثر من عشر سنين. لا شك عندي في أنني كنت آخر من نظفها عندما أزلت عنها ما تراكم عليها منذ عهد بعيد، كي أعيد الذهب والجواهر التي كبى لونها إلى لمعانها.

لست أبالي إن كان تنظيفي هذه البيضة يجعلها أقل قيمة. بل إنني لا أعلم إن كانت هذه البيضة كنزًا نادرًا مثلما قالت لي السيدة غريمثورب منذ تلك السنين كلها. ليس هذا هو المهم... ليس هذا ما يهمني. ما أحمله بين يدي شيء متألق ساحر جدًا يخطف أنفاسي كلما نظرت إليه. أمسح البيضة مرة أخيرة، ثم أضعها فوق خزانة جدتي تمامًا إلى جانب صورة أمي في صغرها. ماغي، تلك الغريبة التي وقفت ببابي. ماغي التي قالت إنها كانت تعمل خادمة مع جدتي. هل هذا صحيح؟ هل عملت بدورها في ذلك القصر الذي لا حبَّ فيه، فلمّعت الفضيات وعانت إساءات السيد غريمثورب؟ مضت هذه السنين كلها وانقضت ولا تزال أمي غريبة بالنسبة إليّ. أتساءل أحيانًا إن كانت ستظهر في حياتي مرة أخرى، إن كانت ستظهر من الغياب، إن كانت ستدق بابي ذات يوم مثلما دقته قبل تلك السنين كلها. لكنها لم تأت بعد. وقد لا تأتي أبدًا.

وأنا أفكّر في هذا كله، أسمع طرقًا على الباب فأشهق وأجفل. أنظر من ثقب الباب فتريحني رؤية السيد بريستون. أتى في الموعد المقرّر تمامًا. أتى مرتديًا ملابسه العادية بدلًا من معطف البواب وقبعته. أراه ينقل ثقل جسده من قدم إلى أخرى.

أفتح الباب وأقول له: «تفضّل بالدخول، يا سيد بريستون! لقد أعددت الشاي. لدينا وقت كافٍ كي نتحدث قبل وصول خوان مانويل».

يقول وهو يخطو داخلًا الباب: «رائع!». يناولني علبة. يقول لي: «هذه مافن بالزبيب، أكلتك المفضلة». يغمز لي بعينه.

«ما أشد لطفك! سوف أضيفها إلى جلسة الشاي». أقول هذا وآخذ العلبة إلى المطبخ.

ينزع السيد بريستون حذاءه، ثم يمسح أسفله بخرقة التنظيف الموضوعة في الخزانة، وبأناقة يضع فردتي الحذاء على الحصيرة داخل الباب.

أسأله: «كيف كانت بقية يومك، يا سيد بريستون».

يجيبني: «أفلحت في البقاء على قيد الحياة. عندما انتهى المؤتمر الصحافي، اجتاحنا الناس على سلم الفندق، أنا وعمال إيقاف السيارات. كان عليَّ أن أبعدهم بالضرب كي تستطيع الآنسة شارب المسكينة أن تفر منهم في سيارة تاكسي».

أسأله: «هل كنت على معرفة بها في طفولتها؟».

يجيبني: «لا. خلافًا لما كانت جدتك تفعله، لم تأت أبيغيل شارب بابنتها إلى القصر، لم تأت بها أبدًا. أنت الطفلة الوحيدة التي ذهبت إلى القصر... كنتِ فسحة الأمل المتألقة وسط كل تلك الظلمة المخيفة».

يغلي الماء. أنقله إلى إبريق شاي مناسب وأضع الإبريق على صينية جدّتي الفضية التي اشترتها من واحد من متاجر الأشياء المستعملة. أحمل الصينية إلى غرفة المعيشة بعد أن أضيف إليها فنجانين من البورسلان.

يجلس السيد بريستون على الأريكة، لكن من الواضح أنه غير مستقر. أراه يتململ ويتحرّك في جلسته.

أقول له: «سوف يصل خوان بعد قليل. لقد هبطت طائرته. لكن لدينا الآن وقت كافٍ لتناول الشاي».

يقول السيد بريستون: «جميل».

أصبّ الشاي في فنجاني المفضّل، الفنجان الذي عليه أقحوانات جميلة بيضاء وصفراء. أناوله هذا الفنجان. أملأ لنفسي فنجان جدتي الذي عليه صورة كوخ ريفي.

يقول وهو يتناول رشفة شاي: «إذًا، من الأفضل أن أدخل في الموضوع». يضع الفنجان على طبقه... «ما من طريقة سهلة لقول هذا، يا مولي، مع إنني أتوقّع أن تكوني على علم بما أريد قوله لك منذ بعض الوقت».

«سأقر بأنني أعرفه، يا سيد بريستون. لا بأس بالأمر. شيء منطقي تمامًا أن تتقاعد. تستحق أن تستمتع بوقت فراغك. ما من أحد قادر على مواصلة العمل إلى الأبد».

يحدّق السيد بريستون في وجهي بطريقة لا أستطيع قراءتها. يقول لي بعد لحظة: «مولي، أنا جدّك».

أول الأمر، أكون واثقة من أنني أخطأت السمع. لكني لا ألبث أن أدرك ما يحدث. السيد بريستون المسكين أكبر سنًا مما ظننت. وها هو يفقد صلته بالواقع. بدأ عقله يتخثّر مثلما يتخثر الحليب. لكن السيد بريستون يكرر قوله... «مولي، هل تسمعينني؟ أنا جدك بالفعل». أضع الفنجان من يدي. يبدأ العالم بالدوران من حولي. بيضة فابرجيه والمافن وصينية جدتي الفضية التي اشترتها من واحد من متاجر الأشياء المستعملة، ترقص كلها أمام عيني.

يقول لي: «مولي! من فضلك، لا تغيبي عن الوعي. خذي...». يرفع

فنجاني عن الطاولة ويضعه بين يدي... «الشاي قادر على شفاء العلل كلها».

أقول بين نفَسَين طويلين متقطّعين: «هذا ما كانت جدتي تقوله».

يجيبني: «أعلم».

يهدأ دوران العالم من حولي، ثم يتوقّف. أنظر إليه، أسأله: «سيد بريستون، هل عقلك سليم؟».

يجيبني: «ماذا؟ عقلي سليم بالطبع».

أنتظر أن يقول المزيد.

«يا مولي، منذ سنين، عندما كنت وجدتك في سن الشباب، عندما كنا عاشقَين، بذل أهلها كل ما يستطيعون كي يباعدوا بيننا. كان لدى جدتك مال في ما مضى. كان أهلها موسرين جدًا. كانت من الطبقة العليا، ولم أكن في عينَيْ أبيها وأمها أكثر من صعلوك صغير لا نفع فيه. لكن، وكما ترين، فشل والداها في إبقائنا متباعدين».

أسأله: «كيف فشلا؟».

يأخذ السيد بريستون رشفة من فنجان الشاي: «أعني هذا بالمعنى الحرفي، لا المجازي». يتنحنح ويتململ في جلسته.

لا أفهم الأمر إلا بعد لحظة. أقول: «أوه! فهمت الآن».

«يا مولي، عندما اكتشفت أن جدتك حبلى، لم يضايقني ذلك، لم يضايقني أبدًا. قلت لفلورا إن ذلك كان أفضل ما وقع لي في حياتي كلها. وددت أن نهرب وأن نعيش معًا في سعادة دائمة. وضعنا خطة لفعل ذلك، لكنا لم ننفذها أبدًا».

أسأله: «لماذا؟».

«ذهبتُ إلى بيتها في اليوم الذي سنهرب فيه معًا، وكان بيتًا فخمًا من ثلاثة طوابق في حي بعيد عن منطقة سكني. دققت الباب، لكنهم لم

يسمحوا لي بدخول البيت. بل إن والدها ووالدتها لم يقبلا أن يكلماني. الخادم هو الذي أخبرني بأنها رحلت منذ حين».

«هل هربت وحدها؟».

«أرسلوها إلى مكان بعيد رغمًا عن مشيئتها. أبوها وأمها أرسلاها إلى بيت للأمهات غير المتزوجات، بيت يأخذون فيه الطفل من أمه فور ولادته».

تتحول عيناي إلى صورة أمي الموضوعة فوق خزانة جدتي العتيقة. «لكنهم لم يأخذوا طفلتها. احتفظت جدتي بالطفلة. هي التي ربّت أمي».

«هذا صحيح لأنها هربت من ذلك المكان الذي لا حبّ فيه. لقد فرّت. عادت إلى المدينة. أتت إلى بيت أهلها طالبة الصفح عنها، لكن أباها وأمها تبرأا منها. كانت قد بلغت الشهر الثامن من حملها، يا مولي. قبلت وظيفة خادمة وعملت في بيت أسرة ثرية جدًا. ثم جاء موعدها فتغيبت بضعة أيام عن عملها كي تلد طفلتها. وبعد ذلك، عادت إلى متابعة العمل حاملة الرضيعة على خصرها».

أسأله: «لكن، لماذا لم تعد إليك؟ لماذا لم تساعدها؟».

«لم ترد أن تكون لها بي أية علاقة. لقد استطاع والداها أن يجعلاها تحسّ عارًا شديدًا. كانا يقولان لها إنها فاشلة لا نفع فيها، إنها لم تستطع فهم حقائق الأمور إلا بعد فوات الأوان. ظلّت جدتك سنوات طويلة ترفض رؤيتي. استأجرت هذه الشقة نفسها، يا مولي، وعاشت هنا حتى يوم وفاتها. هل كنتِ على علمٍ بأي شيء من هذا؟».

أقول: «لا».

«حاولتُ مرات كثيرة أن أساعدها، لكنها لم تسمح لي بذلك. وأيضًا، لم تسمح لي بأن أرى طفلتي. أقلعت عن المحاولة آخر الأمر. التقيت زوجتي، ميري. تزوجنا وأنجبنا طفلتنا، شارلوت. عشنا سعداء جدًا. لكني لم أنس فلورا أبدًا. لم أنس أمك أيضًا».

أقول: «اسمها ماغي».

«يعني هذا أن جدتك أخبرتك باسمها».

أقول: «لا، لم تخبرني».

«بعد ضغوط كثيرة، وافقت فلورا آخر الأمر على أن تسمح لي بالعودة إلى حياتها. بالطبع، كنت قد أخبرت ميري بكل شيء. كانت زوجتي الحبيبة على علم بالحكاية كلها. كانت على علم بأنني أنجبت مع فلورا طفلة من غير زواج. كانت ميري امرأة طيبة. وقد نشأت بينها وبين جدتك صداقة حلوة دامت سنين طويلة. عندما كانت جدتك تواجه المصاعب في عيشها وحيدة، كانت ميري هي القادرة على إقناعها بأن تقبل مساعدتنا. كنا نفعل ما نستطيع فعله، عندما نستطيع».

أقول: «إيجار الشقة! أنت من أعطانا إياه».

«هذا صحيح. وفي وقت لاحق، عندما صارت لأمك علاقة مع ذلك... ذلك...».

أقول: «ذبابة الليل».

«كنت أوشك على القول إنه تاجر مخدرات لص، لكنك كنت على الدوام أشد مني تهذيبًا». ينظر إليَّ بعينين ممتلئتين دمعًا... «آسف لأنني لم أقل لك من قبل أي شيء من هذا. لقد حاولت، لكني لم أستطع العثور على كلمات. خشيت أن تقضي هذه الصدمة عليك».

أقول: «لم تقضِ عليَّ، ولن تقضي عليّ».

«صحيح. أنتَ على الدوام أقوى مما قد يظنه أي إنسان».

تستقر عيناي على فنجان جدّتي في حضني. أقول: «لم تكن لي أم أبدًا. ولم يكن لي أب أبدًا. وفقدت جدتي». أرفع نظري إلى الرجل الجالس قبالتي... «سيد بريستون... لا أستطيع تصديق هذا. في هذه اللحظة، أجد نفسي أشد سعادة من أي وقت مضى. شيء كأنه سحر. لقد استعدت جزءًا من عائلتي».

أحس يدًا دافئة على ذراعي، وأجد صعوبة في رؤية السيد بريستون لأن الدموع تملأ عينيّ. أقول له: «لا أدري بم أخاطبك. لا يبدو لي اسم السيد بريستون مناسبًا تمامًا».

يقول مقترحًا: «ما رأيك في كلمة جدي؟».

أحمل فنجاني وأتناول رشفة من الشاي الدافئ. أضع الفنجان على طبقه وأقول: «نعم. جدي. يعجبني هذا كثيرًا».

في تلك اللحظة، يأتي صوت من عند الباب... صوت مفتاح يدور في القفل. ينفتح الباب، ويظهر خوان مانويل جارًّا وراءه حقيبة ضخمة. أقفز من مقعدي وأندفع إلى الباب.

يقول لي وهو يضمني بين ذراعيه: «يا حبيبتي! كم اشتقت إليك...».

ما أحلى عودته إلى البيت! أتمسّك به ولا أريد أن أفلته من بين ذراعيَّ. لا أفلته إلا عندما أنتبه إلى أنني تركت السيد بريستون جالسًا وحده على الأريكة.

يقول خوان: «سيد بريستون! هل أنت بخير؟». يسير إليه ويربت على ظهره.

يجيبه جدي: «أنا بخير... أحسن من أي وقت مضى».

يقول خوان وهو يبتسم ابتسامته المتألقة الجميلة: «جيد. قبل كل شيء، دعيني أقول لك إن عائلتي تهديك السلام. لو نسيت قول هذا لوقعت في مشكلة كبيرة. أرسلت أمي إليك حبها. وأرسل ابن أختي بطاقة درجاته في المدرسة. يحب المباهاة بحسن أدائه في دراسته. وهو أيضًا يريد كلبًا، لكن أختي ضد هذه الفكرة. مع ذلك، سوف يقنعها بالأمر. أنا واثق من هذا. انظري! هذه صورة لهم جميعًا عندما ودّعوني في المطار».

يريني خوان الصورة في هاتفه -عائلته الكبيرة مجتمعة كلها في المطار- هم مبتسمون جميعًا. يرفعون لافتة كتبوا عليها «هاستا برونتو»... نراك عما قريب! عددهم كبير جدًا. لا تكاد الصورة تتسع لهم.

يواصل خوان كلامه ويجلس إلى جوار السيد بريستون. أذهب إلى المطبخ كي آتي بفنجان إضافي مع طبق من مأكولات خفيفة لذيذة. أضع الفنجان والطبق على طاولة القهوة.

يقول خوان وهو يرينا صورة أخرى: «مولي، انظري إلى هذا. هل ترين؟ لقد كتبت إليك أمي بطاقة باللغة الإنجليزية». إنها تحمل تلك البطاقة، وتشير إليها معتزة. يكبّر الصورة كي تصير البطاقة مقروءة. تقول البطاقة: *إلى كنّتي. أحبك وأشتاق إليك. زورينا عما قريب*. أقول: «لكني لست كنّتها!».

يجيبني خوان: «ليس بعد». لكن وقبل أن أفلح في سؤاله عما يعنيه بذلك، يعود من جديد إلى زقزقته كأنه عصفور صغير. يقول لي إنه اشتاق إليّ كثيرًا وإن رؤيته عائلته كانت أمرًا جميلًا جدًا، لكن العودة إلى البيت شيء رائع.

ثم يصمت على نحو مفاجئ. يقول: «أنا غير مهذب. لم أسأل أيًا منكما عن حاله. آسف جدًا. تعلمان كيف أتكلم وأتكلم وأتكلم عندما أكون متحمسًا».

يجيبه جدي ضاحكًا: «أوه، نعم... نعلم هذا».

يقول خوان: «إذًا... كيف حالكما؟ هل كل شيء جيد؟».

أصبّ له الشاي آملة ألا أضطر إلى الإجابة عن ذلك السؤال.

يقول جدي: «كل ما ينتهي إلى خير فهو خير. لكن، كانت هناك...». يصمت قليلًا باحثًا عن الكلمة المناسبة.

أقول: «كان هناك وقت مضطرب».

يقول خوان: «مضطرب؟».

أقول موضحة: «المعنى: عاصف، متقلّب، شديد. فلنكتفِ بالقول إننا اضطررنا إلى معالجة أمر جرذ من نوع غير معتاد أبدًا».

يسألني: «ماذا؟ جرذ في شقتنا؟».

يقول جدي: «لا. في الفندق».
يسأل خوان: «هل استطعتم التخلّص منه؟ هل وضعتم له فخاخًا؟».
أقول مبتسمة: «فعلنا هذا، بكل تأكيد».
يقول جدي: «في حقيقة الأمر، مولي هي التي أمسكت بالجرذ».
يلتفت خوان إليَّ مبتسمًا من الأذن إلى الأذن. «هذه هي مولي. لا يستطيع أي خوف إيقافها. الحقيقة أن ما من شيء قادر على إيقافها».
يجيبه جدّي: «أنت محق جدًّا. هل تعلم أنها كانت هكذا منذ طفولتها».
يسأله خوان: «كيف؟ قل لي المزيد!».
خلال مجرى حديثهما، يحاول جدي تهيئة الجو للكشف عن الأمرين المهمين جدًا: جريمة القتل التي وقعت في الفندق في غياب خوان، وحقيقة أن السيد بريستون، ليس بواب الفندق فحسب، بل واحد من أفراد عائلتي... من لحمي ودمي.
أنا جالسة قبالتهما أستمع وأنتظر وأرتشف الشاي من الفنجان المفضل عند جدتي.
هي ليست معنا هنا... جدتي. هي ليست جالسة على الأريكة بين محبوبي ومحبوبها. هي لا تدندن بألحانها الصغيرة في المطبخ. مع ذلك كلّه، أعلم أنها هنا لأنها موجودة هنا دائمًا. هي المفتاح إلى كل شيء. مسار حياتي كلّها ناطق بحضورها في كل يوم يمر.
أعلم أنها تتابعني. أستطيع سماع صوتها في رأسي؛ أستطيع سماعه الآن:

العجائب تحدث دائمًا، يا مولي.
ما لا يقتلك يجعلك أقوى.
يأتي الخير إلى من يصبر وينتظر.

شكر وتنويه

يستلزم ظهور كتاب عمل قرية بأسرها، يستلزمه فعلًا.

عندما كتبت رواية *«الخادمة»*، كتبتها سرًا لأنني كنت مذعورة من احتمال الفشل. ماذا لو لم ترقَ إلى السوية المطلوبة؟ ماذا لو كره الناس ما وضعته فيها؟

دعوني أكتفي بالقول إنني لم احتفظ برواية «النزيل الغامض» سرًا مثلما فعلت برواية «الخادمة». فما الأمر الحسن في هذا؟ أثناء كتابتي الرواية، حظيت بأفضل فريق يمكن أن يتمناه أي كاتب. لقد ساعدوني وأرشدوني ووقفوا خلفي عندما كنت أكدح من أجل أداء المهمة الأشد صعوبة: تأليف الكتاب الثاني.

مادلين هيلبورن... أنت لا تدركين كم أنت استثنائية! أمر يفوق الكرم البشري أن تستطيعي منح تلك الكثرة الكبيرة من الكتّاب كل ما تمنحينهم إياه. شكري الوافر متّجه أيضًا إلى فريق العمل المدهش في مؤسّسة مادلين هيلبورن للآداب والأفلام والتلفزيون: ريتشل يوه، وليان لويز سميث، وفالنتينا بولمايكل، وغايلز ميلبورن، وراسكيا آرثر، وآماندا كارونغي، وجورجينا سيموندز، وجورجيا ماكفي، وحنه لادز.

وكيف يكون شكل التحرير الممتاز؟ إنه مثلث! لقد كوّنت المحرّرات اللواتي عملن معي فريقًا ثلاثيًا كان يعطيني الاتجاه الصحيح في كل لحظة. أشكر نيكول وينستانلي من بنغوين راندوم هاوس كندان وهيلاري تيمان من بالانتاين في الولايات المتحدة، وشارلوت برابين من مؤسسة هاربرفيتشن في المملكة المتحدة. أقدم الشكر أيضًا إلى الفرق المدهشة في مؤسساتكن كلها، مع شكري الخاص لكل من

دان فرنتش، وبوني ميتلاند، وبث كوكرام، وميريدث بال، وكريستين كوتشرين في كندا؛ ومايكل جاسمين، وكارولين ويشوهن، وتايلور نويل، وميغان ويلن، وجينيفر غارزا، وكوين روجرز، وكارا ويلش، وكيم «المتحمسة» هوفي، وجينفر هيرشي، وهوب هاتهوك، ودايان ماكيرنان، وإيلينا جيافالدي، وباميلا آلدرز، وسندي بالمان، وساندرا سجورسن في الولايات المتحدة الأميركية؛ وتيمبرلي يونغ، ولين درو، وساره شيا، ومادي مارشال، وإيملي تشامبيرون، وأليس غومير، وبيثان مور في المملكة المتحدة.

كان من بين أول من شجعوني في التلفزيون كل من كريس كولدبرغ، الكاتب اللامع الذي يعمل منتجًا في شركة وينترلايت بيكتشرز، وجوش ماكلولن، الشخص الإيجابي الذي لا يعرف التعب من شركة وينغ بيكتشرز، والعارف الساحر خوسيه فريدمان من آي سي إم.

الأصدقاء والكتاب والعاملون في قطاع النشر... تعلمون من أنتم! إن أردت كتابة أسمائكم كلها فقد أتسبب في أزمة نقص ورق جديدة. أدريا إيواسوتياك، وسارة سان بيير، وجيني يون، وفيليتسيا كوون، وسارة جيبسون، وجيسيكا سكوت، وأدريانا بيتزا، وكارولين تيستا... تذكرني كل واحدة منكن كيف تكون الروح الحماسية في إصدار الكتب. إيلين أومالي، وإيريك ريست، ورايان ويلسون، وساندي غابرييلي، وروبرتو فيرداتشيا، وسارة فولتون، وجورج جيدي، ومارتن أورتوزار، وجيمنا أورتوزار، وإنغريد ناساغر، وإيلين كيث، وماثيو لاوسون، وزوي ماسلو، وليز نوغنت، وآمي ستيوارت، ونينا دي غرامونت، وآشلي أودرين... أنتم من تجعلونني أظل عاقلة (على أية حال، تبذلون أقصى الجهد من أجل ذلك!). أشكر أيضًا آرلين ميلر لاتشمان لما قدمته لي من أفكار وملاحظات حكيمة.

عليَّ أن أعتذر من الناس جميعًا لأن لديَّ أفضل شقيق في العالم

كله. إنه دان برونو فوست (أقول لمن لديهم أشقاء آخرون إنني آسفة: لا تجوز مقارنته بأي واحد منهم!). لقد حظيت أيضًا بنعمة العلاقة مع عائلته: كنّته باتي، وابنة أختي جوان، وابن أخي ديفين. أنتم من تجعلونني أضحك؛ وأنا ممتنة لأنكم تضحكون مني أيضًا. إن لم يكن هذا ما يستحق الشكر، فلست أدري ما الذي يستحقه. أنتما، يا فريدي ويا بات... سأرفع نخبكما دائمًا. خالتي سوزان وابنة خالتي لويز، أنتما موجودتان على هذه الصفحات، وموجودتان دائمًا في دمي. ويا محبوبي توني، لست أدري كيف تحتملني، أو لماذا تحتملني، لكنني سعيدة بذلك إلى أقصى حد.

ويا قرائي... أنتم رائعون. أنتم تجعلون العالم مكانًا أفضل. أشكر لكم مساندتكم.

أبي... كنت أول من قرأ هذا الكتاب. صحيح أنك لم تعد معنا، لكني أسمع صوتك في رأسي كلما ناديتك. أشكرك لأنك تجيب النداء.



عن الكاتبة

نيتا بروز هي مؤلفة رواية *«الخادمة»* التي باعت مليوني نسخة في العالم كله وصدرت في أكثر من أربعين بلدًا. احتلت المرتبة الأولى في قائمة نيويورك تايمز للكتب الأفضل مبيعًا وفي مختارات نادي الكتب لدى *«غود مورنيغ أميركا»*. فازت رواية *«الخادمة»* بجائزة ند كيلي لرواية الجريمة الدولية، وبلغت المرحلة الأخيرة في مسابقة جائزة إدغار لأفضل رواية. تعيش نيتا بروز في مدينة تورنتو الكندية في بيت ذي نظافة متواضعة. وهي تتمنى أن تسمع آراءكم عبر إنستغرام وتويتر، أو عبر موقعها في الإنترنت.

nitaprose.com

Twitter and Instagram: @NitaProse